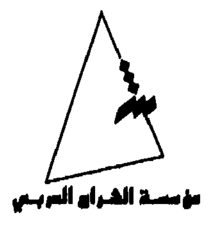
عُمان بين الاستقلال والاحتلال

دراسة في التاريخ العماني الحديث وعلاقاته الإقليمية والدولية

تأليف

د. خالد ناصر الوسمي

مدرس التاريخ الحديث بجامعة الكويت



عُمان

بين الاستقلال والاحتلال

الكتاب : **عُمان بين الاستقلال والاحتلال دِراسَة في التَاريخ العُماني الحَدْيث وَعَلاقَاتِه الإقلِيمِيَّة وَالدَوليَّة.**
المؤلف : **د. خالد ناصر الوسميُ.**
الطبعة : **الأولى ـــ كانون الثاني ١٩٩٣ م.**
حقوق النشر : **لمؤسسة الشراع.**
الناشر : **مؤسسة الشراع العربي.**
العنوان : ص.ب: ١٠٠٥ حولي ـــ الرمز البريدي 32011 الكويت.
برقيا : الشراع ـــ تلفون: ٢٤٣٤٨٨٧ ـــ فاكس: ٢٤٣٤٨٨٩.

عمان بين الاستقلال والاحتلال

دراسة في التاريخ العماني الحديث وعلاقاته الإقليمية والدولية
في الفترة ما بين ١٧٨٩ ــ ١٩٠٤ م

مقدمة

بقلم الأستاذ الدكتور سيمون جارجي

كثيرة هي الأسباب التي جعلت شعار النسيان يلف تاريخ جنوب شرق شبه الجزيرة العربية، وحضارة عمان منها في القلب.

فبينما لم يتوقف شغف الرحالة والمكتشفين والمستشرقين، ومتخصصي اللغة، وعلماء التاريخ والآثار الغربيين لصحراء شبه الجزيرة العربية « السعيدة » ليقدموا لنا توثيقاً بالغ الأهمية عنها.

نجد أن عمان لا تظهر في هذا النطاق بصورة أساسية من خلال الزاوية التجارية، وزاوية الملاحة البحرية المتعلقتين بالعلاقات الدولية بداية، ثم بالنفط في الآونة الأخيرة. ذلك أن المتطلبات الاستراتيجية والاقتصادية الخاصة بالأمم الأوروبية في العصر الاستعماري كان لها الأولوية على البحث التاريخي الذي لا فائدة منه إذا أخذناه لذاته.

وقد لزم أن ننتظر حتى وقت قريب لنرى ملامح الدراسة التاريخية الدقيقة المستندة إلى وثائق الأرشيف الرسمية والمصادر المحلية التي طالما تم تجاهلها. وهنا يجب ان نوضح أن هذه الدراسات التاريخية قام بها أساساً دارسون انكليز أو أمريكيون وإذا استثنينا بعض الحوليات التاريخية القديمة، العائدة إلى مسافرين أو دبلوماسيون فرنسيين، فإننا لا نعثر في اللغة الفرنسية على ما يمكن مقارنته مثلاً بالمحاضرات

ورسالة الدكتوراه التي كتبها الأستاذ الأمريكي « روبير جيران لاندن »[1].

ولذلك، فإن هذه الدراسة التي قام بها خالد الوسمي تسد ثغرة كما يبدو لي.

وفضيلة دراسته تكمن في أنها تندرج ضمن إطار مسعى مزدوج، يجمع بين منهجية البحث المطبقة في جامعاتنا، وبين منهجية أقرب إلى المزاج العربي، حيث الأولوية للتاريخ الزمني والشفوي، على التاريخ حسب الذهنية « الكارثيزية »[1].

هنا لا تستند الدراسة الى المصادر العربية فقط، بصفتها المعين الأساسي، بل إن المؤلف حاول أن يستمد عناصر بعض المعلومات من أفراد ما يزالون على قيد الحياة، من المفروض أنهم يحتفظون بجانب من التراث التاريخي الشفوي، الذي لا تمثل النصوص التاريخية المكتوبة بالنسبة له إلا نوعاً يساعد في عملية التذكير.

إن هذه هي حالة النقل الشفوي في عمان حتى اليوم، كما يقوم به آل « العبري » وآل « السالمي » الذين قد أضافوا معلومات قيمة خدمت هذا البحث.

فقط يمكن أن نأسف لعدم رؤية الأرشيف العماني بالذات، ولعدم مقارنته ومقابلته بأرشيف السفارات الأوروبية الخاص بالحقبة الزمنية التي يغطيها البحث، والتي يطغى عليها التنافس الدولي، وخاص التنافس القاسي بين فرنسا وبريطانيا العظمى.

إن المؤلف يعترف بتواضع بهذه الثغرة في دراسته، والحقبة الزمنية

---

(١) Landen, R.G., Oman since 1856, Peinceton 1967.

(٢) نسبة إلى فلسفة ديكارت ذات النزعه المنطقية الصارمة.

في البحث تشمل جزءاً طويلاً نسبياً من تاريخ عمان (١٧٨٩ — ١٩٠٤)، لكن الواقع أن تاريخ الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين، إنما يشكل إعادة الأكثر أصالة في هذا الكتاب، كما أن هذه الحقبة شكلت منعطفاً في حياة عمان وتطورها.

إن سنة ١٨٦٣ سنة حاسمة. إنها تمثل بالنسب لعمان لحظة انهيار مفاجئ ومؤلم في التوازن، سواء في وجودها الداخلي، أم في دورها الإقليمي. وقد أسهم عاملان ماديان اثنان مرتبطان بالنشاط الأوروبي في حدوث ذلك الانهيار:

— دخول القارب البخاري إلى خليج عمان والمحيط الهندي، مما أزاح الملاحة الشراعية التي كان العمانيون مقومة رجالها عن العرش.

— دخول نظام الاتصالات بالتلغراف، فكان نظاماً ثورياً في عالم الاتصال.

وبسرعة فقدت عمان مركزها بصفتها « القوة البحرية الأولى » في المنطقة، بينما أتاحت سرعة الاتصالات الفرصة للقوى النازعة للانفصال والقوى المنشقة لأن تتحرك بسرعة وفعالية.

ومن جهة أخرى، وفي الوقت نفسه، تعرضت عمان لانهيار مملكتها العربية الافريقية الصغيرة، عندما انشقت عنها زنجبار بتحريض من بريطانيا العظمى وبعون منها. ذلك أنه منذ سنة ١٨٠٠ بات مصير جنوب شرق شبه الجزيرة العربية مرتبطاً بالاستراتيجية والدبلوماسية البريطانيتين اللتين نعرف فوق ذلك آلاعيبها وانشغالها الدائب بضرورة تأمين الهيمنة على القارة الهندية.

فالمعاهدة الانكليزية — العمانية اشترطت منذ ١٨٠٠ أنه يمكن أن تدوم الصداقة بين الشعبين إلى آخر الدهر، أو حتى يوقف الشمس والقمر دورانهما.. ومع هذا، فإن هذه « العلاقات الخالدة » قد كدر

صفوها منذ نهاية القرن التاسع عشر دخول قوة أوروبية منافسة هي فرنسا.

لقد دفعت عمان وحدها ثمن هذه المنافسة التجارية على مخازن الفحم وتصاريح القوارب الشراعية بين باريس ولندن. ونتيجة لذلك دفع التدهور المادي والثقافي بهذا البلد إلى ليل العصور الوسطى وإلى أزمة هوية وانتماء، عبرت عن نفسها بالانكفاء على الذات والعداوة الشرسة لأي تغلغل أجنبي.

تلك كانت مقدمة لأن تصبح هذه البلاد « ممنوعة » من دخول عصر التكنولوجيا المتقدمة، كما تحلل وتشرح ذلك صفحات هذه الدراسة. ذلك أنه إذا كان تاريخ عمان قد بدأ يكتب ابتداءً من سنة ١٩٧٠ بوضوح كاف، فإن تسليط الضوء على الحقبة الغامضة من هذا التاريخ بوساطة الدراسة التاريخية لا يمكن إلا أن يشكل إسهاماً ثميناً.

إن معرفة أفضل ماضي وحاضر هذا البلد تكشف لنا عن واحدة من أغنى الحضارات في جنوب شرق شبه الجزيرة العربية التي ظل مصيره دائم الارتباط بمصير الشرق الأوسط ومصير الغرب نفسه.

سيمون جارجي
٢٠ نوفمبر ١٩٨٤

مدخل عام
موضوع البحث ومنهجيته

أولاً: موضوع البحث:

اختيارنا لعمان التي تقع في جنوب شرق شبه الجزيرة العربية كونها منطقة ذات تاريخ عريق، وحضارتها ارتبطت بحاضرة «اليمن الشعبية».

ومع ذلك فلم تثر عمان عند دارسي التاريخ ما يستحق من اهتمام. إن الكتب العربية، والأجنبية التي بحثت بأمانة ودقة في تاريخ هذه المنطقة نادرة، خاصة في العصر الحديث. وبالمقابل فإن العمانيين أنفسهم درسوا هذا الموضوع كثيراً وكتبوا عنه، إلا أن كتبهم ظلت موضع تجاهل حتى كتابة هذا الكتاب، ولذلك يمكننا القول إن المطبوعات الصادرة عن عمان تحتل حيزاً متواضعاً جداً بين جملة الكتب التي تتعلق بالمنطقة بشكل عام. ومعظم المؤلفين المهتمين بتاريخ هذه المنطقة لم يخصصوا سوى فصل واحد لعمان، أو أنهم جعلوها كملحق تاريخي لمنطقة الخليج.

أما الرحالة العرب أو الأجانب فقد اكتفوا بالمرور مر الكرام على عمان سواء ابن بطوطة، أو نيبور أو بلجريف.

وهكذا، فقد كان من الصعب معالجة هذا الموضوع. وقد سبق لنا أن خضنا هذه التجربة لدى دراستنا الأولى عن هذه المنطقة، تحت

عنوان « العلاقات بين فرنسا ومسقط (١٨٤٤ — ١٩٠٤) »[١]. التي هي عبارة عن بحث تاريخي يركز على العلاقات الدولية.

وفوق ذلك، فإن انطواء عمان على نفسها طيلة أكثر من نصف قرن يفسر جزئياً هذا النقص من المعلومات التاريخية، فطيلة فترة حكم سعيد بن تيمور (١٩٣٢ — ١٩٧٠) عاشت عمان حقبة قاسية لا يتردد المؤرخون في وصفها بأنها « حقبة قروسطية »[٢] بكل معنى الكلمة.

وسبب ذلك هو التخلف الذي وقعت فيه عمان، حيث تجمدت مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية. وطيلة هذه الحقبة (٣٨ سنة) حكم سعيد بن تيمور عمان كما لو أنها ملكية خاصة له. وأصبحت عمان في عهده « بلد الممنوع »؛ لأن كل شيء كان ممنوعاً، فالسفر، والحج، واستعمال وسائل الإنتاج الحديثة، وحتى في بعض الأحيان استخدام الأحذية ممنوع، وبقيت حالة العاصمة مسقط خير شاهد على هذه الحالة، إذ كانت مداخلها تغلق قبل مغيب الشمس من كل يوم.

ومع لحظة منع التجول في المدينة، التي لم يكن من الممكن المرور فيها دون مصباح، تكون حالة حصار خانق، حض عليها الانكليز بكل طاقتهم، مما أدى إلى جمود أية محاولة للتحديث والتجديد في البلاد، حيث أعاق هذا الركود الإنتاج الفني والثقافي بالدرجة الأولى. ومن السهل في ظروف كهذه أن نفهم أنه كان من الصعب دراسة بلد لم يكن من الممكن الدخول إليه أصلاً.

وبعد استيلاء السلطان قابوس على الحكم سنة ١٩٧٠ بدأت عمان في فتح حدودها أمام عدد ضئيل من المحظوظين، وقد سنحت لي

---

(١) بحث غير منشور باللغة الفرنسية.

(٢) نسبة إلى القرون الوسطى.

الفرصة مرتين لأكون بين الزوار الأوائل لعمان، وقد كنت أنتقل من اندهاش إلى آخر وأنا اكتشف هذا البلد، الذي ما يزال بكراً. واختلطت بالسكان المحليين، ووجدت طيبة وبساطة وكرما حاتمياً، فأتيحت لي الفرصة عندئذٍ لأن أطلع على ما كتبوه عن بلدهم، وتاريخه، وعشائره، وحياته الاجتماعية والاقتصادية. إن المدخل إلى تاريخ عمان في هذه الدراسة إنما يستوحى مباشرة، وبصورة كاملة، من هذه المعلومات الإخبارية، التي جمعناها على أرض الواقع.

ثانياً: منهجية البحث:

قسمت هذه الدراسة إلى ثلاثة أقسام؛ القسمين الأولين يدرسان تاريخ عمان بمللها أو طوائف حكمها، والقسم الثالث يتناول العلاقات الدولية.

وبالتحديد فقد شكلت الشهادات السنوية والمكتوبة للعمانيين أنفسهم المصدر الأساسي بالنسبة للقسمين الأولين فقط، انطلاقاً من الحكمة المستمدة من المثل القديم الذي يقول « أهل مكة أدرى بشعابها ».

وبالإضافة إلى هذه الوثائق استوحينا من عدد من الدراسات الأجنبية، أو من الدارسين العرب، الذين اهتموا بشئون عمان وتاريخها، وهي دراسات نادرة جداً كما سبقت الإشارة.

أما القسم الثالث، المتعلق بالعلاقات الدولية مع عمان، فقد اعتمدنا فيه أساساً على الأرشيف الفرنسي والبريطاني إلى جانب بضعة كتب تتعلق بالموضوع نفسه. وللأسف فإن الغياب الكامل للأرشيف العماني، الذي كان يمكن، في حال توفره، أن يشكل مادة للمقارنة، يقلل من قيمة هذه الدراسة.

ولكن هذه الثغرة على جديتها لم تمنع المقارنة بين الأرشيفين الفرنسي والبريطاني من أن تكون مثمرةً جداً، بما يسمح لنا أن تقدم صورة موضوعية بما فيه الكفاية للوضع في عمان خلال الحقبة المبينة.

ثالثاً: مصادر البحث:

انطلاقاً من اللغة كمعيار يمكن أن نقسم المصادر التاريخية التي اعتمدناها إلى ثلاثة أقسام.

القسم الأول: المصادر المكتوبة باللغة العربية.
القسم الثاني: المصادر المكتوبة باللغة الإنكليزية.
القسم الثالث: المصادر المكتوبة باللغة الفرنسية.

القسم الأول: المصادر العربية:

ويمكن توزيعها إلى مجموعتين:

أ) المصادر العمانية، وهي مكتوبة بيد العمانيين أنفسهم.
ب) المصادر العربية، وهي تعود إلى دارسين من الوطن العربي في هذا المجال.

المصادر العمانية وتشمل نوعين:

- المصادر المخطوطة.
- المصادر المكتوبة.

المصادر المخطوطة وقد اعتمدنا اثنتين:

أولاً: كتاب « كشف الغمة » الذي ألفه الشيخ سرحان بن سعيد العبري، سنة ١٧٢٨، وترجم جزءاً منه الكولونيل « روس » سنة ١٩٤٣، ونشره تحت عنوان « حوليات عمان »، وتوجد نسخة عن هذا المخطوط في المتحف البريطاني، ونسخة أخرى في « هيئة التراث » في مسقط. وأخيراً فإن عدداً من النسخ موجود بين أيدي العمانيين أنفسهم بوسف أنهم اعتادوا على نسخ أي عدد مطلوب من النسخ.

ويتألف كتاب « كشف الغمة » من أربعين فصلاً عن تاريخ عمان، منذ بداياته إلى عهد اليعاربة. فالفصل الأول إلى الفصل الخامس يركز على تاريخ عمان القديم، بينما تعالج الفصول الواقعة بين الفصل السادس والخامس والعشرين، المرحلة الإسلامية في عمان، حتى عهد الإمام علي بن أبي طالب. وتتناول الفصول الواقعة بين الفصل السادس والعشرين إلى الفصل الثاني والثلاثين المذهب الأباضي، وبين الفصل الثالث والثلاثين إلى الفصل الثامن والثلاثين مخصصة لتاريخ عمان منذ بداية الإسلام إلى نهاية عهد اليعاربة في القرن الثامن عشر، وقد اعتمدنا في دراستنا نسخة المتحف العلمي البريطاني الذي حصلنا منه على ميكروفيلم.

ثانياً: كتاب « الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيدين » من تأليف حميد بن محمد بن رزيق. وقد أصبح هذا الكتاب في متناول المختصين بتاريخ عمان، بفضل الترجمة التي قام بها بادجر سنة ١٧٨١، تحت عنوان « تاريخ أئمة عمان وسادتها »[1] وكتاب الفتح المبين أنجزه، في منتصف القرن التاسع عشر، رجل عماني يعرف بلاده وقبائلها خير معرفة، وهو يعرض تاريخها ضمن إطار علاقاتها بالخليج العربي وشبه الجزيرة العربية. ويتألف الكتاب من ثلاثة فصول، تتناول بالتدريج.

ـــ العلاقات العائلية لمختلف عشائر قبيلة الأزد.

---

(١) إن ترجمة بادجر لعنوان الكتاب ليست دقيقة لأن تاريخ عمان كما يعرضه الكتاب يتضمن عهد آل بوسعيد إضافة إلى العهود السابقة. ويمكن اعتبار هذا الكتاب ملحقاً يتمم مخطوطة الشيخ سرحان بن سعيد « كشف الغمة »، الذي يتوقف عند السنوات الأخيرة من عهد اليعاربة، بينما مخطوطة « الفتح المبين في سيرة البوسعيديين » يصل بالتاريخ حتى عهد ثويني بن سعيد، سنة ١٨٥٦ م (١٢٧٣ هـ). ونعتقد أن المهم الإشارة إلى أن بادجر ارتكب خطأً ثانياً عندما قال: إن مؤلف الكتاب هو « سليل بن رزيق » معتقداً أن « سليل » هذا هو اسم علم، مع أن الكاتب الأصلي ذكر اسمه عدة مرات في مخطوطته، وهو « حميد بن محمد »، أما إضافة « سليل بن رزيق »، فهي تشير فقط إلى كونه حفيد بن رزيق. وقد كشفنا عن هذه المسألة خلال لقائي الشيخ محمد السالمي.

ـــ السلاطين والأئمة العمانيين.
ـــ تاريخ آل بو سعيد.

المصادر المطبوعة:

أولاً: كتاب « تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان » لصاحبه نور الدين عبدالله بن حميد السالمي، المتوفي سنة ١٩١٣، الموافق ١٠ صفر سنة ١٣٣٢ هـ. وقد تم نشر الكتاب لأول مرة في القاهرة، سنة ١٩٦١ ـــ ١٣٨١ هـ، وصححه وعلق عليه واحد من كبار علماء الإباضية في الجزائر، وهو « أبو إسحق إبراهيم اطفيش الجزائري » ويطغى على الكتاب روح دينية، ومع ذلك فهو يمثل دراسة تاريخية عميقة لتاريخ عمان وأئمتها، منذ البداية، إلى عصر المؤلف سنة ١٩١٣ م، ١٣٣٢ هـ، ويغطي حتى عهد فيصل بن تركي.

ونشير هنا إلى أن الكتاب يرجع، أكثر من مرة، إلى نصوص مفكرين، أمثال المسعودي، وابن خلدون، غير أن المصدر الأساسي للكتاب يعتمد أيضاً على مخطوطة كشف الغمة، ومخطوطة الفتح المبين المذكورين سابقاً، ويتكون كتاب تحفة الأعيان من قسمين:

القسم الأول: من بداية تاريخ عمان عهد انهيار سد مأرب، إلى نهاية عهد بني نبهان.

القسم الثاني: من عهد اليعاربة حتى عهد فيصل بن تركي.

وقد اهتم المؤلف بالمسائل الدينية وبكل ما يتعلق بها. ومع أن هذه المسائل يمكن أن تبدو مضجرة، لكثرة تفاصيلها إلا أنها تشكل عملاً مهماً بالنسبة لكل من يهتم بتاريخ عمان. ويبرز الكتاب بصورة عميقة تاريخ الحياة الإجتماعية والفكرية، والعادات والتقاليد العمانية،

كما أنه يبلور الخطوط الكبرى لتاريخ عمان وحياتها الدينية، وبذلك فهو يكمل المخطوطتين بصورة مفيدة[1].

ثانياً: كتاب « نهضة الأعيان بحرية عمان » بقلم أبي بشير، محمد شيبة بن نور الدين عبدالله بن حميد السالمي » وسوف نرمز له بالسالمي محمد، تمييزاً له عن « الأب نور الدين السالمي ».

وقد تم نشر الكتاب في القاهرة (بدون تاريخ)، ونحن نعتقد أنه نشر خلال سنة ١٩٦٠ على الأرجح؛ لأن المؤلف خرج إلى مصر عقب ثورة الجبل الأخضر سنة ١٩٥٩، بقيادة الإمام طالب، وهو يذيل التاريخ حيث توقف أبوه؛ ليقف بدوره عند عهد سعيد بن تيمور، والد سلطان عمان الحالي (١٩٨٦).

ويتكون الكتاب من مجموعة من الأخبار المتفرقة عن عمان وطبيعتها الجغرافية، مع وصف مشاهد من مدنها. ويتوقف المؤلف مطولاً عند تاريخ الإمامة؛ لأنه كان أمين سر الإمام سالم بن راشد الخروصي، الذي تولى الإمامة في الفترة ما بين ١٩١٣ ــ ١٩٢٠، ١٣٣٤ ــ ١٣٣٨ هـ.

إن هذه الكتب هي برأينا المصادر الأكثر أهمية عن تاريخ عمان، وهي تغطي الحقل الذي يدور فيه بحثنا. وفوق ذلك توجد بعض الكتب العمانية ذات أهمية نسبية، نأتي إلى ذكرها في ثبت المراجع الخاصة بالبحث.

---

(١) للمؤلف الكثير من الكتب الأخرى التي تعنى بالفقه الإسلامي والإسلام عموماً، وأهمها كتاب « العقد الثمين » الذي يتكون من جزءين يبحثان في المسائل الدينية. وبالنسبة لكتابه « تحفة الأعيان » فإننا نضيف كلمة « نور الدين » إلى السالمي تمييزاً له عن ابنه، الذي كان مؤرخاً بدوره.

القسم الثاني: المصادر باللغة الإنجليزية:

البريطانيون أكثر من اهتموا بالمنطقة، وكتبوا عن عمان والخليج العربي، بفضل علاقاتهم مع هذه المنطقة، التي هيمنوا عليها حتى تاريخ قريب (١٩٧١)، وطبيعي أن أسلوبهم في كتابة التاريخ يختلف كثيراً عن الأسلوب الذي استخدمه العمانيون، فبحوث الانجليز التوثيقية أجريت بصورة علمية مع كل الوسائل التي وضعت تحت تصرفهم في أوروبا وفي السفارات، بينما فضل العمانيون الاعتماد على الطريقة الشفوية في التاريخ.

ويتضمن الأرشيف البريطاني ما يلي:

أ) المراسلات والتقارير السرية المنشورة، وغير المنشورة، وهي التي تشمل سجلات وزارة الهند التي تحتل مبنى كبيراً في العاصمة البريطانية معروفاً باسم Foreign and Commonwealth Relation office. وتتضمن السجلات المذكورة ما يلي، من وثائق:

١) تقارير تجارية.
٢) مؤلفات سياسية سرية.
٣) تقارير سياسية سرية.
٤) دائرة العلاقات السياسية والسرية.
٥) مجموعة مراسلات خاصة وشخصية.

ب) السجلات البريطانية العامة التي تتضمن الوثائق التالية:
١) تقارير وزارة المستعمرات.
٢) شئون سرية.
٣) مراسلات خاصة.
٤) تقارير وزارة الخارجية.

جـ) الوثائق المنشورة:[1].

١) كتاب إيتشيون (Aitchison)

إن العنوان الكامل لهذا الكتاب هو:

«A Collection of treaties Engagement and Sanads relating to India and Neighbouring».

مكون من ١٢ جزءاً، وصور في مدينة كلكوتا في الهند بين ١٩٢٩ ـــ ١٩٣٣ م. لقد كلفت وزارة الهند آيتشيون بإعداد وتجميع المعاهدات والاتفاقات المعقودة مع الهند والبلدان المجاورة.

وقد أعيدت طباعة هذا الكتاب مرات عديدة في كلكوتا، ما يهمنا منه المجلدان العاشر والحادي عشر، اللذان يتعلقان بشبه الجزيرة العربية والساحل الشرقي لأفريقيا.

٢) كتاب فرنسيس ووردن (Francis Warden)[2].

ويعد هذا الكتاب أهم المراجع البريطانية التي استقينا منها، وهو عبارة عن خلاصة تاريخية مفصلة عن عمان، وقبائل القواسم، والوهابيين، والعتوب، وتتكون الصفحات المخصصة لمسقط عاصمة عمان من ٦٤ فقرة، وقد شكل هذا الكتاب المهم قاعدة لبحثنا في العلاقات الإقليمية لعمان.

٣) كتاب لوريمر (Lorimer)[3]

وهو أكثر المراجع كمالاً بالنسبة للأحداث التي وقعت في مناطق

---

(١) المؤلفات باللغة الإنجليزية عن عمان كثيرة نذكر منها العديد عند نهاية البحث، وقد اخترنا ثلاثة مؤلفات كأمثلة:ـــ

Aitchison, francis Warden, Lorimer.

(٢) Historical sketch of the rise and progress of the government of Muskat; commencing with the year (694–95) and continued to the year 1819 by Mr. Francis Warden, member of council at Bombay 1856.

(٣) Lorimer. Gazetter of the persion Gulf culluta 1915

الخليج منذ القرن السادس عشر. يتكون هذا الكتاب من جزأين، أحدهما تاريخي، والآخر جغرافي. والجزء التاريخي لا بد منه لكل من يريد دراسة الخليج العربي، وشبه الجزيرة العربية، والعراق، وتركيا، وبلاد فارس، وخاصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

لقد تم إعداد الكتاب بناء على طلب من حكومة الهند، وظهر الجزء الجغرافي منه سنة ١٩٠٨، والجزء التاريخي سنة ١٩١٥ في مدينة كلكوتا، بعدد محدود من النسخ التي تم توزيعها في ذلك الوقت على موظفي الهيئة الدبلوماسية. وعند نشره في ١٩١٥ عد وثيقة سرية لا تدخل في التداول العلني، إلا بعد مرور مدة زمنية تحددها الحكومة البريطانية، وهكذا فقد ظل نشر الكتاب ممنوعاً حتى سنة ١٩٦٥، وفي سنة ١٩٧٠ صدر الكتاب في طبعة جديدة، قبل أن يترجم إلى العربية في قطر سنة ١٩٧٥.

القسم الثالث: المصادر باللغة الفرنسية:

لا يمكن مقارنة الوثائق الفرنسية بنظيرتها البريطانية فيما يخص موضوعنا سواء على صعيد عدد الوثائق، أم على صعيد طرائق البحث. ومع ذلك فالوثائق الفرنسية مهمة بالقدر الذي تكشف فيه عن مستوى نسبة الرهان الناجم عن المنافسة الفرنسية ـــ البريطانية في هذه المنطقة. هذه المنافسة تبرز وجهتي نظر فرنسا وبريطانيا، وقد سمحت لنا بإنشاء مقارنة مثمرة بين مصدري المعلومات، خاصة في غياب الأرشيف العماني.

إن الوثائق الفرنسية قليلة العدد، إذا ما قورنت بالبريطانية إلا أنها ذات وزن؛ لأن معظم الذين كتبوا عن عمان استمدوا معلوماتهم من الوثائق البريطانية ذات الطابع الأشمل على مشكلات عمان بالذات.

ومن المفيد أن نذكر أن التكوين الفكري للعرب، الذين بحثوا في هذا الموضوع غالباً متأثراً بالمعلومات البريطانية.

وقد صنفنا الوثائق الفرنسية إلى ثلاثة أنواع:

- الدراسات غير المنشورة.
- المجلات الدورية والحوليات.
- الكتب المنشورة.

فالوثائق غير المنشورة محفوظة في وزارة الخارجية الفرنسية، وهي تتكون من التقارير والرسائل المتبادلة بين ممثلي فرنسا، في هذه المنطقة، وفي مقدمتهم « أوتافي Ottavi » الذي عايش المنطقة في الفترة ما بين ١٨٩٤ — ١٩٠١، وقد تم فتح ملفه أمام الباحثين في أواخر الخمسينات. في هذا القرن.

إن الدوريات والحوليات الفرنسية مسجلة في قائمة المراجع في نهاية هذا الكتاب ، وتكمن أهمية هذه المجلات الدورية، في الواقع في كونها تستمد معلوماتها من مراسلين خاصين للشركات في منطقة الخليج العربي، وكذلك استمدت معلوماتها من ملاحظات الرحالة في المنطقة، وفي كلا الحالتين إن الدوريات والحوليات الفرنسية قد استمدت معلوماتها من شهود عيان.

أما الكتب المنشورة، فهي الأقل عدداً، وقد كتب أهمها الكابتن البحري « غويان Guillain » الذي يتكون كتابه من ثلاثة مجلدات، وقد تم نشره بأمر من الحكومة الفرنسية. والضابط المؤلف كان شاهد عيان بنفسه؛ لأنه عاش في عمان في عهد سعيد بن سلطان (١٨٠٦ — ١٨٥٦) ويمكننا القول إنه كان في هذه الفترة المحرك الأساسي للنشاط الفرنسي في المنطقة.

ونشير أيضاً إلى كتاب « سلطنة عمان » لمؤلفه « فيروز كاجار »، وهو عبارة عن أطروحة في التاريخ الدبلوماسي والقانون الدولي، ويعرض كاجار في هذا الكتاب أحداث المنافسة الفرنسية البريطانية وما رافقها

من تقلبات ومفاجآت عند نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين. وقد تم نشر الكتاب في باريس، سنة ١٩١٤.

وأخيراً من المفيد الإشارة إلى المقال الذي كتبه أوزو (Auzoux) الذي يتضمن ملخصاً للعلاقات الفرنسية العمانية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ومن البديهي القول إن هذه القائمة ليست تامة؛ لأنه ينبغي أن نضيف إليها مختلف الأبحاث المنشورة عن الموضوع في السنوات الأخيرة، التي نكتفي بذكرها لأخذ العلم بها في قائمة المراجع في آخر هذه الدراسة.

القسم الأول

الخلفية التاريخية

الفصل الأول

عمان قبل الإسلام

بقيت عمان بسبب موقعها الجغرافي المتميز، أكثر جزء منعزل في شبه الجزيرة العربية، وذلك راجع للموانع الطبيعية، فهي محاطة بالبحر من جانب، وبالصحراء من جانب آخر.

وإذا كانت التضاريس الطبيعية ساهمت في العزلة، فإنها في الوقت نفسه ساعدت على استقلالية عمان، فكانت الظروف الطبيعية إيجابية وسلبية في كلا الحالتين.

إيجابية عندما تتكون القوة في عمان لتتسع، وسلبية للآخرين، عندما تكون عمان في درجة من الضعف، فإن هذه الحواجز الطبيعية تعرقل إلى حد ما زحف الغازي إليها.

ولم يعرف عمان الداخل مستعمراً إلا نادراً طيلة قرونه التاريخية، حيث إن الاتصال مع القوى الأجنبية قد استمر في الساحل فقط.

والتاريخ القديم لهذا البلد ليس واضحاً، فالمعلومات المتوفرة من نصوص الأولين، أمثال ابن بطوطة، وابن خلدون، لا تقدم لنا سوى القليل من المعلومات، ولا يمكن أن تعيننا على تكوين فكرة واضحة

عن الحقب السياسية والتاريخية لذلك العهد البعيد. إن كل المعلومات ذات طابع جغرافي، وليس تاريخياً، ويتعلق أغلبها بالجهات الساحلية، ولا نجد حتى في نتاج المؤرخين العرب سوى ملاحظات سطحية عن هذا البلد.

وباختصار، فإنه بالنظر لغياب المعلومات الدقيقة حول عمان يمكننا القول عموماً إن اسم « عمان » كان يعني بلداً أوسع من مساحة عمان في حدوده الراهنة، فقد كان عمان مصطلحاً جغرافياً يصل إلى اليمن غرباً، ويمتد في الشمال الشرقي للخليج العربي، ويشمل البحرين وهجر.

وما نعرفه عن سكان عمان القدماء يستند فقط إلى الأساطير، ويأتي من مصادر غامضة وقليلة الوضوح، إلا أنها مرتبطة مع ذلك بتاريخ شبه الجزيرة العربية. ومن المؤكد أن أصل أهل عمان عائد إلى واحدة من القبيلتين العربيتين الأساسيتين، قحطان، أو عدنان. ومن المعتقد أن هاتين القبيلتين عرفت عدداً كبيراً جداً من الهجرات على شكل موجات متلاحقة، وربما جاء السكانون الأوائل إلى عمان من اليمن، ثم شكلوا قبيلة اليعاربة المنحدرة من أصل قحطاني[1].

ويبدو أن موجة أخرى من الهجرة لحقت باليعاربة، وتكونت بصورة أساسية من أبناء قبيلة الأزد، التي ينتسب إليها معظم عرب عمان الحاليين المنحدرين من الأصول القحطانية[2].

أما تفرق الأزد في مختلف أقاليم شبه الجزيرة العربية، فقد يكون سببه انهيار سد مأرب[3].

---

(١) ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العجم والبربر... الجزء الثاني، ص ٤٧

(٢) CAUSSIN DE PERCEVAL, Essai sur l'histoire des arabes tome I, tableau II

(٣) « حسب الأساطير القديمة كانت عمان قبل انهيار سد مأرب تحت سيطره قحاطبة اليمن، ويقال إن يعرب بن قحطان بسط سيطرته على كامل جنوب شبه الجزيرة =

وكملحق لهذا التاريخ الأسطوري تسمح الحفريات الأثرية بالحصول على بعض المعطيات حول تاريخ عمان القديم.

وقد بات من المؤكد اليوم أنه في العصور الغابرة (١٠ آلاف سنة ق.م.) وجد عرقان عند شواطئ الخليج العربي، هما الساميون والحاميون.

ونكتفي بالإشارة إلى أنه منذ تلك العهود السحيقة توجد جماعات سكانية سامية في العراق، وعلى ضفاف الخليج العربي، وتتحدث الكتابات الأشورية القديمة عن جزيرة اسمها « نيدوك ـــ كي »، التي يصبح لفظها باللغة الأكادية « دلمون »، وهذا الاسم يعني البحرين، كما تشهد على ذلك كتابة محفورة يرجع تاريخها إلى (٢٨٧٢ ق.م.)، وهي تتحدث عن الأعمال الخارقة التي قام بها الملك سرجون الكبير، الذي كان قد احتل « نيدوك ـــ كي »، وميناء آخر يدعى « ماغان »[٤].

ودعيت ماغان في ذلك العهد أي « جبال النحاس »، التي تحدثت عنها أشعار السومريين، وقدمتها بوصفها أرض الرخام. ويشير « غودا » ملك أغاش (٢٦٠٠ ق.م.) إلى أن الخشب كان يأتي من ماغان، وهو مكان مشهور بكثرة الماعز. ونستدل من أساطير السومريين ـــ مضافاً إليها اسطورة جنة دلمون ـــ أن إله ماغان كان اسمه « نندولا »، أي ملك القطعان.

ومن الممكن ألا تكون جبال النحاس في ماغان شيئاً آخر غير الجبل الأخضر في عمان. ويوجد سبب آخر يدفعنا لأن نعد ماغان

= العربية، وعلى حضرموت، وعمان. وتوضح بعض النصوص أن سكان عمان الأوائل كانوا من « الأزدية »، وأن الفرس احتلوا الساحل العماني قبل المسيح، ومن المحتمل أن يكون هذا الاحتلال قد حصل خلال عهد « قورش » الفارسي تفرقوا مثل انهيار السد أو بعده، ووصلوا أخيراً إلى عمان تحت قيادة ناصر بن فهم الأردي ». راجع كتاب كوسان، المرجع السابق، المجلد الأول، ص ١١ ـــ ٥٦.

(٤) Cambridge Ancient history vol. I p. 182

رديفاً لعمان، وهو أن الصخور البركانية « ديوريت » والنحاس، والماعز، موجودة في عمان. أما الخشب فمن المعتقد أنه كان يأتي من الهند، ليعاد تصديره ثانية، كما لا يزال يحدث في وقتنا الحالي.

وكانت التمور تشكل في ذلك الزمن إنتاجاً رئيسياً في عمان. وهكذا، فإن الأسفار البعيدة كانت أمراً مألوفاً على طوال شاطئ شبه الجزيرة العربية منذ النصف الأول من الألف الثالث قبل المسيح(٥).

وقد استحوذ اسم عمان بالذات على اهتمام المؤرخين، وفي ذلك يقول كوسان دي برسفال: « ومن المتفق عليه أن يعرب بعد أن قضى على قوة الأزد أقام سلطة منفردة للقحطانية على طول الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية. ويضيف أنه استولى على الحجاز من العمالقة وأعطى هذه المقاطعة لأبيه جرهم، وأوكل إلى أخويه عمان وحضرموت أمر المقاطعتين اللتين حملتا الاسم نفسه لاحقاً »(٦) وهذا الرأي الذي يبديه « دي برسفال » أيده بعض المؤرخين المسلمين.

ولكن السالمي يرى أن اسم « عمان » هو اسم هضبة في نواحي سد مأرب في اليمن، حيث كانت تسكن قبيلة الأزد قبل انهيار السد. وعندما هاجرت هذه القبيلة إلى عمان سمتها باسم تلك الهضبة(٧).

وسواء جاء الاسم اشتقاقاً، من اسم ابن قحطان، أو من قبيلة الأزد، فإن الأمر سيان. ومن جانبنا فنحن نميل مع ذلك إلى الإفتراض الأول، لأن « عمان » عاش قبل هجرة قبيلة الأزد، التي تنحدر من قحطان، ونضيف أيضاً أن الفرس الذين كانوا يحتلون شواطئ عمان، سواء قبل هجرة الأزد، أم بعدها، وكانوا يطلقون على عمان اسم « مازون » وهو

---

(٥) المرجع السابق، ص ٤١٦.

(٦) Caussin de Perceval, cf. Bible, tome I p. 50

(٧) السالمي نور الدين عبدالله بن حميد: « تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان »، ص ٧٠.

ما يمكن عده تحويراً لكلمة « ماغان »، التي سبقت الإشارة إليها، وقد قال أحد الشعراء القدامى:

إن كسرى سمى عمان مزونا ومزون يا صاح خير بلاد
بلدة ذات زرع ونخيل ومراع ومشرب غير صاد

وبعد أن قدم المؤرخون بعض المعلومات الموجزة من تاريخ عمان القديم، وعلاقاتها مع الأزد، نجدهم يتركون تدوين أخبار هذا البلد، فلا يعودون إليه إلا لاحقاً عند الحديث عن تقلبات وأحداث هجرة الأزد قبل انهيار سد مأرب وبعده. ويغطي شيء من الغموض رواية هذه الهجرة، ومع ذلك فهنالك إجماع على واقع أن قبيلة الأزد المقيمة في عمان، هي نفسها التي هاجرت بقيادة « عمر مزيقيا » ويرى مؤرخون آخرون أن عمان قد شهدت هجرة أزدية أولى قبل الهجرة، التي قادها عمر، وقد تولى « نصر » ابن الأزد، قيادة الهجرة الأولى. وبشكل عام، وفي هذا الصدد، يذكر كوسان دي برسفال في كتابه حيث يقول: « ونذكر أن عمر مزيقيا كان قد ترك مأرب في السنة ١١٨ ق.م. حسب ما تهيأ لي » ولم تسر كل عائلات قبيلة الأزد وراء عمر. فالعائلة التي كان يرئسها مالك ابن اليمن بقيت في مأرب، أما المجموعات الراحلة، فكانت تنتمي إلى فرعين من قبيلة الأزد، الأول يرجع إلى مالك بن فهم، والثاني يرجع إلى مازن ابن الأزد، وإلى هذا الفرع ينتمي عمر مزيقيا.

وتوجه فصيل آخر من الأزد شرقاً، فوصل حتى عمان، وهؤلاء كانوا أولاد ناصر، الذي تسموا منذ ذلك الحين باسم « أزد عمان »[٨]، والواقع أن ثلاث مجموعات من الأزد معروفة تاريخياً وهي:ـــ

" وجدت في النص أنه ناصر بن الأزد.

(٨) Caussin de Perceval, cf. Bible, pp. 201 – 202.

ـ أزد سارات.
ـ أزد شنوة.
ـ أزد عمان[٩].

وما يهمنا هنا هم أزد عمان، الذي يقال إنهم من أولاد مالك بن فهم فكانت أزد عمان من قبائل تنتمي إلى مالك بن فهم[١٠]؛ ومن المحتمل أن تكون جماعة من هذه الفئات قد توجهت صوب البحرين حوالي سنة ١٩١ م. بقيادة مالك بن فهم الذي يرتبط بتاريخ العراق، حيث أسس مملكته. ولا نعرف ما إذا كانت هذه الجماعة قد جاءت من « بطن معد » أو من عمان[١١].

وبالمقابل، فإننا نعرف أنه قد دارت معارك بين قبيلة الأزد القادمة من اليمن إلى عمان على الأرجح، وبين الفرس في عهد مالك بن فهم[١٢].

وعلى ما يعتقد أن هجرة هذا الفرع الأزدي بقيادة مالك بن فهم، الذي ذهب إلى عمان، والذي وجد الفرس يحتلون الشواطئ العمانية قد استطاع أن يتغلب عليهم ويطردهم من عمان، هي هجرة متأخرة. ونعتقد كذلك أنها تمت بعد انهيار سد مأرب، وأن هناك هجرة سابقة لهذه الهجرة، وهي توافق الاحتلال الأول لشاطئ عمان على يد كورش، حوالي سنة ٥٣٦ ق.م. من المعتقد أن المهاجرين بقيادة مالك بن فهم وجدوا عمان خاضعة لسيطرة الفرس، وحرروا عمان من الفرس[١٣].

---

(٩) «Encycolpedie de L'Islam», t. I, pp. 834–836.

(١٠) Ibid, p. 835.

(١١) Caussin de Percevel cf. Bible pp. 214–215.

(١٢) Encyclopedie de L'Islam, p. 83.

(١٣) KAJARE, Firouz «Le Sultana d'Oman» p. 27 Paris 1912.

الفصل الثاني

عمان في العهد الإسلامي

عندما ظهر الإسلام كانت شبه الجزيرة العربية فريسة لخلافات دينية وسياسية واجتماعية.

وكانت مكة مركزاً تجارياً مهماً، تسيطر عليه الطبقات الأرستقراطية القرشية. وتدل دراسة المصادر الإسلامية أن الدعوة الجديدة اهتمت بمشكلة الفروقات الاجتماعية، وبالنزاعات الدائمة التي كانت تنتج عن تعدد إله (الشرك).

وهكذا فقد قدم الإسلام حلاً سياسياً واجتماعياً ودينياً لأزمة التفكك الديني والسياسي والإجتماعي. وكانت منزل رب الكعبة « الله » ترتفع بارتفاع النفوذ المكي في شبه الجزيرة العربية.

وليس من المستبعد أن العقول كانت مهيأة لقبول رسالة التوحيد، التي جاء بها النبي محمد ﷺ، وقد نفهم من لفظة « الحنفاء » في « القرآن » الناس الذين توصلوا إلى التحرر من الديانة التقليدية، الاعتقاد بإله واحد.

فالدين الإسلامي هو دين التوحيد الذي بشر به الرسول محمد ﷺ

في الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، ثم انتشر في جميع أقطار المعمورة.

ويعتمد الدين الاسلامي في تشريعاته على القرآن الكريم، ثم على السنة، ثم على الإجتهاد. فالقرآن الكريم هو الوثيقة الرئيسة للإسلام، والسنة هي حديث النبي محمد ﷺ، سواء لشرح ما جاء في القرآن الكريم، أو ما واجه المسلمون من مشكلات حياتية. أما الاجتهاد، فهو كل ما أضيف من أفكار ومذاهب على الشريعة الإسلامية.

والدين الإسلامي عند ظهوره في القرن السابع الميلادي لم يكن مثلما يعتقد بعض المسلمين الآن، فقد كان خاضعاً للمناقشة والجدل قبل الاقتناع أو الإقناع، ولم يكن مثلما يتصوره مسلمو القرن العشرين، كمسلمات لا نقاش فيها. وكون الإسلام خارجاً عن نطاق دراستنا نرى أنه من المفيد إبراز كيف كان يفهم الدين الاسلامي عند ظهوره، ويهمنا هنا أهل عمان كيف كانوا يفكرون في الدين الإسلامي ؟ وكيف فهموه ؟

يقول السالمي نقلاً عن السيرة الحلبية:

إن عمرو بن العاص قال: خرجت حتى انتهيت إلى عمان، فعمدت إلى عبد، وكان أحلم الرجلين، وأسهلهما خلقاً، فقلت: إني رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك، فقال أخي المقدم علي بالسن، والملك، وأنا أوصلك به حتى يقرأ كتابك، ثم قال وما تدعو إليه ؟ قلت: ادعوك إلى الله وحده، وتخلع ما عبد من دونه، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله، قال يا عمرو، إنك سيد قومك، فكيف صنع أبوك ؟ يعني العاصي بن وائل، فإن لنا فيه قدوة قلت: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ، ووددت له لو كان آمن، وصدق به وقد كنت قبل على مثل رأيه، حتى هداني الله للإسلام، قال: فمتى تبعته، قلت: قريباً. فسألني: أين كان إسلامي ؟ فقلت: عند النجاشي، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم. قال: فكيف صنع

قومه بملكه؟ قلت: أقروه وأثبتوه، قال: والأساقفة؟ أي رؤساء النصرانية والرهبان ــ قلت: نعم، قال: 'انظر يا عمرو ما تقول إنه. ليس من خصلة في رجل أفضح له ــ أي أكثر فضيحة ــ من كذب، قلت وما كذبت. وما نستحله في ديننا ؟ ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي، قلت له بلى: قال: بأي شيء علمت بذلك يا عمرو ؟ قلت: كان النجاشي رضي الله عنه يخرج له خراجاً، فلما أسلم النجاشي وصدق بمحمد ﷺ. قال: لا والله، لو سألني درهماً واحداً ما أعطيته، فبلغ هرقل قوله. فقال له أخوه: أتدع عبدك لا يخرج لك خراجاً، ويدين ديناً محدثاً ؟ فقال هرقل: رجل رغب في دين واختاره لنفسه، ما أصنع به ؟ والله لولا الضن بملكه لصنعت كما صنع، قال: انظر ما تقول يا عمرو، قلت والله صدقتك، قال عبد: فأخبرني ؟ ما الذي يأمر به وينهى عنه ؟ قلت يأمر بطاعة الله عز وجل، وينهى عنه بمعصية، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان، وعن الزنا وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب، فقال: ما أحسن هذا الذي تدعو إله: لو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ﷺ، ونصدق ربه، ولكن أخي أضنن بملكه من أن يدعه، ويعيد ذنبا أي تابعا: قلت: إنه أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه. فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم قال إن هذا لخلق حسن، وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من الصدقات في الأموال، ولما ذكرت المواشي قال يا عمرو ويؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر، وترد المياه ؟ فقلت نعم، فقال والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا. قال عمرو : فمكثت أياماً باب جيفر، وقد أوصل إليه أخوه خبري، ثم إنه دعاني فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بصنبعي (أي عضدي)، قال دعوه. فقال: تكلم بحاجتك، فدفعت إليه كتاباً مختوماً، ففض ختامه، فقرأه حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه، ثم قال : ألا تخبرني عن قريش، كيف صنعت ؟ فقلت تبعوه،

إما راغب في الدين، وإما راهب مقهور بالسيف. قال: ومن معه ؟ قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا في ضلال مبين. فما أعلم أحداً بقي غيره في هذه الخرجة. وأنت إن لم تسلم اليوم ونتبعه، تطوءك الخيل وتبيد خفراؤك (أي جماعتك)، فاسلم تسلم ؟ ويستعملك على قومك، ولا ندخل عليك الخيل والرجال، قال: دعني يومي هذا، وارجع إلي غداً، أتيت إليه، فأبى أن يأذن لي، فرجعت إلى أخيه، فأخبرته أني لم أصل إليه، فأوصلني إليه. فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً في ما يدي، وهو لا تبلغ خيله ههنا، وإن بلغت خيله ألفت (أي وجدت) قتالاً ليس كقتال من لاقى قلت وأنا خارج: غدا، فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه، فأصبح فأرسل إلي فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه، وصدقاً وخلياً بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكان لي عوناً على من خالفني[١٤].

وفي مصدر آخر، أمر النبي محمد ﷺ بكتاب إلى جيفر وعبد ابني الجلندى الأزدي العماني، اللذين كانا يسيطران على عمان، وأرسل إليهما عمرو بن العاص، مزوداً بكتاب هذا نصه:ـــ

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي. السلام على من اتبع الهدى،

أما بعد، فإني أدعوكما إلى الإسلام، اسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كاف، لأنذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام، فإن ملككما زائل عنكما، وخيلي تطؤ ساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما »[١٥].

(١٤) السالمي نور الدين « تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان »، الجزء الأول، ص ٦٠ ــ ٦١.

(١٥) Hamidullah Muhammad: «de prophete de L'Islam», =

وبعد مباحثات عديدة بين عمرو بن العاص، وملوك عمان، دخلت هذه البلاد في الإسلام[١٦] هذا ما تم بين مندوب الرسول ﷺ عمرو بن العاص وملوك عمان، وربما النقل والتحريف أضاف بعض الأقوال على ما دار بين عمرو وجيفر إلا أن تتبعنا لتاريخ عمان يؤكد محتوى هذه المناقشة.

ونعتقد أن النقاش الأول، وهو الاستفسار عن شرائع الإسلام والنجاشي وهرقل، حديث دار بين عمرو وعبد أخ الملك جيفر، أما النقاش الثاني، الذي يستفسر عن قريش، قد دار بين جيفر وعمرو.

ومع أن الأخوين أبديا رغبة صالحة في عدم التخلي عن الحكم بكل سهولة، إلا أنهما في الأخير أسلما حتى يسلما. ولربما وجدا في الإسلام ضالتهم، لطرد الفرس من عمان، وقد كان الفرس في ذلك الوقت يحتلون الشاطئ العماني.

ونعتقد كذلك أنه عندما خلا عبد بأخيه جيفر، وخصوصاً أن عبداً يوصف بأحلم الرجليين، أخبره بأنه بالإمكان تفادي خطر الإسلام بدفع ضريبة مالية، أما إسلام جيفر، فهو تكتيك لبقائه في الحكم، وهذا واضح من موقعة دبا.

وهكذا، فإن عمان أصبحت إسلامية منذ عهد النبي محمد ﷺ. وبعد موته توجه وفد عماني إلى المدينة لتقديم الولاء. وقد أسهم العمانيون في ممارسة حركة الردة، سواء بالمال، أم بالرجال، مما أقنع الخليفة أبا بكر الصديق بأن يثبت أسرة الجلندى على عرش عمان[١٧].

ونظراً للبعد الجغرافي للخلافة فقد أتيح لعمان شيئاً فشيئاً الاستقلال

---

vol. 2 T. I Paris 1959, pp. 272-273.

=

(١٦) لمزيد من التفاصيل ارجع إلى السالمي نور الدين، المرجع السابق، الجزء الثاني.

(١٧) السالمي نور الدين: التحفة، مرجع سابق، ص ٥٦ — ٧٣.

من جديد عن النفوذ المباشر للسلطة المركزية الإسلامية، مما جعل الفرصة سانحة لعمان سنة ٧٥٣ م، (١٣٥ هـ) لتختار عمانياً، ليكون قائداً روحياً ومدنياً وعسكرياً للجماعة الإسلامية هو الجلندى بن مسعود، الذي كان على الأرجح أول من حمل لقب « إمام عمان ».

ومما ساعد أهل عمان على ذلك اعتناقهم للمذهب الاباضي المنتسب إلى عبدالله بن أباض. وبانتماء أهل عمان لهذا المذهب زاد الاختلاف بينه وبين سائر الملل الإسلامية. ولكن سرعان ما دبت الفوضى بعد موت الجلندى الذي لقى حتفه في معركة مع قوات أرسلها أبو العباس السفاح.

وبموت أول إمام عماني فتح الباب على مصراعيه أمام المنافسات الداخلية، ولما شعر كبار القوم بقرب الخسارة، اجتمعوا في « نزوى » عاصمة عمان في ذلك الزمن، واختاروا إمام جديداً حسب المبادئ الإباضية، هو محمد بن عفان، الذي لم يستطع أن يحكم طويلاً. فبعد سنتين من استلامه الحكم أدى سوء إدارته إلى إقالته. خلال العهد الذي جاء بعده، وهو عهد الوارث بن كعب، غزا الخليفة هارون الرشيد عمان، ولكن دون جدوى. وبعد أن تولى غسان بن عبدالله قام بتطهير ساحل عمان من الهجمات المتواترة التي كان يشنها القراصنة القادمون من منطقة نهر السند.

غير أن الأمور تدهورت بسرعة مع نهاية حكم غسان بن عبدالله، نظراً لعدم وجود شخصية لها من القوة ما يكفي للسيطرة على مطامع الحكم عند الأرستقراطية العمانية.

وفي عهد مهنالك جيفر (٨٤٠ م ـــ ٢٢٦ هـ) أعيد تأكيد تبعية مقاطعة المهرة الملحقة بعمان، وأجبرت على أن ترسل كل سنة قطعان الجمال والماشية كافة إلى نزوى لتدور حول نصب أقيم لهذا الغرض، وذلك ليتم تحديد نوعية وكمية الجزية المتوجب دفعها.

وفي عهد عزان بن تميم الخروصي المعروف بقساوته دبت الفوضى من جديد، مما دفعت بمجموعة من العمانيين لأن يطلبوا حماية الحاكم العباسي في البحرين محمد بن نور، ولم يترك هذا الحاكم الفرصة تضيع من يديه، ولم يجد صعوبة تذكر في اجتياح عمان، والإقامة في نزوى التي أخلاها عزان، على إثر إصابته بجروح مميتة. ولكن الحماية العباسية لم تكن لترضي الجميع، وقد فضل عدد من العائلات العمانية النزوح إلى البصرة أو شيراز أو هرمز.

وبعد أن أخمد محمد بن نور محاولة عمانية فاشلة لقتله، واطمأن إلى الهدوء الظاهر المسيطر على المنطقة عاد إلى معقله في البحرين، تاركاً لنائبه أمر حكم عمان.

وما كاد محمد يقفل راجعاً إلى البحرين، حتى ثار شعب عمان، فقتل البجيره نائب محمد وانتخب مجدداً إماماً له. ونظراً لكثرة المشكلات التي كانت تواجه الحكم العباسي فلم يكن قادراً على أن يتحرك لقمع هذه المقاطعة المتمردة، وهكذا فخلال ثلاثين سنة تعاقب سبعة أئمة على حكم عمان، كانت الصفة المشتركة بينهم أنهم لم يستطيعوا أن يجنبوا البلد ويلات الفوضى، فكان كل واحد منهم أقسى من الآخر لمعالجة الأمور.

وفي عهد عمر بن محمد آخر هؤلاء الأئمة انتشر القرامطة في عمان، ونجحوا في تقليص سلطة هذا الحاكم. وأخيراً ففي ظل إمام راشد بن الوليد دعت عدة فئات متنافسة داخل الحكم، الخليفة العباسي مرة أخرى لتقديم العون لها والتدخل، فسارع إلى إرسال قواته، واجتاح عمان، واكتسح نزوى وأخضع الإمام.

وبهذه الطريقة تم القضاء على الحكم الذاتي العماني من جديد.

استقلال عمان:

مع تزايد تفكك السلطة العباسية أكثر فأكثر تمكنت عمان من التخلص، ومن ثم التحرر من وصاية هذه السلطة، ففي الفترة ما بين سنة ١٠٠٩ إلى ١١٥٤ م تتابع خمسة أئمة على الحكم قبل أن تتكرس هيئة السلطة إلى بني نبهان طيلة ٢٨٤ سنة. وقد تميزت هذه الحقبة الطويلة بوقوع ثلاث غزوات أجنبية ضد عمان.

ففي سنة ١٩٦٥ م نجحت حملة فارسية قادمة من فارس في اجتياح عمان، وعاثت فساداً فيها. وبعد ذلك بقليل قدمت قوات جديدة من هرمز هذه المرة تحت قيادة محمد بن أحمد الكوشي الموالي للمغول، ونزلت على الأرض العمانية إلا أن القوى المحلية ردتها على أعقابها، ومع ذلك فإن قائد الغزاة عدّ عملية الغزو نصراً له، ونصب نفسه سيداً قانونياً وفعلياً للساحل الشمالي ـــ الشرقي لشبه الجزيرة العربية، ثم جمع ما يكفي من المرتزقة ليعيد تنظيم قواته في قلهات، ليزج بها في هجوم على ظفار، حيث تعرضت للإبادة في النهاية على يد العرب الذين استطاعوا أن يعيدوا ترتيب قوتهم. وأطلق العمانيون على قبور هؤلاء المرتزقة « قبور الأتراك » مما يسمح للاعتقاد بوجود عدد كبير من المرتزقة الأتراك بين صفوف مغول محمد بن أحمد الكوشي.

وفي حوالي سنة (١٤٣٥ م ـــ ٨٣٩ هـ) وصل إلى منصب الإمامة الإمام أبو الحسن الذي بوصوله انتهى عهد بنو نبهان، الذين صودرت أملاكهم وسلمت لبيت المال، الذي يشرف عليه الإمام. وابتداء من سنة ١٦٢٤ عرفت عمان عهداً وفر لها الاستقرار اللازم لرخائها على يد الإمام ناصر بن مرشد. لقد كان الوضع السياسي قبل وصول الإمام ناصر بن مرشد في عمان فريسة التنافس بين الأمراء المحليين، الذين كانوا يديرون شئون مقاطعاتهم كيفما اتفق لهم، وفريسة تهديدات الغزاة

البرتغاليين الذين يمسكون بكامل الشاطئ منذ النجاحات التي حققها « البوكيرك » سنة ١٥٠٧. ووسط هذا الجو نجحت شخصية الإمام الجديد في كسب ود مجموعة المقاطعات التي بقيت مستقلة قبل أن تقرر الانضمام تحت قيادة الإمام ناصر بن مرشد.

وبعد أن هزم الإمام ناصر العصاة في ساحة المعركة أخذ يسترجع شيئاً فشيئاً كل ما سبق للبرتغاليين أن استولوا عليه من الشاطئ العماني، ولم يترك للمحتلين إلا بضع نقاط محصنة، مقابل دفع جزية كبيرة من المال للإمام العماني. وحتى وفاته سنة ١٦٤٩ م سعى ناصر ليدفع بالبرتغاليين إلى خارج عمان، وقد نجح في ذلك إلا إذا استثنينا مواقع الحصون في مسقط ومطروح وصحار.

وعندما استلم ابن عمه سلطان بن سيف (١٦٤٩ ــ ١٦٨٨) الحكم بعده لجأ إلى خطة بارعة ليستولي على آخر ما بحوزة البرتغاليين. وبالفعل فقد اختار سلطان بعد ظهر أحد أيام الأحد بينما كان جنود القوات المسيحية منهمكين بطعام وليمة الأحد « الربانية » ليأمر رجاله في الهجوم، ويحصل بذلك على النصر. وقد بدأ بعد ذلك إلى تنمية التجارة، وحصل على ما يكفي من ثروات تجعل من مدينة نزوى قلعة يستعصي فتحها، ثم مات سنة ١٦٨٨ م.

وجهد ابنه بلعرب بن سلطان في تطوير التعليم، وأسس مدرسة في قلعة « جبرين » حيث كان يقيم، إلا أن الحرب الأهلية التي شنها أخوه ضده لم تدع له الوقت لإكمال البناء. وبعد أن اضطر للانكفاء داخل قلعة جبرين مات هناك فجأة.

وعمل سيف الأول بن سلطان على إخماد الحرب الأهلية التي سبق له أن أشعل نارها وبذل كل ما بوسعه لطرد البرتغاليين من المستعمرات العمانية القديمة عند الشاطئ الشرقي لافريقيا. لقد كان سيف الأول محارباً مقداماً، وفي الوقت نفسه كان رجل دولة من الطراز الأول

فقام بتنمية ري الأراضي وأوجد مساحات زراعية جديدة لأشجار النخيل والمانغا وجوز الهند، واستخدام كل ما بحوزته من إمكانيات ونشاط، ليزيد من ازدهار عمان إلى أن توفى في ٤ أكتوبة ١٧١١ (١١٢٣ هـ).

وقد خلفه ابنه سلطان الثاني بن سيف، الذي تدين له عمان بفتح البحرين، وطرد الفرس الذين يحتلونها منذ استطاع الشاه عباس سنة ١٦٢٢ أن يسيطر على البحرين.

وقد خلف مهنا بن سلطان الإمام سلطان الثاني بن سيف بدلاً من ابنه سيف، الذي كان صغر سنة لا يسمح له بتحمل أعباء الحكم. ولكن فترة حكم مهنا كانت قصيرة، واضطر تحت وطأة التنافس بين مختلف الجماعات إلى الإنكفاء في قلعة الرستاق، حيث حوصر ثم دخل السجن وأغتيل سنة ١٧٢٠ م (١١٣١ هـ). وقد أدخل الإمام مهنا تجديداً في التنظيم الاقتصادي لبلاده، فألغى الضرائب بمسقط، وأنشأ مرفأ حرا.

وقد خلف الإمام مهنا، يعرب بن بلعرب، الذي جاء به إلى الحكم جماعة من الذين كانوا قد شاركوا في قتل الإمام مهنا، إلا أن حكمه لم يكن شرعياً، ثم ما لبث أن أبعد بواسطة الأمير الشاب سيف الثاني بن سلطان الثاني، فقد نجح أنصار هذا الأمير في إنهاض الشعب ضد يعرب، الذي اضطر للهروب واللجوء إلى حصن جبرين، بينما اغتيل القاضي الذي كان قد أضفى صبغة الشرعية على استلامه العرش. وهكذا تم إعلان سيف الثاني بن سلطان الثاني إماماً، ولكن عمه ووصيه بلعرب أثار بعجرفته، التي لا نظير لها، غضب زعيم قبيلة الغافر محمد بن ناصر أثار مؤبدي الإمام السابق يعرب ضد بلعرب، وكسب الكثير من الأنصار في دعوته معلناً حرباً مفتوحة على عدوه، وبالفعل فقد مال الحظ إلى جانبه، وظل يكافح إلى أن نودي به إماماً في ٢ أكتوبر ١٧٢٤. غير أن وصوله إلى مسمى إمام جلب له تزايداً من الخصومات

والأعداء، وتشكلت جبهة عريضة ضده، مما اضطر مرة أخرى إلى مواجهتهم ولكنه، بينما كان يغير على قلعة صحار، حيث كان خصمه خلف بن مبارك وأتباعه يتحصنون في هذا الحصن، أصيب برصاصة طائشة أودت بحياته. وبعد مرور وقت قصير من ذلك علم المتمردون أن قائدهم خلف بن مبارك لقي مصرعه هو أيضاً أثناء المعركة. ولما انتشر نبأ مصرع محمد بن ناصر أوقف أتباعه القتال من تلقاء أنفسهم، واستسلموا للوريث الشرعي الشاب سيف الثاني بن سلطان الثاني وقد بلغ في هذا الوقت سن الرشد، ونودي به إماماً في الثاني من أبريل سنة ١٧٢٨ م.

وما أن استلم الإمام الجديد الحكم حتى اضطر لمواجهة عقبة غير متوقعة، فقد نصب ابن عمه بلعرب بن حمير نفسه إماماً في منطقة الظاهرة. وفي بحثه عن حلفاء في كل مكان؛ ليتمكن من التغلب على هذا المنافس الجديد، ارتكب سيف الثاني حماقة اللجوء الى الفرس. وبالفعل فما أن حلت الهزيمة ببلعرب حتى عمد الفرس إلى فتح المدن الرئيسة في المنطقة، ومنها نزوى لحسابهم. ولكن هذه الخيانة الفارسية كان لها على الأقل نتيجة إيجابية واحدة، هي اتحاد كل الشعب العماني في وجه الغازي الفارسي، الذي لم يلبث أن ولى الأدبار خارجاً من قلعة صحار. ولكن سوء حظ سيف ظل يلاحقه؛ فقد طرده إمام جديد هو سلطان بن مرشد ١١٣٨ م، ومع أن الفرس خانوا سيف في أول مرة، فقد عاد يطلب عونهم ليعودوا إلى خداعه مرة أخرى، وبصورة واضحة أيضاً مما جعله يواجه فشلاً كاملاً لتحقيق أهدافه، مما اضطره أن ينسحب من المواجهة، إلى قلعة الحزم، حيث ما لبث أن مات وخلفه بعد ذلك بقليل سلطان بن مرشد، الذي لقي مصرعه في حصار صحار.

لقد انتهت هذه المرحلة، المضطربة من تارخي عمان على أثر النجاح

الذي أحرزه أحمد بن سعيد على الغزاة الفرس، مستخدماً أشد الخدع مكراً، وكل الوسائل، كمخطط للوصول إلى الحكم من خلال التخلص من الفرس كمحتلين لعمان، مما مكنه من تضييق الخناق على القوات الفارسية في ميناء بركا، في شكل إبادة كاملة لهم.

وبفضل هذه الإجراءات السريعة أمكن التوصل إلى النتيجة المرتجاة، وهي هزيمة العدو التي حولت أحمد بن سعيد إلى منقذ وطني لعمان، وبطلها القومي، وإمامها باتفاق جماعي. وبعد أن صعد إلى سدة الرئاسة اهتم الإمام أحمد بالمشكلات التي تعاني منها عمان، بعد هذه الفترة المضطربة، فاهتم بالنواحي الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية. ومن الأحداث المهمة في عهده المساهمة الفعالة في استعادة البصرة من الفرس أعداء الامبراطورية التركية، فحاز على إعجاب ورضى السلطان التركي، الذي قدم مكافأة مالية كبيرة للحاكم الجديد.

ولكن نهاية عهد الإمام أحمد بن سعيد كانت نهاية حزينة بسبب ما شهدته عمان من سلسلة من النكسات، فاليعاربة الذين كانوا يحتلون حصني نخل والحزم لم يتمكن من طردهم، ثم إن ابني الإمام أعلنا العصيان على والدهما، الذي اضطر إلى محاصرتهما في معقلهما، ليعيدهما إلى جادة الصواب. وفي يناير ١٧٨٣ توفي الإمام أحمد بن سعيد تاركاً عمان نهباً للمنازعات الداخلية بين القبائل.

وابتداءً من هذا التاريخ سجل التاريخ العماني تطوراً جديداً لمفهوم الإمامة، وبذر بذور الشقاق في المفهوم لهذا المنصب. فالإمامة لم تنتقل بعد الإمام أحمد بن سعيد وابنه سعيد بالمبايعة كما جرت العادة، وحسب المفهوم الإباضي، ولكنها حصلت بالتوارث. وهكذا فقد استلم الحكم سعيد أصغر أولاد الإمام أحمد بدلاً من ابنه الكبير. وقد تميز عهد سعيد بالعجز والفوضى، وقلة الاهتمام بالمصالح العامة، فاستلم الحكم عنه، ولأول مرة، ابنه حمد الذي حكم بين ١٧٧٩ ــ ١٧٩٣ م قبل

أن يتم إبعاد أبيه سعيد بن أحمد للمرة الثانية عن الحكم على يد أخيه سلطان.

وعند وفاة سعيد سنة ١٨٠٦ حكم سعيد بن سلطان عمان، يعاونه أخوه سالم، وعلى مدى نصف قرن اتبع سعيد بن سلطان سياسة خارجية ناشطة، ونجح في الاستيلاء على زنجبار ومونباسا على الساحل الشرقي لأفريقيا، التي ظلت محط طموحاته. هذه الغزوات الكثيرة أنسته الاهتمام بما فيه الكفاية بالشؤون الداخلية العمانية، ولم يطل الوقت، حتى بدأت نتائج هذه السياسة بالظهور، فالقراصنة من « القواسم » الذين ذاق سعيد بن سلطان والإنجليز الأمرين لمقاومتهم، استفادوا من الغياب المتكرر لسعيد خارج عمان؛ ليجمعوا قواهم، ويحاولوا بسط هيمنتهم مجدداً على الساحل، فبدأ نجم سعيد بن سعيد بالأفول، ولم يلبث أن مات في ١٩ أكتوبر ١٨٥٦ م تاركاً وراءه ذرية كثيرة العدد، كان قد منحها إقطاعات من الأرض في حياته، مما خلق مشكلات خطيرة، حين طرحت مسألة خلافته. وحتى عندما كان سعيد حياً فإن ابنه « ماجد » حاكم زنجبار وابنه ثويني حاكم عمان كانا على رأس قائمة المرشحين لخلافته.

رفض ثويني الاعتراض بسلطة أخيه ماجد، إلى أن تم التوصل الى تسوية يقر بمقتضاها ماجد بن سعيد، الذي بقي حاكماً على زنجبار بأن يدفع إعانة مالية سنوية، ولكن شقيقا ثانياً لثويني، ويدعى تركي، حاكم صحار، لم يقر بحيثيات خلافة أخيه، وبدأ يحيك بالمؤامرات ليستولي على الحكم. مما اضطر ثويني لأن يستدعي الوهابيين لنجدته ومساعدته على تدعيم ملكه، مما عزز نفوذ الوهابيين في عمان، مما اعتقد أنه بفضلهم، أمكن لثويني أن يظل في مركز الرئاسة العليا.

ولكن ثويني كان يلعب بالنار؛ فحكام المدن الساحلية العمانيون لم يقروا أبداً بهذا التدخل الوهابي في عمان، وفكروا في اغتيال ثويني،

الذي لم يلبث أن قتل على يد ابنه سالم، الذي كان محاطاً بمجموعة من الوهابيين.

ولما كانت بريطانيا بحاجة لأن تثبت وجودها على الساحل العربي فقد اعترفت بسالم على الرغم من أنه متهم بجريمة قتل أبيه، وهي جريمة لم تثبت على أية حال، وقد أبعده عزان بن قيس عن العرش، إلا أن الحاكم الجديد لم يتمتع بالسلطة طويلاً، لأن تركي عاد من بومباي سنة ١٨٧٨ م أصبح سلطاناً على عمان، وحكم حتى ١٨٨٨ م، وقد خلفه ابنه فيصل، الذي استلم الحكم حتى سنة ١٩١٣[١٨].

(١٨) اعتمدنا في هذا الفصل على المراجع الآتية:ـ

أ ــ ابن رزيق، مرجع سابق، الجزء الثاني.

ب ــ السالمي نور الدين، التحفة، الجزء الأول.

ج ــ Huart, Histoired des arabes, cf Bible pp. 257-281.

الفصل الثالث

عمان على المسرح الدولي

أضفى ظهور عمان على المسرح الدولي أهمية مزدوجة على موقعها الاستراتيجي، فقد لعب هذا البلد في الماضي دوراً مهماً في تاريخ الخليج العربي. يعد عهد سعيد بن سلطان (١٨٠٦ ــ ١٨٥٦ م) مرحلة تنظيم للعلاقات الدولية مع القوى الغربية الكبرى في ذلك الوقت، وبالخصوص انجلترا وفرنسا.

لقد أدى هذا الانفتاح على أوروبا إلى عقد المعاهدات الدولية المختلفة وكانت امبراطورية عمان في ذلك الوقت في ذروة قوتها، وكان أسطولها التجاري والحربي يمثل المركز الأول بعد الأسطول الانجليزي في منطقة الخليج. لنقرأ كيف يصف مؤلف كتاب « العنوان في تاريخ عمان » الوضع في عمان في ذروة عظمتها، وعشية بدأ انحطاطها: « كان لباس أهل عمان في نسيج عمان، ومعاشها من مزارعها، وبذلك صارت غنية عن بقية البلاد، منعزلة عن الأمم الأخرى ولما تركوا ذلك، وأصبحوا ينفضون أيديهم من أعمالهم، ويقتنون الوارد إليهم مهما كان، وممن كان، راغبين غير مجبورين، ولا مكلفين، أصبحوا أسارى المجلوب، لما أصبح هو المحبوب. وأصبح الضيق يحيق بعمان، ويستنفذ غلاتها، ثم زاد الطين

بلة رخص غللها في هذا العهد، ولولا انتشار العمانيين في البلاد الأخرى سعياً للرزق لتدهور الشعب العماني، والأمر لله »[١٩].

إن عمان ككيان سياسي معروف تحت اسم « سلطنة عمان »[٢٠] ينحصر في النهاية بين رأس مسندم وظفار. وتنقسم عمان من الناحية الطبيعية إلى:ـــ

ـــ الساحل، وأشهر مدنه صور، ومسقط ومطرح، وصحار.
ـــ الداخل، وأشهر مدنه نزوى، والرستاق، وأبرى.

وتتميز الجغرافية الطبيعية لعمان بوجود سلسلة من الجبال، تتجه نحو الجنوب من صور إلى مسقط، حيث تحاذي الشاطئ تقريباً، وتدخل بعمق عند شمال مسقط في مساحات اليابسة، وتنتهي بسهل الباطنة الساحلي الخصيب. وتنفصل سلسلة أخرى بصورة شبه منحرفة عن الأولى، فتبلغ ذروتها عند نقطة الجبل الأخضر. إن ارتفاع قمم جبال عمان كبير، وترتفع أعلى قمة فيها إلى ٣٠١٧ متر عن سطح البحر. وتتميز جبالها، التي تغطيها الثلوج بعض الأحيان في الشتاء، بثروتها النباتية الوفيرة، التي تتزين بها خلال الفصول الأخرى من السنة.

أما السهل، فهو خصيب، وينتج كميات وفيرة من الشعير والحنطة والذرة والخضار والفواكه، وخاصة التمور، وثلاثة أنواع من العنب، وكما هي الحال في بقية شبه الجزيرة العربية، فإن المناخ هنا حار وجاف، وقليل المطر نسبياً، غير أن سكان عمان اكتفوا من تجميع مياه السيول الهابطة من سفوح الجبال بجرها لاحقاً نحو أراضي الري بوساطة قنوات تحت الأرض تسمى في عمان (أفلاجاً) تقطعها حسب مسافات متساوية آبار لجمع المياه. وبما أن كميات غزيرة من المطر

(١٩) السيابي سالم بن حمود بن شامس: « العنوان في تاريخ عمان »، ص ٤٨ ـــ ٤٩.

(٢٠) اعطى اسم « سلطنة عمان على عموم عمان السياسية منذ استولى السلطان قابوس على السلطة خلفاً لأبيه سعيد بن تيمور، في يوليو ١٩٧٠.

تسقط في شهري ديسمبر ويناير، فإن ذلك يسمح بتكوين احتياطيات مائية كبيرة. وليست الزراعة هي المصدر الغذائي الوحيد لعمان، فالبحر الذي يحيط بهذه البقعة غني بالثروة السمكية لدرجة أن السمك لا يستخدم فقط كعلف للبقر والحمير وبقية الحيوانات الأليفة، بل إنه يستعمل أيضاً كسماد للأرض.

وينبغي أن نضيف كذلك أن عمان تتمتع بموارد معدنية مهمة من الرصاص والنحاس والنفط، ولهذا فإن أهل عمان يمارسون مهنة الصيد والتجارة، وهم كذلك بحّارة مهرةٌ من الدرجة الأولى. ويرجع ذلك أساساً إلى العزلة شبه التامة عن امتداد شبه الجزيرة العربية، إذ بالكاد يمكن العبور إلى عمان براً من نقطتين، واحدة في الشمال الشرقي، والثانية في الجنوب، وذلك عبر طرق ملتوية، يمكن إغلاقها بسهولة في وجه الغزاة. وحيث تنتهي الجبال تبدأ صحراء الدهناء الواسعة.

ويتكون السكان المحليون لعمان من العرب، ولكن يختلط بهم أقوام من الهنود والبلوش في الساحل. وعلى العموم فإن السكان مسالمون نشيطون، وتستهويهم التجارة، التي يبدعون فيها، وكان مجموعهم يبلغ ٦٧٠ ألف نسمة ١٩٠٧، موزعين كالآتي:ـــ

أ) في الساحل الجنوبي ٢٧٠ ألف نسمة، منهم مائة ألف في مسقط، ومائة ألف أخرى في الباطنة، وسبعون ألفاً في صور.

ب) في الداخل أربعمائة ألف نسمة[٢١].

ووجود عمان على ضفاف الخليج العربي مكنها من الاتصال عبر هذا الخليج بباقي شبه الجزيرة العربية بصورة سهلة وآمنة.

---

(٢١) لم يتم إحصاء دقيق للسكان في عمان. وفي يونيو ١٩٧٦ كان تقدير السكان حوالي مليون ونصف المليون (انظر: عمان: حقائق وأرقام، مسقط ١٩٧٦، صادر عن وزارة الإعلام).

تشكل صحراء الدهناء حاجزاً برياً لا يمكن اجتيازه تقريباً للجيوش الراجلة. ويساعد المناخ نفسه على الملاحة البحرية بفضل الرياح الموسمية. ولما كان سكان عمان يعرفون هذه الظاهرة المناخية، فقد كانوا يقومون برحلات بحرية طويلة، وأصبحوا من الطراز الأول بفضل جرأتهم النادرة.

ويمكننا القول إن صلات عمان بالخارج قديمة العهد. ويبدو أن الاتصالات الأولى قد تمت مع الهند في الشرق، وتطورت غرباً باتجاه أفريقيا ومصر والعديد من دول حوض البحر المتوسط.

إن التجارة، وتجارة الترانزيت، هما الصفتان البارزتان في كل مراحل تاريخ عمان، وقد زادت أهميتها خاصة عندما ثبت الأوروبيون أقدامهم في المنطقة.

ولما كانت عمان تحتل الموقع الأهم في الخليج العربي، فقد كان من المنطقي أن توجه بريطانيا العظمى. كما كانت تسمى في ذلك العصر ــ بصفتها القوة الأساسية في المحيط الهندي في القرن التاسع عشر، أنظارها نحو عمان باهتمام بالغ.

الخليج العربي:

يحتل الخليج العربي الجزء الشمالي الشرقي لشبه الجزيرة العربية، وتمتد مياهه من مضيق هرمز، حيث توجد سلطنة عمان، إلى ميناء البصرة، الواقع عند الطرف الشمالي، الذي يشكل الحدود الشرقية للعراق. وإذا أخذنا الشاطئ الإيراني بالاعتبار فإننا ندرك بسهولة الأهمية الاستراتيجية لمنطقة الخليج، وخصوصاً في العلاقات الدولية.

ويغطي الخليج العربي مساحة من المياه، قدرها ربع مليون كيلومتر مربع. وعلى وجه التقريب يعد بحراً داخلياً، إلا أنه لا يمكن، بصورة

عامة، عده منفصلاً عن خليج عمان، الذي يصله بالمحيط الهندي، عبر مضيق هرمز.

والواقع أن الخليج العربي، الذي تتصل به أراضي العراق، وإيران، والعربية السعودية، وإمارات الخليج الغنية بالنفط، اكتسبت أهمية خاصة منذ أقدم العصور، وحتى أيامنا، فقد شكلت هذه المنطقة ملتقى حيوياً للطرق البحرية، والبرية الخاصة بالتجارة الدولية، فضلاً عن الثروات السمكية واللؤلؤ. ولهذه الأسباب، فإنه منذ العصور القديمة كان الخليج محط أحلام كل من كانوا يريدون إقامة امبراطورية عالمية قبل أن يصبح في القرون القليلة الماضية، منطقة تنافس بين القوى الكبرى الاستعمارية.

وفي المرحلة المعاصرة جذب الموقع الاستراتيجي المهم للمنطقة وثرواتها النفطية اهتمام الدول الغربية، ومن هنا نشأت الصلات الخاصة مع عدد من الدول الأوروبية، وخاصة مع انجلترا. ومن هنا ندرك الأسباب التي دفعت البرتغال ابتداء من القرن الخامس عشر، لتحتل ساحل عمان الذي شكل نقطة اتصال في خطوطها البحرية مع الهند. ذلك أن كل من كان يأمل ببناء امبراطورية، تصل اوروبا بالشرق، كان عليه أن يحقق السيطرة على الخليج. لقد كان الهدف من الصلات الجديدة، التي قامت بين البرتغال والخليج في نهاية القرن الخامس عشر، وبداية القرن السادس عشر، تحطيم السيطرة العربية على الملاحة في البحر الأحمر والخليج العربي. ولكن ما أن تمركز البرتغاليون عند شواطئ الخليج حتى انفجر التنافس بينهما وبين بقية الدول الأوروبية.

وسرعان ما اختفت البرتغال من المنطقة لجملة من الأسباب، أهمها:ـــ

ظهور قوى أوروبية كبرى جديدة. وهكذا فقد تولت هولندا، ثم بريطانيا، مهمة وضع حد للوجود البرتغالي في الخليج.

وفي موازاة ذلك، لعبت مقاومة السكان المحليين دوراً كبيراً في إضعاف وتشتيت القوات البرتغالية. وجاء سقوط مسقط سنة ١٦٥٠ ليحرم البرتغال من آخر نقطة حصينة لها على ساحل الخليج العربي.

حلت هولندا محل البرتغال، غير أن تدخلها في الخليج فتح الطريق أمام الغزاة الجدد؛ لأن صراعها مع البرتغال أفقدها معظم قواتها وأنهكها، مما فتح الباب أمام الانجليز، وعملت بريطانيا بهمة لا نظير لها لإدامة احتلالها العسكري، ولتفرض نفسها على أمراء الخليج عبر المعاهدات والاتفاقات المعقودة مع الشيوخ المحليين، والأمراء ورؤساء القبائل. إننا نشير هنا إلى سلسلة المعاهدات[٢٢] التي بدأت باتفاق ١٧٩٨ بين بريطانيا وعمان، والتي حولت هذا البلد إلى مستعمرة بريطانية، بالإضافة إلى اتفاقات الهدنة والصداقة الموقعة سنة ١٨٩٢، التي فرضت على أمراء الخليج العربي، وقوضت دعائم استقلال دوله[٢٣].

ويرجع أحد الأسباب الرئيسية لنجاح التغلغل البريطاني إلى المرونة والمبادرات المحسوبة التي قامت بها الدبلوماسية البريطانية، سواء تجاه رؤساء القبائل أو القوى الأوروبية المنافسة. وقد عرف البريطانيون كيف يستغلون، إلى الحد الأقصى، الدوافع الانسانية والأخلاقية لدى الرأي العام الدولي، لتسهيل وتبرير سيطرتهم على المنطقة، زاعمين أنهم يكافحون تجارة الرقيق والقرصنة البحرية. وفي الوقت نفسه لم تغفل بريطانيا الجانب العسكري من المسألة، ولذلك فقد أعدت قوة صغيرة جاهزة للتحرك في حالة إخفاق الاقناع الدبلوماسي، وهكذا فقد استندت الاستراتيجية البريطانية في المنطقة إلى مبدأين متكاملين:

اولاً: كانت بريطانيا تبين لشيوخ الخليج العربي أنها القوة العسكرية الأساسية في المنطقة، وهذه (اللغة) يفهمها الشيوخ أفضل من أي

(٢٢) انظر الجزء الثالث.

(٢٣) انظر نص الملحق رقم ٥.

وعد أو إعلان صاخب، وفوق ذلك، فإن بريطانيا كبلت الشيوخ بمعاهدات واتفاقيات تحرمهم من حرية الحركة، بعد أن ربطتهم بها وحدها، ومن جانب واحد.

ثانياً: كانت بريطانيا تحاول أن تجد حلاً للمنازعات الدولية عبر المعاهدات والاتفاقات مع الدول المعنية. وهذه الخلفية عبرت عن نفسها بأمثلة، مثل إعلان ١٠ مارس ١٨٦٢، ومعاهدة بروكسل عام ١٨٩٢، حول إلغاء تجارة الرقيق، ومعاهدة ١٩٠٧ الخاصة بالمسألة الفارسية.

وسعت فرنسا من جانبها، كقوة استعمارية لأن تثبت وجودها في بحار الشرق، ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى نشاط بعثاتها العلمية في المنطقة، ودعمها المالي والعسكري لعدد من الحكومات (كما في بلاد فارس ما بين ١٧٨٩ ـــ ١٨٠١ م)، وحملتها على مصر سنة ١٧٩٨، وتصادمها العسكري مع الإنجليز، سواء في بندر عباس (في أكتوبر ١٧٨٩)، أو في مسقط (١٨٩٨)، وكلها وقائع تشهد على النشاطات الفرنسية في هذه المنطقة. وجاءت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩، لتعطي الضوء الأخضر للحماس القومي والطموحات التجارية الفرنسية. وللحفاظ على هيبتها وجدت البرجوازية الفرنسية أنه من الضروري لها أن تتمكن في التوسع، وتجد مكانها اللائق في الأسواق العالمية، ولكن توسع فرنسا في المنطقة كان يعني مواجهة لا مفر منها مع بريطانيا التي كانت بالطبع أكبر قوة استعمارية في الشرق الأوسط.

وأخيراً توصلت بريطانيا وفرنسا فيما يخص نفوذهما، وخصوصاً في عمان إلى تسوية (هولندا) سنة ١٩٠٤، حسمت الأمور لصالح بريطانيا.

القسم الثاني

مؤسسات نظام الحكم حسب المفهوم الأباضي

الفصل الأول:

المذهب الأباضي

ترك المذهب الأباضي بصمات عميقة في التاريخ السياسي والاجتماعي لعمان، ويجمع معظم المؤرخين العمانيين على أن أصل كلمة (الأباضية) مأخوذة من اسم (عبدالله بن أباض)[1].

يقع معظم المؤرخين الأجانب، والذين كتبوا حول التاريخ العماني — في الخلط بين الخوارج والأباضية دون تمييز بينهما. والسبب في هذا الغموض ناتج من أن تسمية الخوارج أطلقت على كل من كان يؤيد علي بن أبي طالب في بادئ الأمر، ولم يرض عن طريقة التحكيم.

ويركز معظم المؤرخين الأجانب الذين يهتمون بتاريخ عمان، على أن الخوارج والأباضيين ليسوا سوى مجموعة واحدة[2]. ويعيدون إلى الأذهان أن عبدالله بن أباض (توفى ٨٦ هـ — ٧٠٥ م) كان نفسه واحداً من المجموعة التي رفضت التحكيم بين علي ومعاوية سنة ٦٥٠ م[3].

---

(١) السالمي نور الدين: العقد الثمين، المجلد الأول، ص ١٧. طبعة القاهرة ١٣٩٣ هـ.

(٢) Wilson, Sir Arnold. The persian gulf p. 81 London 1939 and KAJARE FIROUZ p. 39

(٣) Voir L'encyclopédie de L'islam ancienne et nouv. editions sur les Ibadites et les Kharejites

وأما السبب الثاني الذي أتى منه الخلط عند هؤلاء المؤرخين، فهو التسلسل التاريخي لعمان، حيث إن عمان لم تخضع فعلياً للخلفاء الأمويين والعباسيين ـ إلا خلال فترات متقطعة ـ وحيث إن الخوارج قد اشتركوا مع العمانيين في هذا الرفض، وعدم الإقرار بسلطة الخلفاء الأمويين والعباسيين.

هذا الرفض المشترك لكل من الأمويين والعباسيين معاً، فقد ظن هؤلاء المؤرخين أن الخوارج والأباضيين يؤمنون بالمذهب نفسه، من هنا نتج الخلط بين الأباضية والخوارج، الشيء الذي يرفضه، حتى يومنا هذا من قبل، أتباع المذهب الأباضي في عمان.

أما السبب الثالث لهذا الخلط، فهو أن الجماعتين عاشتا معاً طيلة ما يقارب قرنا من الزمان، ابتداءً من التحكيم، الذي تم في عهد علي بن أبي طالب حتى عهد عبد الملك بن مروان (٧٤٤ ـ ٧٤٩ م)[٤].

إن هذا الخلط يضطرنا أن نتبع المشكلة من أولها، ولو باختصار. بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، اجتمع المسلمون وبايعوا علياً للخلافة، ولكن والي الشام معاوية بن أبي سفيان وأحد أقرباء عثمان رفض البيعة، واتخذ من مقتل عثمان ذريعة لعدم مبايعة علي[٥].

حاول علي أن ينهي الأمر بالسلم، ولكن معاوية تصلب في موقفه، وطعن في خلافة علي، لذا لم يكن أمام الأخير إلا مقاتلة معاوية. تقابل الجيشان في معركة صفين عا م٦٥٨ م، واستطاع علي أن يحرز نصراً، وبينما كانت المعركة في لحظاتها الأخيرة، وأشار عمرو بن العاص على معاوية برفع المصاحف على رؤوس الرماح، ليكون القرآن حكماً

---

(٤) الحارثي سالم «العقود الفضية في أصول الأباضية»، ص ٤٦. لبنان ١٩٧٤.

(٥) ومن هنا أتى مثل «قميص عثمان» لأنه علق في المسجد الأموي فتره من الزمن، لاستحثاث الهمم في مقاومة علي.

بين الطرفين المتنازعين، وكانت حيلة بارعة من عمرو بن العاص، مرت على قسم كبير من جيش علي، الذين رفضوا القتال، وقالوا « يا علي أجب إلى كتاب الله، إذا دعيت إليه، وإلا دفعناك برمتك إلى القوم »[٦].

وتوقف القتال بعد أن كان النصر قاب قوسين أو أدنى من جيش علي، واتفق الطرفان بعد ذلك على التحكيم، وانتدب أبو موسى الأشعري نائباً لعلي، كما انتدب عمرو بن العاص نائباً عن معاوية[٧]، ولكن قبل التحكيم ظهرت فرقة من أنصار علي تعد التحكيم كفراً وخطيئة، وعليه، فإن من الواجب أن يعترف علي بأن قبوله للتحكيم خطيئة، ويكفر عنه ويثوب، وعندما لم يستجب إلى مطالبهم تشكلت فيما بينهم ما يشبه (المحكمة) لمحاكمة الوضع.

أرسل علي إلى أصحاب المحكمة عبدالله بن العباس، ولم يتمكن من إقناعهم، وأخيراً اضطر علي أن يذهب إليهم محاولاً إقناعهم، وبعد محاولة طالت، اظهروا لعلي بأنهم قد اقتنعوا، ولكن الأحداث أوضحت أنهم قد صمموا على القيام بمغامرة كبرى تطيح بالطرفين (علي ومعاوية).

عندما عزم علي بن أبي طالب على إرسال أبي موسى الأشعري للاشتراك في التحكيم قدم عليه وفد من (المحكمة)، وأوضحوا لعلي المهمة التي قدموا من أجلها، ومفادها أنهم يعدون كل من قبل التحكيم مذنباً خاطئاً، يجب عليه أن يعترف بالذنب، ويثوب، وطلبوا منه الاعتراف بالذنب فرفض علي وقال:ـــ

« وقد كتبنا بيننا وبين القوم ـــ يقصد جماعة معاوية ـــ كتاباً وشروطاً

---

(٦) السالمي « الابن » عمان تاريخ يتكلم، ص ١١٦.

(٧) الحارثي سالم: العقود الفضية في أصول الاباضية، ص ٣٦.

وأعطينا عليها عهوداً، ولله سبحانه يقول: ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم** ﴾ »[8].

وأصر الوفد على طلبهم، وأعلنوا له أن (المحكّمة) ستعود للقتال بصفّه إذا اعترف بذنبه. ولكن علياً رفض هذا العرض. بعدها اجتمعت (المحكّمة)، وانتخبت عبدالله بن وهب الراسبي إماماً لهم. من هنا عرفت جماعة (المحكمة) بعد ذلك (بالخوارج)، وكان اسم الخوارج في بداية الأمر مدحاً؛ لأنه جمع (خارجة)، وهي الطائفة التي تخرج للغزو في سبيل الله.

وعلى العموم إن الخوارج في المفهوم الإباضي هم الجماعة الذين خرجوا عن علي، وليس عليه، وهذا يعني أن الخوارج في بادئ الأمر يؤيدون علياً، ولكنهم مختلفون معه على مسألة قبول التحكيم من عدمها. ولهذا لن يناصروه حربياً، ولكن الخروج عليه، يتضمن المعاداة والحرب ضده[9]

وقد وقع علي في خطأ جسيم، حيث كان بالإمكان التحالف معهم؛ لأنهم في بداية الأمر لم يخرجوا عليه؛ حيث حاربهم في معركة النهروان، وقتل قسماً كبيراً منهم، وانتشروا في بقاع الوطن العربي، كانت جماعة المحكمة وحدة واحدة، ولكن الظروف، ودخول عناصر جديدة في صفوفهم، جعلتهم ينقسمون على أنفسهم.

فظهرت فئات كبيرة منهم (الأزارقة، النجدات، الصفرية، والاباضية).

بعد ذلك نصل إلى ما قصدناه، وهو الخلط الذي تم بين الأباضية والخوارج فكما بينا، قد تطورت الأمور ضمن إطار سمي (بالمحكمة)، وبعد أن انشقت المحكمة انقسمت إلى قسمين كبيرين؛ القسم الأول

---

(٨) السالمي « الابن » عمان تاريخ يتكلم، ص ١١٨.

(٩) المصدر نفسه ص ١١٨ ـــ ١١٩.

عرف بالخوارج، والقسم الثاني عرف بالأباضية، وقد تبرأت الأباضية من الخوارج عندما بدأت الأخيرة تتطرف في شعاراتها، وتتهم المسلمين كل المسلمين بأنهم كفار، ما عدا الخوارج، ومع هذا فإن الإباضيين لا ينكرون الاشتراك مع تلك الفئات في أثناء وجود المحكمة، ولكن ما يميزهم كون الإباضية يعلنون الانتماء إلى عبدالله بن وهب الراسبي العماني، الذي كان أول إمام لجماعة المحكمة(١٠).

الإباضية في عمان:

عرفنا مما سبق أن الاباضيين ــ وخصوصاً في عمان ــ لا ينكرون الأصول المشتركة بينهم وبين جماعة المحكمة، ولكنهم ينكرون كل الانكار الترابط بين الخوارج والاباضية، لهذا يضيف أباضية عمان في بعض الأحيان (الوهبية) على الاباضية، فيسمون أنفسهم (فرقة الأباضية الوهبية) أو الوهبية الاباضية(١١).

وإضافة الوهبية للإباضية غير مسبب، والتعليل لهذا كون عبدالله بن وهب هو أول إمام لجماعة المحكمة، فهم يريدون الرجوع إلى الأصل في افتراقهم مع الخوارج، أو لأن عبدالله بن وهب هو أزدي بالأصل، والأزد مواطنهم عمان، أو اشتهروا بذلك، وهم بذلك يريدون أن يظهروا للعالم الإسلامي أن أول إمام لجماعة المحكمة هو عماني.

والاباضيون، إذ عرفوا بالتاريخ بتسامحهم الديني، فقد شنوا حملة شعواء على الخوارج، وتفسيرنا لذلك كون الأباضية فرقة من جماعة

---

(١٠) الشيخ سرحان، مرجع سابق، صحيفة ٧٢.

" الوهبية نسبة إلى عبدالله بن وهب الراسبي الأزدي العماني، أول إمام انتحته جماعة المحكمة.

(١١) الشيخ سرحان، كشف الغمة، صحيفة ٨٣.

المحكمة، وعلى ما يعتقد أن عبدالله بن أباض، هو الذي تولى عملية الانشقاق[12].

ويحدث دائماً مثل هذه الحدة حين تنشق مجموعة صغيرة من مجموعة أكبر، وخصوصاً عندما يكون الانشقاق فيما يختص بالعقيدة ــ أي انشقاق أيديولوجي ــ وإن أول ما تعمل به هذه المجموعة المنشقة هو البحث عن وجود مسوغات لها؛ لتمييزها عن المجموعة الأم، وتحفر طريقاً جديداً لوجودها، وغالباً ما تكون عنيفة في معالجة الانشقاق.

فمن خلال التجربة الإنسانية، نجد كيف تم الانشقاق بين صفوف المسيحيين، وتحولهم إلى فرقتين (كاثوليكية، وبروتستانية). كذلك نجد شيئاً مماثلاً في الإسلام بين السنة والشيعة، وحتى الحوادث السياسية الحالية ليست بعيدة عن هذه الأمثلة (الانشقاق بين الأحزاب السياسية).

المهم عندما تتاح الفرصة لأحد الأشخاص، داخل تجمع عقائدي أن ينشق، فلا بد له من البحث عن مسوغات وجوده وعن أعوان جدد، وهو عادة يبحث أول ما يبحث بين العناصر المكونة للمنظمة الأم، وهذا ما حدث فعلاً بين الأباضية والخوارج.

ترجع الإباضية بأصولها الأولى إلى العراق في الزمن الذي كان يعيش فيه عبدالله بن اباض (المتوفى ٨٦ هـ ــ ٧٠٥ م) والذي يرجح أنه عاش في عهد معاوية بن أبي سفيان، الخليفة الأول الأموي، (توفى ٦٠ هـ ــ ٦٨٠ م) وتوفى في عهد عبد الملك بن مروان، الخليفة الخامس الأموي (٢٦ ــ ٨٦ هـ) ــ (٦٤٦ ــ ٧٠٥ م)[13]. وقد كان عبدالله بن أباض تلميذاً لجابر بن زيد، أو رديفاً له، وقد كان

(١٢) الحارثي سالم: « العقود الفضية » ص ١٢٢.

(١٣) الشيخ سرحان: كشف الغمة، صحيفه ٧٤.

جابر، مخافة من الدولة الأموية، متخفياً، وقد تحمل إيصال أفكاره للناس عبدالله بن إباض[14].

يعد إقليم عمان أهم المعاقل الاباضية؛ إذ يعتنق المذهب الأباضي معظم سكان هذا الإقليم، وخاصة في عمان الداخل « والاباضيون يعتقدون أنهم الفرقة الناجية من النار، من ثلاث وسبعين فرقة، التي ينقسم إليها المسلمون، والتي عناها الرسول ﷺ في بعض أحاديثه »[15].

وقد انتشرت الاباضية في شمال أفريقيا وشرقها، وكذلك في حضرموت، وقد استطاع عبد الرحمن بن رستم أن يؤسس دولة أباضية في تاهرت، في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري[16].

إن المبادئ الدينية الأباضية لا تختلف اختلافاً كثيراً عن المذاهب الأخرى، ومع أن الأباضيين يعدون أنفسهم المسلمين الحقيقيين، إلا أن نظرتهم للمذاهب الأخرى لم تكن متعصبة، وغير متزمتة، مثل بعض الفرق الأخرى المتزمتة، فهم يرون إمكانية التزاوج والتوارث بين الطرفين، كما أنه بالإمكان التعايش مع المذاهب الأخرى، دون السعي لإخضاعها.

والحق أن الاباضيين لم يناصبوا مذاهب السنة العداء، كما فعلوا إزاء الخوارج، وهم لا يختلفون عن السنة في بقية العبادات إلا في بعض التفاصيل الثانوية. (فمثلاً الاباضي لا يتفوه بكلمة آمين في نهاية سورة الفاتحة عند الصلاة، ولا يرفع اصبع يده اليمنى وهو يقرأ التشهد، ويعد الكلام، والتحدث مع غيره في أثناء الوضوء مفسداً للوضوء)[17].

---

(١٤) السالمي « الأب »: العقد الثمين، الجزء الأول، ص ١٧، انظر كذلك الشيخ سرحان: صحيفة ٩٣/١٠٥.

(١٥) الشيخ سرحان: كشف الغمة، صحيفة ٧٣ — ٧٤.

(١٦) الحارثي سالم: الدرر الفضية، ص ٢٣٧.

(١٧) مشاهداتي الشخصية عند زيارتي لعمان في أثناء كتابة الأطروحة.

ومع هذا فهناك اختلاف بين الأباضية والمذاهب الأخرى، في كيفية إدارة الحكم. إن هذه المسألة تنقلنا إلى التطرق إلى مفهوم الإمامة عند المذهب الاباضي، فما الإمامة عندهم ؟

الإمامة:

الإمامة مفهوم ديني إسلامي، مشتقة من كلمة (إمام)؛ أي الذي يؤم المسلمين في الصلاة، وحيث إن الدين الإسلامي لم يفرق بين الدولة والدين، فالرسول ﷺ كان إمام المسلمين وحاكم دولتهم في الوقت نفسه.

وجد المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ مشكلة أمامهم، إلا أن الخليفة عمر بن الخطاب استطاع حلها بتقديم أبي بكر إماماً للمسلمين، ثم جاء عمر بن الخطاب بتوصية من أبي بكر، بعد ذلك أوصى عمر بمجلس شورى يختار إماماً للمسلمين وخليفة لرسول الله، فاختاروا عثمان بن عفان الخليفة الثالث، بعد مقتل عثمان انقسم المسلمون إلى قسمين، سنة وشيعة، السنة يؤيدون معاوية، والشيعة تؤيد علي بن أبي طالب، ثم إلى ثلاثة أقسام بالخوارج أو (المحكمة) ويهمنا هنا رأي القسم الثالث.

الإمامة في نظر المحكّمة:

إن النظرة الأساسية، التي ارتكزت عليها (المحكمة)، أو الخوارج فيما بعد، قبل أن ينشق عنهم (الأباضيون) هو المبدأ القائل (لا حكم إلا الله)، والمعنى العام لهذا المبدأ يفيد لا ضرورة لوجود الحكومة، لأن الحكم كما قالوا ليس من اختصاص البشر، بل يهيمن عليه قوة غيبية (هي الله)، ولذلك كانت أولى المشكلات التي طرحوها على بساط البحث هي:ـ

هل من الضروري تنصيب إمام للمسلمين؟

والإجابة في نظرهم أن الضروري تطبيق أحكام الشرع والتمشي بموجب القرآن والسنة. وإذا استطاع المسلمون تطبيق هذه الأحكام والتمشي حسب ما جاء بالشريعة، فإنه لا ضرورة مطلقاً لوجود خليفة أو إمام، وعلى هذا، فالإمامة ليست التزاماً دينياً يجب تنفيذه.

ولكن إذا عجز المسلمون عن تطبيق أحكام الشرع بالعدل، فلهم الحق، كل الحق، أن يختاروا رجلاً عادلاً لهذا المنصب، وليتسلم الأمانة، ولذا فإن الظرف ومدى تطبيق الأحكام هو الذي يقرر وجود الإمامة من عدمها.

وأضافوا أن وجود الإمام لا يكون مفيداً في الأوقات كلها، ولربما، لسبب من الأسباب، يكون عاجزاً عن الاتصال بجميع أتباعه، وينحصر في بطانة قليلة من الأفراد، وينعزل عن الأغلبية وهذا يباعد بينه وبين روح الجماعة نفسها، وبالتالي يكون أبعد ما يكون من التفهم لمشكلات المسلمين، وينتج عن ذلك أنه لن يكون كفؤاً لملء المنصب والاستمرار في حمل الأمانة. والأمر الثاني أن الإمام يجب أن يتمتع بكفاءات معينة خاصة تجعله جديراً بتولي زمام أمور المسلمين، ومن المحتمل أن لا يكون هذا الرجل، الذي يحمل تلك الكفاءات موجوداً في جميع الأوقات. ولكن إذا كان لا بد من انتخاب الإمام، وكان هذا إلزامياً، فربما واجهنا أحد أمرين في هذه الحالة، إما انتخاب إمام لا تتوفر فيه الكفاءات المطلوبة، وبذلك نخالف النصوص والمنطق، وإما لا نختار اماماً، وبذلك نخالف الافتراض القائل بضرورة وجود إمام.

وأحياناً تسبب مسألة انتخاب أو اختيار إمام حرباً أهلية بين المسلمين أنفسهم، مثلما حدث بين علي ومعاوية، والنبي ﷺ لم يشر صراحة أو لم يضع شروطاً لوجود خلفاء من بعده، والقرآن لم يبين حتمية وجود إمام، وإنما (أمرهم شورى بينهم، وشاورهم في الأمر).

والتحفظ النظري بشأن الإمامة يعد تحفظاً مبدئياً، ولكن القبول العملي لفكرة وجود إمام، وتبنيها من قبل (المحكمة)، عندما انتخبوا عبدالله بن وهب إماماً، نتج عن الضرورة الملحة. وعندما تتفاعل الفكرة النظرية، والعمل تفاعلاً داخلياً، تكون النتيجة إعادة النظر في النظرية نفسها، وطريقة العمل ومفهومه.

وعندما توالت الأحداث والهزات في العالم الإسلامي وضح (للمحكمة) حتميَّة انتخاب زعيم لهم، ينظم الصفوف، ويوحد الآراء، ويحكم حسب نصوص القرآن والسنة.

تطور أصحاب المحكمة، استجابة للظروف التي يعيشونها، فلم يقفوا جامدين إزاء النظرية الأولى، التي تقول (لا حكم الا الله)، ولم يتمسكوا بحرفيتها، وإنما رأوا أن وجود إمام لهم شيء ضروري لا يمكن الاستغناء عنه، وذلك للقيام بالضبط والربط بين الأفراد أنفسهم، وليرسم المخططات التي لا بد منها للوصول إلى الأهداف، وتنفيذ الالتزامات، وعمل المنجزات، وخصوصاً في الأيام العصيبة، أيام الحروب والاضطهاد.

كانت المحكمة تختار الرجل الذي يتوسمون فيه الخير والصلاح والتقوى تمشياً مع الآية الكريمة ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ وكانت المحكمة ترى أن الإمامة تجوز لكل مسلم، على شرط أن يكون قوي العقيدة، شديد الإيمان، حجة في الدين، لا يتراجع في سبيل الله، ولا عن تطبيق أحكام الشرع تطبيقاً دقيقاً لا يحيد في قيد أنملة عن نصوص الدين الحنيف، كما اشترطوا فيه وجود جميع الصفات الحميدة، التي يجب أن تتوفر في أي قائد أو زعيم تقع عليه مسؤولية عظمى، وهي قيادة المسلمين، والحكم بينهم، حسب شريعة الإسلام.

كما اشترطوا فيه كذلك أن يكون قوي الشخصية، صحيح الجسم،

خالياً من الأمراض البدنية والعقلية؛ لأن من كان به علة لا يستطيع أن يحكم إلا من خلالها.

كان الكثير من أعلام المحكمة ترفض تسلم منصب الإمامة، لأنهم كانوا يشعرون بأنها مسؤولية كبرى وعبء تنوء به الكواهل[١٨]، وكانوا يحرصون أشد الحرص على مراقبة الأئمة طيلة الوقت، وكان الإمام لهم مثلاً أعلى، وقدوة يحتذى بها، ولذا فعليه أن يبتعد عن مواطن الزلل والشبهات، فقد كانت جميع خطواته محسوبة، وربما أدت إلى عزله، حتى لو كان الخطأ بسيطاً جداً فعليه أن يعترف به أمام كبار أعلام المسلمين، وأن يطلب المغفرة من الله، وأن يتوب؛ وقد صنف الأئمة إلى أربعة أصناف حسب الظروف السياسية التي تمر بها المنطقة[١٩].

أولاً: الإمام الشاري، وهو الإمام الذي يتمتع بالثقة المطلقة من قبل أتباعه جميعاً، ويعلن الجهاد، ولا يجوز له الهرب من ساحة القتال، ويحكمه شعاران في المعركة: النصر أو الموت: ومن هنا جاءت تسميته (بالشاري)؛ أي من اشترى الجنة بالجهاد.

ثانياً: إمام الدفاع، ويختار في الظروف الحرجة، التي يعم بها الخطر، فيختار أعلام المسلمين رجلاً له صفات عسكرية، وربما لا تتوفر فيه كل الشروط التي يجب توافرها في الإمام، وخصوصاً في النواحي الدينية، وإذا استطاع رد العدوان ودحره، نظروا في إمامته فإما أن يبقى أو يطلب منه الاعتزال، فيعزل، وإذا رفض أن يعتزل بنفسه يقتل أو يطرد قسراً.

ثالثاً: الإمام الضعيف، وهو الذين يكون بحاجة إلى مشورة علماء

(١٨) السالمي « الابن »: عمان تاريخ يتكلم، ص ١٢٦.
(١٩) المصدر نفسه ص ١٢٧ ــ ١٢٨.

المسلمين، وفقهائهم، وكانت الجماعة تضع لهذا النوع من الأئمة أعواناً يساعدونه بالقيام بأعباء الإمامة، وكثيراً ما يتجنبون انتخاب إمام ضعيف، ويعد (مجمع العلماء) المرجع لحل المشكلات.

رابعاً: إمام الظهور، وهو الذي ينتخب في أثناء السلم، وهذا يشترط فيه كل شروط الإمامة.

هذه هي الإمامة بشكل عام من خلال فكر (المحكمة) والاباضية، ولو أن تصنيف الأئمة إلى أربعة. تصنيف نعتقد أنه متأخر.

إن التطورات السياسية في العالم الإسلامي والظروف التاريخية، التي مرت على عمان، أفرزت ثلاثة أنواع من الإمامة، وسوف نرتبهم حسب ظهورهم الزمني، فهناك النمط الأول، وهو المحاولات الأولى لتشكيل الإمامة في عمان، التي تمت ما بين الفترة من (١٣٥ هـ ـــ ٨٠٩ هـ) (٧٥١ ـــ ١٤٠٠ م) وسوف نطلق على هذه الفترة الزمنية (الإمامة في العهد القديم). أما النمط الثاني، فسوف نعالجه تحت عنوان (الإمامة في العهد اليعربي)، والنمط الأخير الذي ليس هو بالإمامة، ولكن المؤرخين العمانيين أطلقوا على تلك السلالة أولاد الإمام؛ ليعطوها الصفة الديني، وهي الإمامة في العهد البوسعيدي.

الفصل الثاني

الإمامة في عُمان

ماهية الإمامة وعملها في عمان:

ضمن معطيات الوضع السياسي والتاريخي الذي عاشه الأباضيون، وضمن الاضطهاد السياسي والديني الذي واجهوه، سواء من الخلافة الأموية أو العباسية، أو من علاقتهم مع المذاهب الأخرى تشكل وانصهر الفكر الأباضي، ومن ثم الاقتناع بوجود إمامة تحمي نظرتهم الأيديولوجية.

من هنا كان التفسير العام لقيام عدة أنماط من الإمامة، كلها تحاول أن تطبق مفهوم الدولة، ضمن المفهوم الإسلامي والأباضي، ومن هنا نجد أن المفهوم العام للإمامة عند الأباضيين في عمان لا يختلف اختلافاً كثيراً عما نظرت إليه (المحكمة) بوجه عام.

يقول السالمي الابن:

« كانت هذه الفرقة[٢٠] من أكثر فرق المحكمة اعتدالاً، فلم يبيحوا قتل المسلمين من الطوائف الأخرى، ولا التعرض لممتلكاتهم، أو إلى

(٢٠) يقصد الاباضية.

نسائهم، بل أباحوا التزاوج بينهم وبين المسلمين، وهكذا عرفوا بالتسامح الفائق، ولم يكن الغلو من سمات هذه الجماعة، وبحكم بساطتها، وعدم غلوها، ومثلها العليا، استطاعت أن تعيش حتى يومنا هذا.

واستطاعت أن تقيم حكم الإمامة الذي انقطع بموت الخلفاء الراشدين، وأن توصل حبله، وأن تساير الزمن وتطوره، حسب مقتضياته، مع الحفاظ على المبادئ الصحيحة دون التهاون فيها.

كانت هذه الفرقة تعيب على الدولة الأموية والعباسية نظام الحكم الوراثي، وقال فلاسفة الفرقة: ليس المسلمون قطيع غنم فيورث، بل إن الأمر شورى بين المسلمين، ينتخبون الكفء العدول، لتولي المنصب الخطير.

الخلاصة أن مبادئ الفرقة الاباضية استطاعت أن تؤكد وجودها وتثبت دعائمها في عمان وشمال أفريقيا، وشرق أفريقيا، وصمدت أمام المحن والتحولات التاريخية العظمى صموداً حير ألباب المفكرين والعلماء، ولم تغب شمس الإمامة عن عمان إلا في القليل النادر، كانت تمر فترات بسيطة استطاعت بها قوى الشر والظلام أن تحجب النور، ولكنه لم يحجب إلا ليظهر أقوى وأسطع، ولم يضعف قليلاً إلا ليقوى ويشتد.

كانت الإمامة تستند إلى قواعد وجذور قوية، كانت تستند إلى أساس ديمقراطي، يتساوى فيه الغني والفقير، والقوي والضعيف، أمام قوانين الشريعة السمحاء[٢١].

ويقول السالمي الأب يصف الإمامة وشروطها:

« لا نرى الولاية إلا لمن علمنا منه الوفاء، بما وجب عليه من دين الله، ونبرأ من المصرين على المعاصي من أهل دعوتنا وغيرهم،

---

(٢١) السالمي الابن: عمان تاريخ يتكلم، ص ١٢٨ ــ ١٣٠.

حتى يرجعوا إلى التوبة ويتركوا الإصرار، ولا نرى لنفر من المسلمين أن يبايعوا إمامهم إلا على الجهاد في سبيل الله والطاعة في المعروف، حتى يهلكوا على ذلك أو يظهروا على عدوهم... ونبرؤ ممن لم ندرك من أئمة الظلم، وممن لم نره منهم، ونرضى من ملوك قومنا أن يتقوا الله، ولا يتبعوا أهواءهم، ولا يجحدوا سنة، ولا يصروا على ذنب، بعد معرفة، وأن يضعوا الصدقة والفيء حيث أمرهم الله »[٢٢].

هذه هي الصفات العامة للإمامة، كما وردت عند أكبر اثنين من علماء عمان ومفكريها، فهي تنبذ التوارث، وتميل إلى الشورى، ويتساوى فيها الغني والفقير، والقوي والضعيف، واشتراط الوفاء، ولا يبايعون إلا على الجهاد في سبيل الله، والنهي عن المنكر، والأمر بالمعروف، والتبرؤ من أئمة الظلم.

فالإمامة بمفهوم أهل عمان نظام غايته حماية المجتمع، وتوفير بيئة صالحة يتربى فيها الأفراد وفق ما أمرهم به الله. ومن واجب الإمام وفق هذا المفهوم هو الدفاع عن حقوق المسلمين وحمايتهم من الأفكار الدخيلة والبدع. إن مهمة الإمام بصورة أوضح تتلخص في تنظيم وقيادة الجيوش، وتعيين الولاة، وقادة الجيش وتنظيم الضرائب، وتطبيق نصوص الشريعة الإسلامية، ومد يد العون إلى الفقراء والمحتاجين وائتمام صلاة الجمعة.

نستطيع القول إن الإمامة أصبحت تخص أهل عمان، وذلك لطول المدة التي قام فيها نظام الإمامة في عمان، فقد بدأت في مطلع القرن الثامن الميلادي حتى الستينات من القرن العشرين.

ونستطيع القول إنها مرادفة للشخصية العمانية، بل وجد العمانيون في الإمامة إبراز لشخصيتهم واستقلالهم عن الامبراطورية الإسلامية، وإذا

---

(٢٢) السالمي الأب: تحفة الأعيان، الجزء الأول، ص ٨٢ ــ ٨٣.

كانت الإمامة عنصر جذب للشخصية العمانية وإبرازها، فهي في الوقت نفسه عنصر جذب لغزو عمان، وهي كذلك مجال اختلاف عند العمانيين أنفسهم، فالإمامة كرمز للاباضية والاستقلال هي التي دعت الحجاج والي الأمويين إلى غزو عمان، وكم من القتلى فقد الفريقان خلال معارك الغزو.

وهي كمجال اختلاف بين العمانيين أنفسهم، بما دار من حروب داخلية على مركز الإمامة في عمان نفسها[٢٣]، ونتيجة ذلك خرج بعض العمانيين إلى البحرين، حيث محمد بن نور والي المعتضد لطلب النجدة، بل وصل الحد إلى الذهاب إلى المعتضد نفسه في بغداد، حتى يؤخذ منه تصريح بتولية محمد بن نور كوالي على عمان[٢٤].

ومع هذا، فإن ايجابياتها لإبراز الشخصية العمانية واستقلالها عن الإمبراطورية الإسلامية أكثر من التدخل والغزو والحروب الأهلية، كما يراها مفلسفو ومفكرو المذهب الأباضي.

الإمامة في العصر القديم: (١٣٥ ـــ ٨٠٩ هـ) (٧٥١ ـــ ١٤٠٠ م)

إن أول إمام لعمان حسب ما توفر لنا المصادر العمانية[٢٥] هو الجلندى بن مسعود، وقد كان في جيش الإمام طالب الحق في حضرموت، ولما قتل الإمام هناك جاء إلى عمان فبايعه أهل عمان، وقد كان هذا مطلع النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، حيث كانت الامبراطورية الإسلامية تنتقل من الخلافة الأموية إلى الخلافة العباسية.

ساعد هذا الجو العام لإنشاء الإمامة الأولى في عمان، فوجد أهل

---

(٢٣) كشف الغمة، صحيفة ٣٤٥.

(٢٤) المصدر نفسه: صحيفة ٢٣٨.

(٢٥) سالم الحارثي: العقود الفضية، مرجع سابق، ص ٢٥٣.

هذا القطر في نظام الإمامة مخرجاً من سيطرة الامبراطورية الإسلامية. ما كادت الأمور، تستتب للنظام العباسي حتى توجه إلى عمان، ليكون الضحية الأولى لهذه المواجهة الإمام الجلندى بن مسعود، وقد استشهد في معركة أسطورية، مختصرها أن شيبان، وهو أحد أعضاء الخوارج البارزين، هرب من مطاردة الخليفة العباسي (السفاح)، إلى عمان، وقد تبعه عامل السفاح.

فلما قدم شيبان إلى عمان حاربه أهل عمان وقتلوه، وهنا وصل عامل السفاح إلى عمان، وشكرهم على هذا العمل، وطلب من الإمام تسليمه سيف شيبان وخاتمه، كما طلب من الإمام أن يخطب لخليفة بغداد ويعترف له بالسمع والطاعة.

ومع أن العمانيين وافقوا على تسليم سيف شيبان وخاتمه، إلا أنهم رفضوا الطلب الثاني، وهو الاعتراف بسلطة الخليفة، أصر مندوب بغداد على طلبه، وبعد مشاورة الإمام للعلماء اتفقوا على الرفض، وقامت معركة قتل جميع أصحاب الجلندى، فلم يبق إلا هو، وهلال الخراساني[٢٦].

فقال الجلندى: احمل يا هلال[٢٧].
فقال هلال: أنت إمامي، فكن أمامي، ولك على أن لا أبقى بعدك.
فتقدم الجلندى فقتل، وتبعه هلال فاستشهد[٢٨].

الإمامة ونظمها:

بادئ ذي بدء نريد أن نسجل أن الإمام عموماً هو رأس الدولة، ولكنه يخضع لمجلس العلماء، فهم الذين يجتمعون ويختارون إماماً،

---

(٢٦) يعتقد أنه قاضي الإمامة.

(٢٧) بمعنى احمل سيفك، واهجم.

(٢٨) السالمي الأب: التحفة، ج ١، ص ٩٥ — ٩٦

يعينون ويعزلون، متى ما رأوا منه خروجاً على المهمة الموكلة إليه، بل إن نفوذ رجال الدين وسلطتهم أكثر من ذلك، فيصل بعض الأحيان إلى تولية الولاة. التي هي من اختصاص الإمام وحده.

ويذكر التاريخ العماني كيف أن كبير العلماء موسى بن جابر الأزكي، هو الذي عقد الإمامة للإمام محمد بن عفان، ومع مساعدة العلماء، عزل الولاة وعين غيرهم، وبعد ذلك عزل الإمام نفسه[٢٩].

بينما نجد أن الإمام عزان بن تميم الخروصي، وهذه نادرة كالأخرى في التاريخ العماني، يعزل كبير العلماء موسى بن نصير، هذا الشيخ الذي عزل الإمام الصلت، وعين الإمام راشد بن النظر[٣٠].

ومن الجدير بالذكر، وحوادث التاريخ تذكر، كيف تخلص الإمام عزان من الشيخ موسى ؟

لجأ الإمام إلى طريقة عجيبة، إذ أطلق المساجين، وكون منهم جيشاً[٣١]، تخوفاً من لجوء الشيخ إلى المقاومة، واستطاع هذا الجيش « العصابة المسلحة » أن تقتل موسى في معركة عرفت بالتاريخ العماني بمعركة أزكى (٦ شوال ٣٢٨ هـ).

وبعد هذه المعركة، وبعد مقتل الشيخ موسى، كبير العلماء، نجد أنفسنا أمام ظاهرة غريبة وهي وجود إمامين في قطر واحد، وهذا ما يتنافى مع المفهوم الإباضي[٣٢].

الإمامة ــ كما قلنا ــ يخلقها رجال الدين، ويعينون الإمام حسب الظروف السياسية التي تمر بها البلد، وفي إمامة الجلندى بن مسعود

---

(٢٩) كشف الغمة: صحيفة ٣٠٩ ــ ٣١٠.

(٣٠) المصدر نفسه: ص ٣٢٤.

(٣١) هذا يدل أن هناك مساجين لعدد كاف لتشكيل جيش أو قل عصابة.

(٣٢) كشف الغمة: ص ٣٤٥.

كان رجال الدين يشكلون حزباً سياسياً، له تنظيماته وقواعده، وكذلك (الميليشيا الحزبية)، التي عرفت بالتاريخ العماني باسم (الشراة).

والشراة هؤلاء عبارة عن تلاميذ خاضعين لرجال العلم اشتروا الحياة بالآخرة، وهم عماد المذهب ونشره، والدفاع عنه، وفي الوقت نفسه يعدون ركيزة الإمامة وموظفيها، ويتقاضون مبلغاً زهيداً لا يتعدى سبعة دراهم[٣٣] منضبطين ضمن مفهوم حزبي معين، فكل مجموعة من مائتين إلى أربعمائة يقودهم أحد رجال العلم، أو بمعنى آخر يكون مسئولهم الحزبي أحد رجال العلم، وهذه المجموعة تنقسم إلى مجموعات أصغر، تصل إلى عشرة أشخاص، يكون على رأسهم مؤدب؛ أي معلم، يعلمهم الفقه وأصول الدين، يعيشون ضمن حياة تقشفية تصل إلى حد الحرمان من الملذات ومن الزواج في بعض الأحيان[٣٤].

والإمامة كمفهوم ديني يحكمها المذهب الأباضي في عمان، تخضع مثلها مثل أية فكرة أيديولوجية لنظرية التطور الفكري ولمراحل هرمية تبدأ من الصفر، وتنتهي إلى الصفر. تشب وتشيب، تبدأ قوية تدافع عن الفكرة الأساسية، ثم تترهل متى ابتعدت عن الأصول.

ولهذا مرت الإمامة في العصر القديم في عمان في ثلاث مراحل، المرحلة الأولى التي بدأت بالإمام الجلندى بن مسعود، وانتهت بمقتل عزان، ودامت مائة وثلاثاً وستين سنة، وبعد ذلك عاشت عمان في فترة مضطربة، استولى عليها المعتضد تارة، والقرامطة تارة أخرى، وعرفت هذه الفترة باسم الأئمة المنصوبيين، ثم المرحلة الثانية، التي بدأت مع الإمام سعيد بن محبوب، في القرن الرابع الهجري، وانتهت في النصف الأخير من القرن السادس الهجري وهنا اعتلى ملوك بني نبهان سدة

---

(٣٣) لا نعرف بالضبط كم يساوي الدرهم في ذلك الوقت، ولكن قياساً نجده مبلغاً زهيداً عندما نسمع أن أحد الخلفاء أعطى شاعراً مدحه كذا ألف درهم.

(٣٤) السالمي الأب: التحفة، جـ ١، ٩٠ — ٩١.

الحكم في عمان، وقد تجاهل كل مؤرخي عمان هذه الفترة النبهانية.

المرحلة الثالثة، التي تبدأ بالإمام الحواري بن مالك، في مطلع القرن التاسع الهجري، وتنتهي بعصر اليعاربة.

وقد بدأت الإمامة بنزوى، ثم استطاعت عبر العصور أن تسيطر على عمان كلها، وفي أوج قمتها استطاعت أن تخرج من محيط عمان، بل استطاعت أن تكون أسطولاً بحرياً لمحاربة القراصنة الهنود، وذلك في عصر الإمام غسان، في مطلع القرن الثالث الهجري[٣٥] الذي فرض ضريبة على التجار، حتى يستطيع أن يجهز الأسطول لمحاربة القراصنة الهنود[٣٦].

ومع هذا فنجد بعض الأحيان انكماش الإمامة حتى لا يستطيع تغطية عمان كلها[٣٧] وأصعب الأمور التي مرت على الإمامة الفترة التي عقد أهل عمان في عام واحد عشر بيعات، وهي فترة الأئمة المنصوبيين[٣٨].

وعلى العموم، فقد كانت الإمامة في العصور القديمة في عمان يحكمها المذهب الاباضي، ويسيطر عليها رجال الدين، وحاولت ما أمكن أن تتخذ من الشعار الديني (وشاورهم في الأمر) شعاراً لها، وكان المنطلق الأساسي لها عدم الاعتراف بمبدأ التوارث، ومع مرور الزمن عرفت عمان الإمامة المتوارثة، وهذا ما سنعالجه تحت عنوان الإمامة في العصر اليعربي.

---

(٣٥) كشف الغمة: صحيفة ٣١٢ ــ ٣١٣.
(٣٦) السالمي الأب: التحفة، الجزء الأول، ص ١٢٦.
(٣٧) كشف الغمة: صحيفة ٣٣٦.
(٣٨) السالمي الأب: جـ ١، ص ٢٧٢.

الإمامة في عصر اليعاربة: (١٠٣٤ ــ ١١٥٤ هـ) (١٦٢٤ ــ ١٧٤٤ م)

الإمامة في العصر اليعربي، امتداد للفكرة الأساسية، وهي إبعاد السلطة عن التوارث ومع هذا فقد وجدنا هذه الفترة قد ميزت نفسها بحصر الإمامة في بيت واحد، هو عائلة اليعاربة، هل اختلفت المفاهيم الأساسية ؟ أم ضعف رجال الدين ؟ أم تطورت الفكرة ؟..

للإجابة على هذا السؤال لا بد للرجوع للوراء قليلاً، وهي المرحلة الثالثة للإمامة في العصر القديم برأينا إن هذه المرحلة قد هيأت الأذهان لفكرة مختصرها أنه إذ وجد في بيت واحد رجال يستطيعون أن يتخذوا من الإمامة أيديولوجية للحكم، فلا مانع من ذلك، حتى لو ظهرت الأمور بشكل وراثي، وتفسيرنا لذلك ما وجدنا من أقوال لعلماء الأباضية.

« المطلوب عن علماء الأباضية من الملوك استقامتهم ونشر الدين والعمل بالكتاب والسنة، ثم لا يهمهم من تولاهم إماماً أو سلطاناً أو ملكاً... مذهبنا وسط يجيز القيام تحت سلطة الملوك، ويجيز الخروج إذا جاروا »[٣٩].

نعتقد أن السبب الرئيسي هو الصراع الذي تم في المرحلة الثالثة من العصر القديم للإمامة، هذا الصراع الذي تم بين ملوك بني نبهان والإمامة، فتارة تستلم الإمامة الحكم، وتارة أخرى ملوك بني نبهان، هذا الصراع قد أثر في الفكر الأيديولوجي الإباضي، وبرزت فكرة، ربما نستطيع أن نعبر عنها بما هو معروف بالتاريخ الأوروبي « بنظام الملك المستنير » بمعنى أن هذه التجربة التي مر بها أهل عمان من الصراع على السلطة، وضّح (الحل الوسط) بين ما يطمح إليه الملوك من توارث وبين ما يطمع إليه الشعب ممثلاً بالعلماء من شورى.

(٣٩) سالم الحارثي الدرر الفضية ص ٢٩٧.

هنا كانت الصفة المميزة لهذه الفترة من الإمامة، وهو وجود الصفتين في آن واحد، التوارث والإمامة. وقد رأينا كيف أن المذهب الاباضي قد ميز نفسه بأنه يطبق أحكام الشريعة من خلال ظاهرة الإمامة، وفي الوقت نفسه احتفظ بالحكم بطريقة غير بعيدة عن التوارث. وفي رأينا أن الحل الوسط الذي وجده العمانيون لأنفسهم قد أتى نتيجة التطور الأيديولوجي، وخاضعاً للظروف التي كانت تعيشها عمان في ذلك العصر.

كان الوضع السياسي في عمان عند تنصيب أول إمام من هذه الأسرة على الشكل التالي:

كان سيف الهنائي أميراً على بهلا، وآل عمير يحكمون في سمائل، ومالك بن أبي يعرب اليعربي في الرستاق، والجبور في الظاهرة، والبرتغاليون في ساحل عمان[٤٠].

بمعنى آخر كانت عمان في هذه الحقبة من الزمن ممزقة، كل أمير على ناحية والبرتغاليون مستعمرون ساحل عمان، وعمت الفوضى، وانتشر الفساد، وكثر ظلم الأمراء، هذا الوضع السائد الذي سبق ظهور الإمام ناصر بن مرشد، مؤسس هذه الأسرة.

تنادى علماء المسلمين وأقطابهم بضرورة انتخاب إمام قوي، يعيد للإمامة هيبتها، وللأمة عزها وأمنها، ووقع الاختيار على ناصر بن مرشد، ووجه همه إلى ناحيتين:ــ

أ) بناء الجبهة الداخلية، حيث استطاع أن يعيد الوحدة الوطنية وأن يقضي على « أمراء الإقطاع المتسلطين » وفتح الحصون التي بأيديهم.

ب) الرد على العدوان الخارجي، وطرد الدخلاء ــ يقصد البرتغاليين[٤١].

(٤٠) السالمي الأب: التحفة جـ ١، ص ٤٠٠.

(٤١) السالمي الابن: عمان تاريخ يتكلم، ص ١٥٥.

توالى من هذه الأسرة على الإمامة بالتوارث اثنا عشر إماماً، أولهم ناصر بن مرشد، وآخرهم سلطان بن مرشد[42].

في عصر اليعاربة اتخذت الإمامة صفة أخرى، هنا امتزج الدين بالوطنية، واتخذ شكلاً سياسياً جديداً لم تعرفه الإمامة من قبل، فقد كان من بين الأسباب التي حثت شعب عمان للالتفاف حول الإمامة هذه المرة محاربة « الكافرين » أو المستعمرين أو « الدخلاء » المتمثلين بالبرتغاليين في الساحل العماني.

هنا نجد حنكة سياسية يظهرها. الإمام ناصر مع المجموعة التي اختارته كإمام، فهو لم يبدأ بمحاربة البرتغاليين في بداية الأمر، بل اتجه إلى بناء الجبهة الداخلية، أو بالأحرى توحيد البلاد كجبهة داخلية، وبعد ذلك اتجه لمحاربة الجبهة الخارجية. وقد استطاعت عمان تحت قيادة هذه الأسرة أن تعيد مركزها البحري.

لقد لعب الدين هنا دوراً بارزاً، لقد امتزج الدين بالمفهوم الوطني ليطرح شعارين بناء الجبهة الوطنية، ثم تحرير الأرض من المستعمر. وقد استطاع الإمام ناصر بن مرشد بالفعل أن يكون الجبهة الوطنية، ويبدأ بتحرير الأرض من المستعمر، هذه المهمة التي أكملها من بعده خلفه سلطان بن سيف (١٠٥٩ — ١٠٩١ هـ) (١٦٤٩ — ١٦٨٨ م)، وعلى يده سقطت مسقط من براثن الاستعمار البرتغالي من ١٦٥٠ م.

لقد قال العمانيون في ذكراه « كان إمامنا سلطان بن سيف رؤوفاً رحيماً، ليس بفظ ولا غليظ، كثير الذكر قليل اللغو، لا يستنكف أن يمشي مع العبد والمسكين، رؤوف القلب، كثير الحياء، قليل المن، كثير الوفاء، قائماً بأمر الله، موفياً بعهده، ملتمساً رضوانه.

إن هذا الوصف هو وصف الحاكم المتواضع، فكان يمشي مع العبد

(٤٢) السالمي الأب: التحفة، ص ١٤٩.

والمسكين بعكس النباهنة الذين يوصفون بأنهم قساة متكبرون، من هنا نستدل من هذا النص أن العمانيين غضوا النظر عن شرط أساسي للإمامة، وهي عدم التوارث، مقابل ذلك شرط أن يكون الوريث يحكم بالشريعة له صفات شعبية، مثل الرأفة والتواضع والوفاء، بالإضافة إلى القيام بأمر الله ملتمساً رضوانه.

« اعتمرت عمان في دولته، واستراحت الرعية وازدهرت البلاد بحسن السيرة، ورخصت الأسعار، وصلحت الأثمار، وكان متواضعاً لرعيته، ولم يكن محتجباً عنهم، وكان يخرج دونما حرس يحميه »(٤٣).

وإذا كانت الإمامة القديمة قد استطاعت أن تحافظ على وجودها عن طريق التعصب في تطبيق المذهب الاباضي، التي كانت تسير عليه، فإنها من ناحية أخرى كانت تقف ضد كل محاولة للتغيير داخل المجتمع الإسلامي الذي تحكمه. غير أن هذه الفلسفة لم تكن تصلح أساساً عملياً لدولة تهدف إلى إقامة امبراطورية تجارية واسعة، ومجتمعاً من تجار ينتمون إلى تراث بحري عريق. ولهذا تغير بالفعل طابع الإمامة بعد سيطرة اليعاربة على الأجزاء الساحلية من عمان، وذلك راجع إلى الاضطرار للتعامل مع مجموعة من البشر لا تشارك الإمامة في نظرتها الاباضية، بل لا تشاركها في نظرتها الإسلامية ككل. هذا مما جعل المرونة تحكم التعامل ما بين الإمامة اليعربية والمجموعات التجارية في الخليج العربي. من هنا نفهم إنشاء اليعاربة لأسرة حاكمة تسمح للحكام باختيار خلفائهم قبل وفاتهم، ولا شك بأن مثل هذا التقليد كان يتعارض مع المبادئ الأساسية للأباضية(٤٤).

لقد بنيت الإمامة على الجهاد، سواء الجهاد الداخلي وتوحيد البلاد،

---

(٤٣) السالمي الابن: عمان تاريخ يتكلم، ص ١٥٦.

(٤٤) KAJARE, F. op. cit p. 61 and Landen op. cit p. 51.

أو الجهاد الخارجي وهو المستعمر، من هنا كانت الظروف السياسية، التي أدت إلى قيام الإمامة، نستطيع أن نعطيها صفة « الوطنية » أن البرتغاليين دخلوا عمان بمساعدة أهلها، حيث اتصل بهم أحد الأمراء ويدعى ابن حمير، وهو آخر سلالة النباهنة.

ومن غرائب الصدف أن اليعاربة انتهوا كذلك عندما اتصل أحد أئمتهم بالفرس، وهو الإمام سيف بن سلطان، هذه العملية مهدت إلى انتهاء أسرة اليعاربة، وقيام أسرة أخرى هي أسرة آل بوسعيد، التي تحكم عمان، حتى يومنا هذا ١٩٨٩.

لقد لعب رجال الدين دوراً مهماً في اختيار الأئمة، بل تعدوا دورهم التاريخي، فقد عرفنا أن رجال الدين هم المحرك الأساسي للأمور في العصر القديم، وكان في تحريكهم للأمور يتوخون العدل والمصلحة العامة ضمن المفهوم الديني، ولكننا هنا أمام ظاهرة مختلفة عما كنا نعرف عن رجال الدين الحقيقيين.

فنجد بعد موت الإمام سلطان بن سيف الثاني نجد الشعب يصر على تنصيب إمام، فنجد رجال الدين يقفون ضد الشعب؛ ليختاروا مهنا بن سلطان (ابن أخ سلطان بن سيف).

عند موت الإمام سلطان رأى العلماء وكبار المسلمين أن يقوموا بعقد الإمامة للشيخ مهنا بن سلطان، ولكن (العامة) رفضت إلا أن تبايع ابن الإمام الراحل سلطان، واسمه سيف، وكان هذا صبياً مراهقاً، لا يجوز له تولي إمامة المسلمين؛ لأنه نفسه لا يملك من أمره شيئاً، ورغم هذا أصر العامة على مبايعته، واستطاع العلماء تفريقهم (بالمداراة)، وتمت البيعة (سرا) لمهنا بن سلطان[٤٥].

لقد كانت أهم صفات الإمام في عصر اليعاربة أنها بدأت وطنية

(٤٥) السالمي الابن: عمان تاريخ يتكلم، ص ١٦١.

متخذة من الظروف السياسية الراهنة في ذلك الوقت عصا تتكئ عليها، بالإضافة إلى ذلك ظاهرة التوارث. وهذه الظاهرة التي مهدت إلى نوع آخر من الحكم في عمان، إنه نوع ثالث من الإمامة ولكن نستطيع القول إنه احتفظ بثوب الإمامة. هذا هو النموذج الثالث من الحكم في عمان هو عصر (آل بوسعيد).

الإمامة في عصر البو سعيد: (١١٥٤ ـ ١٣٢٢ هـ) (١٧٤٤ ـ ١٩٠٤ م)

الإمامة هذه المرة لم تكن أداة للقيام بالفعل، وإنما كانت مكافأة لفعل قد انتهى، فقد رأينا في إمامة اليعاربة أن العمانيين نظروا إلى الإمامة كأداة للقيام بالفعل، وبناء الجبهة الداخلية، وطرد المحتلين.

أما في العصر البوسعيدي، فقد عقد العمانيون البيعة للإمام أحمد بن سعيد، مؤسس هذه الأسرة، كمكافأة له بفعل طرده الفرس من عمان، وعلى العموم فكلا الحالتين تدخل ضمن المفهوم الوطني، فسواء بويع الإمام لطرد البرتغاليين، أو بويع الإمام لأنه طرد الفرس، فالسبب واحد مع اختلاف التوقيت، من هنا نجد أن الإمام الأول، وابنه سعيد، امتداد لفترة اليعاربة. صحيح أن اليعاربة أبقوا الإمامة ضمن عائلاتهم، ولكنها لم تثمر، بشكل واضح ومستمر في أسرة واحدة داخل العائلة، بمعنى أننا نجد استمرارها في عائلة اليعاربة، ولكن لا نجد أن الابن يرث الأب إلا في حالتين. الحالة الأولى بعد موت سلطان بن سيف الأول، والحالة الثانية عند موت سلطان بن سيف الثاني، ولم تنجح الأولى كما رأينا.

بينما نجد عائلة البوسعيد، أن الأسرة، ومنذ بداية تسلمهم السلطة، سنت توارث الابن للأب، ومع هذا فهناك اختلاف آخر جوهري أن

عائلة اليعاربة خضعت على الأقل لمقاييس الاختيار، بينما عائلة البوسعيد أخضعت المذهب لنظام التوارث.

شيء آخر وهو الاختلاف بشخصية المؤسسين، فبينما كان الإمام ناصر بن مرشد ابن أمير قابع في داخلية عمان، نجد أحمد بن سعيد تاجراً مارس التجارة قبل أن يتولى الحكم.

كان أحمد بن سعيد والياً لصحار من قبل الإمام سيف، وعند موت الإمام طمع في الحكم، ولكن العقبة الوحيدة التي أمامه هي الفرس، وقد تظاهر بحبه للفرس مما جعل الفرس يثبتونه في مركزه. بعد ذلك استطاع أحمد بن سعيد أن يقضي على الفرس، بطريقة المخادعة، وبطريقة المفاجأة في أثناء وليمة أقامها لهم، وأجبر الحامية الفارسية في مسقط على الاستسلام، وقتل جميع الضباط ومعظم رجال الحامية، وأرسل الباقي إلى ايران بحراً، ولكن أصحابه أغرقوا المراكب بهم(٤٦).

وبعد تخلصه من الغزاة عين نفسه أميراً على المدينة (أي مسقط)، وقرب إليه بعض رجالات الدين الذين أصدروا قراراً يعلنون فيه أن أحمد هو منقذ البلاد، ويستحق أن يرفع ليكون إمام المسلمين. وفعلاً أصبح أحمد بن سعيد إماماً لعمان وحاكمها المطلق(٤٧).

كان لتزعم أحمد بن سعيد حركة التحرير العمانية ضد الفرس أثر كبير في عقد البيعة له كامام، وتجمع المصادر التاريخية على أن نجاح أحمد بن سعيد في هزيمة الفرس سارع إلى عقد اجتماع ضم الرؤساء وشيوخ القبائل في مدينة الرستاق. ودعا المجتمعين إلى اختيار أحدهم إماماً على البلاد، فنهض أحدهم وبايعه بالإمامة معللاً أن الرجل يرجع إليه الفضل في تخليص بلاده من سيطرة الغزاة(٤٨).

---

(٤٦) السالمي الابن: عمان تاريخ يتكلم، ص ١٦٣.

(٤٧) السالمي الابن: عمان تاريخ يتكلم، ص ١٦٤.

(٤٨) جمال زكريا: دولة بوسعيد، ص ٤٦.

إن السالمي (الأب) يطعن في إمامته (إن أهل العلم لم يروا بصحة بيعته؛ لأنها كانت على غير مشورة في المسلمين، وأن اسم الإمامة قد ثبت له عند الخاص والعام اسماً دون حكم، فأولاده يقال لهم أولاد الإمام.

ويصف بيعته بقوله « إنه كان عقداً بعد فتنة، وتغلب على الأمر، وعلى ذلك لم يتوافر في ذلك العقد الشروط المطلوبة لإمامة اباضية صحيحة »[٤٩].

من هنا نجد التشبث بمفهوم الإمامة، وكما يقول المثل « شيء أفضل من لا شيء ».

من هنا نجد مؤرخي الأباضية، يطلقون على أحمد بن سعيد، وابنه سعيد، لقب الإمام مع التحفظ، أما بقية السلالة، فيطلق عليها أبناء الإمام، أما لماذا أطلق عليها أبناء الإمام ؟ فبرأينا محاولة جادة من قيادة الإباضية لجعل فكرة الإمامة حاضرة دائماً في الأذهان.

إن أية فكرة تخضع لتطور الزمن، وتستطيع أن تبقى ضمن الظروف المعاشة، تتشعب، ويكثر فلاسفتها، ويظهر بها أجنحة، كل يرى أن فكرته هي الصائبة، والإمامة كفكرة مع مرور الزمن، خضعت لهذا القانون العام.

فهناك المفكر الحدي، الذي لا يرى إلا تطبيق المفهوم، بحد ذاته، وهناك المفكر الوسط الذي يرى خير الأمور أوسطها، ولكنه في الوقت نفسه محافظاً على جوهر الفكرة وأصالتها، خاضعاً لتطور الزمن، وأخيراً هناك المفكر الذي رأى مع تطور الزمن أن هذه الفكرة لا تلازم الواقع، ويجب إزاحتها.

---

(٤٩) السالمي الأب: التحفة جـ ٢، ص ١٦٩ ــ ١٧٠.

يهمنا هنا الفريقان الأول والثاني، فالفريق الأول، الذي يرى لا بديل للإمامة، هو المحافظ، أما الفريق الثاني، الذي يرى أن خير الأمور أوسطها، فأخذ بعين الاعتبار الظروف الراهنة التي تعيش بها هذه الفكرة هو المعتدل. من هنا وجد بعض المؤرخين الذين عالجوا هذه القضية، تقسيم المجتمع العماني إلى محافظين، ومعتدلين، أو على الأقل، فلنقل إن هذا الصراع الفكري خلق قيادتين للمجتمع العماني؛ الأولى قيادة محافظة، والأخرى معتدلة(٥٠).

ويطلق على عصر اليعاربة وآل سعيد معتدلين، بينما على الذين يريدون أن يرجعوا بالإمامة إلى العصور القديمة محافظين، وفي رأينا أن يصح هذا القول في عصر اليعاربة وبداية عصر آل بوسعيد، ولكن لا يمكن أن يستمر هذا التقسيم إلى عصر البوسعيد كله. حيث أعطوا لأنفسهم ألقاباً مثل (السيد)، و (السلطان)(٥١) وابتعدوا كل البعد عن مفهوم الإمامة.

أما إذا كان القصد من تقسيم المجتمع العماني إلى محافظ ومعتدل، من حيث المفهوم السياسي، فلربما نستطيع أن نقول إن هذا التقسيم لا يبتعد عن الحقيقة كثيراً، حيث مثل المعتدلين سلاطين آل بوسعيد، الذين اتخذوا من الساحل مقراً لهم، ومثل المحافظين الأمراء والاقطاع الذين قبعوا في الداخل، وبدأوا يحاولون إعادة الإمامة.

من هنا نجد داخليّة عمان دائماً تناضل من أجل إظهار الإمامة، وهذا ما يفسر الانتفاضة التي قام بها عزان بن قيس (١٨٦٩ — ١٨٧١ م)، بعد أن اختارته داخلية عمان إماماً بها. إن انتفاضة عزان بن قيس، وهو من الأسرة الحاكمة، ليست المحاولة الأخيرة من قبل

(٥٠) Landen. p. cit. p. 50.

(٥١) المصدر نفسه ص ٥٩.

داخلية عمان لإرجاع الإمامة إلى عموم عمان، ولكنها أخطر محاولة واجهها (البوسعيد).

وقد كانت هناك محاولة أخرى قام بها الزعماء الدينيين، وعلى رأسهم فيصل ابن تركي، وقد حاول فيصل في نهاية عهده أن يزيد بعض أسباب النقد، فقرب إليه زعماء الأباضية، وحاول أن يظفر منهم بلقب الإمامة، ولكن الزعماء الدينيين اختلفوا معه حول بعض الأمور، منها تحريم الخمر، واستيراد الدخان، وتجول المبشرين بحرية في البلاد[٥٢] واتجه العلماء إلى سالم بن راشد الخروصي، وانتخبوه إماماً ١٩١٣ م، بعد ذلك انقسم المجتمع العماني سياسياً إلى إمامة في الداخل، وسلطنة في الساحل، ولكنه ليس الانقسام الأول لعمان.

(٥٢) صلاح العقاد: معالم التغيير، ص ٩٤.

الباب الثاني

عمان في العصر الحديث

الفصل الأول

عمان في عهد اليعاربة. (١٦٢٤ ــ ١٧٤١ م)

عندما نتكلم عن عهد اليعاربة، نقصد به العصر الحديث للتاريخ العماني، ففي مطلع القرن السادس عشر كان البرتغاليون قد استقروا في المحيط الهندي، ومن ثم الخليج العربي وحطموا مملكة هرمز. هذا يتوافق في التاريخ العماني مع أواخر العهد النبهاني، هذه الأسرة التي حكمت عمان أكثر من خمسمائة سنة، وقد قامت دولتهم في أواخر القرن السادس الهجري إلى نهاية القرن العاشر[٥٣]، والذي يتوافق مع مطلع القرن السابع عشر الميلادي.

هذه الأسرة ــ أي الأسرة النبهانية ــ التي وضعت عمان في نهاية عهدها تحت حكم ما نستطيع تسميته « بدويلات الأمراء ». فقد كانت عمان مقسمة إلى عدة دويلات، كل دويلة عليها أمير، سواء من أسرة النباهنة، أم من غيرها، كما ذكرنا سابقاً[٥٤]، مما سهل هذا الوضع مهمة البرتغاليين للاستيلاء على الساحل العماني.

---

(٥٣) السيابي: العنوان في تاريخ عمان، ص ٢٥٥.

(٥٤) راجع فصل الإمامة في العصر اليعربي.

الوضع العام في الخليج العربي عند ظهور البرتغاليين:

عند وصول البرتغاليين، كانت هناك قوتان محليتان، الدولة الصفوية في الشمال الشرقي، والامبراطورية العثمانية في الشمال والغرب، ولكن أياً من هاتين الدولتين لم يسهم في مقاومة البرتغاليين، قبل منتصب القرن السادس عشر، بل على العكس من ذلك، جرت محاولات لإيجاد تحالف بين الفرس والبرتغاليين ضد العثمانيين[٥٥] ومع أن وصول البرتغاليين تصادف مع وجود أعظم حكام الأسرة الصفوية، وهو الشاه إسماعيل (١٤٩٩ ــ ١٥٢٤)، إلا أن ذلك الشاه كان يركز قوته في شمال البلاد، بعيداً عن منطقة الخليج العربي، فاتخذ تبريز عاصمة له، بالإضافة إلى ذلك انشغال الشاه بالحرب مع الامبراطورية العثمانية، وتعرضت بلاده للغزو العثماني.

وقد لعب الخلاف الطائفي دوراً في تأجيج الصراع بين الدولتين، وخصوصاً أن الشاه إسماعيل هو الذي جعل المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للدولة[٥٦].

أما بالنسبة للعثمانيين فقد تأخر استقرارهم بالعراق، رغم الانتصارات التي أحرزوها على الإيرانيين في موقعة سالديران ١٥١٤ م، فتحول وجهة نظر العثمانيين للشام ومصر ثم إلى أوروبا. وعندما توجه العثمانيون مرة أخرى للعراق، وجدوا أن البرتغاليين قد أكدوا سيطرتهم على الخليج العربي.

وفي مطلع القرن السادس عشر بدا الشاطئ الغربي من الخليج العربي خالياً من أي تنظيم سياسي يشبه الدولة، اللهم إلا دولة هرمز، التي كانت مجتمعاً تجارياً أكثر منها ممثلة لأي شعب من الشعوب، وكانت لها سيطرة اسمية على أغلب الخليج العربي.

(٥٥) صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي، ص ١١.
(٥٦) صلاح العقاد: المصدر السابق، ص ١٢.

البرتغال:

ماذا يعني وصول البرتغال للخليج العربي ؟ وما يعني الخليج العربي بالنسبة للبرتغال ؟

إن وصول البرتغال إلى الخليج العربي، امتداد للنهضة الأوروبية القومية، التي كان أول نتائجها، الاستكشافات الجغرافية. بحثاً عن الثروة الخيالية، ولقد حكم البرتغال ثلاثة مداخل أيديولوجية.

الأول: الانتماء القومي الذي يعطي دائماً الفرد، والمنتمي إلى هذه الأمة نوعاً من الفخر والاعتزاز للأرض وللجنس.

الثاني: الدين، الذي يعطي الإنسان مفهوم التضحية في سبيل عزة هذا الدين ونصرته وانتشاره.

الثالث: المصلحة التجارية، وهي المحرك الأساسي، والإطار الرئيسي الذي يصب فيه المدخلان السابقان.

إن المصلحة التجارية يحركها عادة القيادة السياسة، أو الإدارة السياسية، ومن ثم فاستخدام الحس القومي والحس الديني لخدمة المصلحة التجارية أمر سهل لأية قيادة ناجحة. والدليل على ذلك، فمن خلال المعاهدات التي أبرمت بين البرتغاليين وبين موانئ الخليج العربي، نستشف بسهولة الهدف الأساسي لغزو البرتغال للخليج. إننا لم نجد أي نص في المعاهدات التي أبرمها البرتغاليون مع موانئ الخليج العربي يطلب من المواطنين العرب أن يتخذوا الدين المسيحي ديناً رسمياً، بل نجد نصوصاً كثيرة، حول التجارة والضرائب والسياسة، ومع هذا نجد المواطنين البرتغاليين يضحون بأنفسهم من أجل هذه السياسة، معتقدين أن هذا عز لقوميتهم ولدينهم.

لا نفهم لماذا كان البرتغاليون عنيفين في معاملتهم لأهالي الخليج ؟

بينما كان أهالي الخليج العربي يبدون طاعة تامة لكل الشروط التي يمليها عليهم البرتغاليون، هل هو رد فعل ـــ حيث إن العرب احتلوا أسبانيا في العصور الوسطى ؟ هل هو تكتيك سياسي وعسكري لتحطيم المعارضين ضدهم ؟ هل هو تعصب ديني أم قومي ؟ أم هو الخوف من المجهول ؟ والفهم الخاطئ المنطلق من أن اهالي الخليج العربي متوحشون غدارون؛ لا يرحمون أحداً هل هي أفكار ذلك العصر، تتطلب العنف، حتى يبرز القائد أمام جنوده بأنه رجل، بما تحمل هذه الكلمة من معنى الرجولة أي الخشونة والعنف ؟

وعلى ما نعتقد أن سياسة البرتغال كانت خليطاً من كل هذه التساؤلات. فأفكار العصر تتطلب العنف، وقانون البقاء للأصلح، حيث الاستكشافات الجغرافية على أشدها. وحيث التجارب في قارة أمريكا تثبت أن القوة هي الحصن الوحيد، الذي يصون السلامة. نستدل على هذا من القلاع المحصنة في كل أنحاء الخليج العربي، التي ما تزال إلى يومنا هذا تثبت نظرية الخوف من المجهول، وعدم الثقة بما يدور حول الإنسان خارج هذا الحصن.

وبرأينا كذلك أنه شيء طبيعي في ذلك العصر، ولو أنها منافية للأخلاق الإنسانية ـــ أن يكون العنف، هو السمة المتبادلة بين الغازي والمغزو. فأبطال ذلك العصر يعرفون تمام المعرفة أن معارضيهم لا يستسلمون بسهولة، حيث إن المصالح الاقتصادية والسياسية، وكذلك المفهوم القومي والديني، متعارضة.

ومع هذا، فالتاريخ يذكر بكل وضوح وحشية الاستعمار البرتغالي متمثلة في الحرب والنهب، وجدع الأنوف، وقطع الآذان[٥٧].

(٥٧) لمزيد من الإطلاع على وحشية البرتغال انظر الكتب الآتيه:ـــ

1) FARIA Y SOUSA. «The portugal Asia».
2) The commentaris of the great Al BOUQUERQUE.

لقد كان الهدف الأساسي من التوسع الوصول إلى الهند والشرق الأقصى مباشرة دون الحاجة إلى توسط المسلمين والبنادقة في نقل التجارة. وقد تمكن البرتغاليون من تثبيت أقدامهم على سواحل الهند، في مطلع القرن السادس عشر، حينما أسسوا بها حكومة يرأسها نائب الملك. فما الذي حول اهتمام البرتغاليين إلى شواطئ شبه الجزيرة العربية، وهم ما يزالون في دور البناء لامبراطوريتهم بالهند؟

وجد البرتغاليون أنه من غير المجدي البقاء في الهند، بدون السيطرة التامة على المحيط الهندي والخليج العربي، ومع القوة الهائلة التي نقلها البرتغاليون إلى المحيط الهندي إلا أنهم لم يستطيعوا أن يوقفوا حركة الملاحة العربية في هذا المحيط.

ولكي يمنعوا التجار العرب من الوصول إلى مناطق إنتاج التوابل ذاتها، وجدوا من المفيد أن يسيطروا على الخليج العربي، حتى تستكمل حلقة السيطرة الكاملة على هذا المحيط.

العلاقات البرتغالية مع الشرق نتيجة لمحاولات تمت في مطلع القرن السادس عشر الميلادي من قبل البرتغاليين لاستبدال نفوذ العرب والإيطاليين ــ الذين يلعبون دوراً فعالاً كوسطاء تجاريين بين آسيا وأوروبا ــ بنفوذهم.

ولقد كان أهم طريقين هما البحر الأحمر، والخليج العربي. وكان يتعرض أحد الطريقين أو كلاهما في بعض الأحيان للتعطيل، وذلك راجع للصراع السياسي المحلي، مما يعطل القوافل التجارية الذاهبة إلى أوروبا، أو الذاهبة إلى الشرق(٥٨).

وترجع المحاولات البرتغالية لغزو الشرق الأوسط بمحاولات هنري الملاح (١٣٩٤ ــ ١٤٦٠)، الذي حاول أن يصل إلى الهند بالدوران

---

(٥٨) Lorimer G.T. Gazetter of persai Gulf vol. I p. 1.

حول أفريقيا. مع أن كل المحاولات منية بالاخفاق[٥٩]، إلا أن فاسكو ديجاما VASCO DE GAMA (١٤٩٧) قدر له أن ينجح في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، وبهذا اكتشفت البرتغال طريقاً جديداً للهند[٦٠].

لقد فهمت البرتغال حال وصولها إلى الهند أنها لا تستطيع أن تؤمن طريقها التجاري الجديد، إذا لم تسيطر على طريق الخليج العربي والبحر الأحمر. من هنا التفت البرتغال إلى أهمية هذين الطريقين ففي سنة ١٥٠٦ قام البوكيرك بحملة شرقية كانت جزيرة هرمز والموانئ التي بجانبها هي المحطات البرتغالية الأولى. وفي ١٥٠٧ توقف البوكيرك في مسقط، التي نالت على يديه أفظع الجرائم.

« لقد أمر البوكيرك عندما استسلمت له المدينة بقطع آذان العرب المأسورين وأنوفهم، وإرسالهم إلى هرمز لتخويف حاكمها. وفي المكان نفسه ـــ أي مسقط ـــ نحن أسرنا ٢٥ قطعة من المدافع وبعض المعدات الحربية، وقد أحرقنا ٣٨ سفينة صغيرة وكبيرة »[٦١].

وعندما رسى الأسطول البرتغالي بقيادة البوكيرك أمام مسقط جاء إليه وفد يمثل الحاكم، وتوسل إليه ألا يحدث أي أذى في المدينة، وعبر عن رغبته في أن يصبحوا تابعين لملك البرتغال، وأن يدفعوا له الرسوم التي كانوا يدفعونها آنذاك لملك هرمز.

غير أن المفاوضات لم تفلح، ورأى البوكيرك أن المسلمين كانوا يسوفون، وينظمون مقاومة، متخذين خطوات للدفاع عن أنفسهم، فأمر سفينتين من سفنه أن تقفا قبالة الشاطئ، وتقذفا المدينة، تمهيداً للهجوم،

---

(٥٩) Wilson: The Persai Gulf p. 111.

(٦٠) Lorimer op. cit p. 5.

(٦١) The commentaries op. cit p. 11.

وقد قاوم المدافعون ببسالة عظيمة، ولكنهم في النهاية اضطروا للتسليم. وقد رجو البوكيرك ألا يحرق المدينة، فوافق على ذلك شريطة، أن يدفعوا مبلغاً من الذهب قبل ظهر اليوم التالي. وفي اليوم التالي، ولعدم توفر المبلغ المطلوب أمر البوكيرك بإحراق المكان بما في ذلك المسجد، والسفن الموجودة في المرفأ. وقد نهب المكان ما عدا دار الحاكم التي سلمت؛ لأن الحاكم استقبل البرتغاليين استقبالاً ودياً(٦٢).

ويمكن أن نكون رأياً عن أهمية مسقط التجارية ووضعها الجغرافي التي دمرها البرتغاليون.

مسقط مدينة كبيرة آهلة بالسكان محاطة من الجانب الداخلي بجبال كبيرة، وأما من ناحية البحر، فهي قريبة من حافة الماء، والميناء صغير، وهو على شكل حدوة حصان، ومحصن في وجه كل الرياح، وهو المستودع الرئيسي لمملكة هرمز. هذا الميناء لا بد للسفن التي تبحر من هذه الأجزاء أن تدخله، لتتحاشى الساحل المقابل الذي يحتوي على ضحاضح كثيرة. وفيها سوق قديمة لعربات الخيل والتمر، وهي مدينة جميلة ذات بيوت فاخرة، وتمد من الداخل ـــ أي داخل عمان ـــ بالقمح والذرة والشعير والتمر لتحميل أي قدر يأتيها من السفن.

إن مدينة مسقط جزء من مملكة هرمز، والداخل يخص ملكاً يدعى ابن جبير(٦٣). وفي سبتمبر ١٥٠٧ توجه البوكيرك إلى هرمز عاصمة الموانئ في ذلك الوقت؛ ليوقع معاهدة ملزمة بتنفيذ الأوامر البرتغالية(٦٤) ولأهمية هذه الجزيرة وموقعها الممتاز فكر البوكيرك أن يتخذها كقاعدة تشرف على عملياته التجارية والحربية في المنطقة، إلا أن تمرداً عسكرياً

(٦٢) The commentaries op. cit p. 71.

(٦٣) - Faria Y Sousa M. De p. 126.

(٦٤) - The commentaries op. cit p. 111.

برتغالياً حدث في مطلع ١٥٠٨ اضطره أن يترك الجزيرة إلى الهند. مقسماً بأنه سوف يحضر يوماً ما للانتقام[٦٥].

وبموت فرانسسكو دالميدا أصبح البوكيرك في فبراير ١٥٠٩ ممثل الملك في الهند، وفي فبراير ١٥١٥ ترك البوكيرك الهند متوجهاً على رأس حملة كبيرة إلى هرمز، فلم يجد حاكم الجزيرة سيف الدين، الذي كان صغيراً في ذلك الوقت، بُداً من أن يقبل كل الشروط البرتغالية، المتمثلة بالآتي:

ــ الالتزام بدفع الضرائب السنوية لملك البرتغال.
ــ قبول الحماية من قبل ملك البرتغال.
ــ تشييد قلعة حربية كدليل مادي على وجود البرتغال مع ترك الإدارة الداخلية لأهل الجزيرة[٦٦].

وفي ٢٠ أكتوبر ١٥١٥ أصيب البوكيرك بمرض عضال، وترك القيادة لابن أخيه، وتوجه إلى الهند، ولكن الموت عاجله، وتوفي على ظهر السفينة في نهاية سنة ١٥١٥.

بوفاة البوكيرك فقدت البرتغال واحداً من أعظم رجالاتها، الذي عرف كيف يستعمل القوة لخدمة البرتغال، ويجعل من البرتغال البلد الأول المؤثر في البحار الشرقية. لقد ترك البوكيرك في كل الموانئ التي قهرها قلاعاً تدل على الوجود المادي والعسكري البرتغالي.

لقد حاولت البرتغال أن تحافظ على مركزها الأول في البحار الشرقية، ولكن مجمل أسباب ساعدت على تدهورها:

أولاً: لقد تحالفت البرتغال مع إيران في البداية، لتطابق مصالحها الاقتصادية، حيث اختلاف المذهب الديني الإيراني التركي، يشد ايران

---

(٦٥) Lormer op. cit vol. 1. p. 4.

(٦٦) The commentaries op. cit pp. 117 119.

لوجود التحالف المؤقت، هذا التحالف المؤقت ارتد أخيراً لغير صالح البرتغال، حيث الاختلاف الاقتصادي المغطى بواجهة دينية.

ثانياً: النضال البطولي الذي أبداه شعب الخليج العربي، وخصوصاً عرب عمان، لمكافحة الاستعمار البرتغالي، الذي ساعد على عدم الاستقرار التجاري والسياسي في المنطقة.

ثالثاً: فقدان البرتغال لاستقلالها وإلحاقها بإسبانيا ففي سنة ١٥٨٣ ألحق الملك فيليب الثاني البرتغال بإسبانيا، التي لم يكن لها اهتمام في البحار الشرقية، وقد كان مركز ثقل إسبانيا في الأمريكتين[٦٧].

رابعاً: المعاملة السيئة غير الانسانية والتعصب الديني من قبل البرتغال للشعوب الأسيوية والأفريقية، فلم تستطع البرتغال في أوج انتصاراتها أن تنظم العلاقات التجارية مع هذه الشعوب. كما أن سياستها تعتمد على القهر العسكري واستغلال الشعوب المقهورة، والحصول على المواد الأولية.

خامساً: ملك البرتغال كان متأخراً في فهمه للمرحلة، فقد احتكر أفضل السلع التجارية، ولم يتح الفرصة للبرجوازية التجارية البرتغالية لأن تشارك في التجارة الكبيرة، هذه الطبقة التجارية التي تشمل، في ذلك الوقت، الطبقة الأكثر تحركاً في مجال الاستعمار ومستعدة أن تساهم في هذا المجال، بعكس الهولنديين والإنجليز الذين فهموا المرحلة فيما بعد، وأتاحوا الفرصة للطبقة التجارية لأن تساهم مساهمة فعالة في المجال التجاري.

سادساً: ظهور قوى أوروبية مثل هولندا وانجلترا، اللتين لم تسمحا للانفراد البرتغالي في البحار الشرقية. بالإضافة إلى عرب عمان تحت قيادة اليعاربة.

---

(٦٧) العقاد: التيارات السياسية، مرجع سابق، ص ٢١.

هذه الأسباب مجتمعة عجلت في تدهور القوة البرتغالية واختفائها من الخليج العربي ومن المحيط الهندي.

اليعاربة:

لقد كانت سياسة البرتغال أحد الأسباب التي دفعت العمانيين إلى الجهاد ضد الغازي وأثارت في الوقت نفسه تساؤلاً كبيراً حول ثروة المنطقة (الهند والخليج)، لم يقدره في الماضي أهل المنطقة.

وسوف نرى أن العمانيين لم يكتفوا فقط بتحرير أرضهم، بل كانت بداية للتوسع العماني وتشكيل امبراطورية عمانية مترامية الأطراف.

ففي سنة ١٦٥٠ أجلت القوات العمانية بقيادة سلطان بن سيف البرتغاليين عن الأراضي العمانية، وكان سقوط مسقط بداية النفوذ العماني في الخليج العربي، ثم أفريقيا. بدأ نجم عمان في الصعود في مطلع القرن السابع عشر، في أعقاب نجاح العمانيين في اختيار إمام قوي، ومجموعة قيادية تلته، ولقد اتبع اليعاربة سياسة هجومية لتوحيد البلاد تحت راية حكمهم في داخلية عمان، ثم الاندفاع إلى الساحل لتحريره، وبعد ذلك مطاردة البرتغاليين أينما وجدوا (الميحط الهندي، ساحل أفريقيا الشرقي، الخليج العربي) وهكذا أصبح اليعاربة من القوة، بحيث إنهم لم يكتفوا بمحيط عمان بعد أن تم لهم تحرير مسقط ١٦٥٠.

وما أن توحدت البلاد لأول مرة، منذ مئات السنين من التفكك والقتال الأهلي، حتى أطلق العنان للطبقات التجارية على توسيع نفوذهم السياسي والاقتصادي إلى ما وراء حدود عمان، ولربما الاحتكاك البرتغالي مع العمانيين ولد نوعاً من الانفتاح على الأدوات العسكرية المتطورة، مما حدى بالعمانيين أن يتخلوا عن سفنهم التقليدية ويستبدلونها بسفن كبيرة الحجم.

فرض العمانيون في أول الأمر سيطرتهم على ضفتي خليج عمان، كما أقاموا مراكز لهم في النقاط الهامة على الساحل الجنوبي من الخليج العربي.

وهكذا ما إن بدأ القرن السابع عشر حتى كان اليعاربة يحكمون دولة، يمتد نفوذها السياسي عبر منطقة الخليج العربي كله إلى سواحل أفريقيا الشرقية والجنوب العربي. كما أن نفوذهم الاقتصادي يمتد عبر شواطئ الخليج العربي إلى داخلية إيران والعراق وشبه الجزيرة العربية، أما على الجهة الغربية، فقد وصل هذا النفوذ إلى البحيرات الوسطى في أفريقيا بينما وصل على الجانب الشرقي إلى دلتا نهر الجانج.

وعلى الرغم من ارتياد سفن الدول الأوروبية لمياه الخليج العربي من وقت لآخر، إلا أن هذه الدول لم تكن تطمع في المناطق التي كانت خاضعة يومذاك للنفوذ العماني، خصوصاً أن هذه الدول كانت مشغولة بتوطيد نفوذها في شبه القارة الهندية، مما هيأ للدول الواقعة على ضفاف الخليج، ومنها عمان، الفرصة للمناورات السياسية والطموح في إنشاء امبراطورية لها(٦٨).

كانت الصورة العامة للوضع السياسي في عمان عند تولي ناصر بن مرشد (١٦٢٤ ــ ١٦٤٩)(٦٩) مفككة كما ذكرنا سابقاً. فكان عليه أن يقوم بجهود مضنية لاستتباب الأمن وتوحيد الدولة. وبدأ في منطقة الرستاق، التي كانت تحت سيطرة أحد أقربائه بن أبي العرب اليعربي، واستولى على الحصن، ثم تقدم ناصر إلى منطقة « نخل »، وهي كذلك لأحد أقربائه سلطان بن أبي العرب، وكاد أن يقتل، ولكنه

---

(٦٨) Landen Op. cit p. 54-55.

(٦٩) وهو أمير من عائلة كانت تحكم الرستاق، وينتهي نسبه إلى النباهنة. أنظر السيابي، مرجع سابق، ص ٢٩٥.

نجا بأعجوبة، وعندما سقطت القلعة، عين عبدالله بن سعيد الشقفي والياً عليها[٧٠].

أدت هذه الانتصارات الأولية، لتدعيم مركز الإمام في الرستاق والنخل، وكانت عبارة عن قاعدة للاستقرار، وتجميع الأنصار، وهي البداية الأولى المهمة لتشكيل الدولة.

وكون مجتمع عمان، مجتمعاً متديناً، وكون ناصر بن مرشد قد طرح نفسه كإمام، واستطاع أن يكون، على الأقل، قاعدة ينطلق منها، بدأ العمانيون يحولون أنظارهم إليه، مما ساعد الإمام ناصر أن يشن حروباً أهلية، استطاع من خلالها أن يخضع عمان الداخل له، فاستولى على نزوى العاصمة الروحية لعمان، وقد استطاع أن يظهر سياسة حكيمة ضد أعدائه وأصدقائه، فهو يحارب المعارضين له، وعندما ينتصر عليهم يعين رئيسهم كوالي من قبله على منطقته.

تصفية الوجود البرتغالي:

بعد كل النجاح الذي أصابه ناصر بن مرشد في السيطرة على القبائل في الداخل، وكسر شوكتها كانت أمامه مهمة أخرى لينجزها، تلك هي تخليص الأراضي العمانية، وخصوصاً الساحلية من الاحتلال البرتغالي.

وقد اتخذ ذريعته لجوء بعض الشخصيات العمانية إلى البرتغاليين في مسقط وصحار، فقد لجأ مانع بن سنان العميري حاكم مدينة (سمائل) إلى مسقط، ثم إلى صحار، كما التجأ سيف بن جفير إلى صحار[٧١].

لهذا أعد الإمام قوات كبيرة بقيادة الشيخ مسعود بن رمضان ؟ لمحاربة

---

(٧٠) Badger op. cit. p. 55.

(٧١) السالمي « الأب »: التحفة، جـ ٢، ص ٨ — ٩.

البرتغاليين في مسقط ومطرح، وقد اتخذ الشيخ مسعود بن رمضان من منطقة قريبة إلى مطرح تسمى « بطوى الرولة »[٧٢] قاعدة لانطلاقه، وكانت المعارك الأولى التي أحرز العمانيون فيها بعض النصر، وانتهت بعقد صلح كانت أهم شروطه:

أولاً: أن يهدم البرتغاليون القلاع التي يملكونها في مطرح، وقريات، وصور.

ثانياً: أن يهدم الإمام القلعة التي بناها في مطرح؛ ليصبح هذا المكان محايداً في المستقبل.

ثالثاً: أن تمر سفن الإمام إلى البحر دون تفتيش، بعد أخذ إذن من البرتغاليين.

رابعاً: إعفاء العمانيين من دفع الضرائب الشخصية والتجارية عند دخولهم إلى مسقط، وخروجهم منها.

خامساً: أن تكون التجارة حرة.

سادساً: أن يدمر العرب العمانيون كل التحصينات التي أقيمت أثناء فترة المعارك، (١٦٤٠ — ١٦٤٨) وأن لا يكون للبرتغاليين حق إقامة تحصينات أخرى على أنقاضها[٧٣].

وعلى الرغم من أن تلك المعارك لم تنه الوجود البرتغالي في مسقط، إلا أنها كانت بمنزلة التمهيد الجدي للقضاء على هذا الوجود، وقد انقلب الوضع العسكري لصالح العمانيين. وأصبح البرتغاليون في موقف الدفاع بعد أن كانوا في موقف الهجوم، ومن جهة أخرى فقد أثر هذا النصر المبدئي في العمانيين أنفسهم، مما شجعهم على مواصلة تحرير أراضيهم وتخليصها من الأعداء.

---

(٧٢) المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٠.

(٧٣) Lorimer op. cit pp. 400 – 401-

كانت الحملة التالية إلى جلفار (رأس الخيمة)، وكان فيها قلعتان يسيطر البرتغاليون على واحدة، أما الأخرى، فتحت سيطرة الفرس، وقد اتجهت الحملة بقيادة علي بن أحمد، وقد هاجمت أول ما هاجمت، القلعة الفارسية وعلى الرغم من المساعدة العسكرية البرتغالية، التي أمدت قائد القلعة الفارسية، ويدعى ناصر الدين الفارسي إلا أن العمانيين استطاعوا أن يحتلوا القلعة، مما جعل وضع البرتغاليين في القلعة الثانية لا فائدة منه، وقد عين الإمام ناصر بن مرشد قائده علي بن أحمد والياً على جلفار، وكان لهذا التصرف أثره في استمرار حركة التحرير العمانية ضد البرتغاليين، فقد استطاع هذا القائد أن يكون جيشاً من أهالي المنطقة للاستيلاء على الحصن البرتغالي، ولم يكن أمام البرتغاليين إلا أن يسلموا الحصن[٧٤].

هذه الانتصارات شجعت الإمام على أن يواصل فتوحاته، وأن يبعث بقوة للاستيلاء على صحار فأعد حملة بقيادة حافظ بن سيف، وكان البرتغاليون يتمركزون في قلعة صحار، فأرسل حافظ بن سيف إلى القرى المجاورة وجمع جيشاً كبيراً، وتقدم إلى صحار التي سقطت في ٧ نوفمبر ١٦٤٣[٧٥].

لقد حاول اليعاربة بقيادة الإمام ناصر بن مرشد أن يولوا عناية كبيرة لفتح المنافذ البحرية لتجارتهم، ويبدو أن استيلاء البرتغاليين على الساحل العماني قد أصاب التجارة العمانية بأضرار بالغة.

لهذا السبب كلف الإمام أحد أفراد أسرته، وهو سلطان بن سيف، الذي سيصبح إماماً من بعده، وقام سلطان بعمليات عسكرية ناجحة لاستكمال السيطرة على الساحل العماني، فنجح في تحرير صور وقريات.

---

(٧٤) السالمي « الأب » التحفة جـ ٢ ص ١١.

(٧٥) Lorimer op. cit pp. 634-635.

وعندما توفي الإمام ناصر بن مرشد ١٦٤٨ كان قد تم إنجاز الجانب الأساسي لتصفية الوجود البرتغالي الذي انحصر في هذا الوقت في مسقط، وقد خلفه سلطان بن سيف ١٦٤٨ ـــ ١٦٨٨ الذي وجه نداء إلى كل قبائل عمان، لتتجمع لمحاربة البرتغاليين في مسقط، إلا أن البرتغاليين استعدوا لهذا الهجوم، وقد أخفقت محاولات الإمام سلطان بن سيف في دخول مسقط لكثرة الإحتياطات الدفاعية التي اتخذها البرتغاليون، واستمرت المعارك، وطال الحصار، وكاد اليأس يدب في قلب الإمام، لولا ما حدث من انشقاق بين البرتغاليين له قصة، من الأفضل تسجيلها:

كان لأحد الضباط المكلفين بالحراسة، ويدعى ناريتم، وهو من أصل هندي بنت على قدر عظيم من الجمال، وقد أعجب بها القائد البرتغالي، الذي طلب من أحد القساوسة أن يخطبها له، وقد رفض ناريتم، إلا أن القسيس قال إن لم توافق فسأزوجها له رغماً عنك، وبالقوة، ونصيحتي أن توافق، وهنا أدرك والد الفتاة أن الرفض ستكون عواقبه وخيمة، لذلك فكر في حيلة يتخلص بها من هذا المأزق، واهتدى خيراً.

فقال للقائد، أمهلني وقتاً حتى أستطيع أن أجهز ابنتي، فاستبشر القائد خيراً، ورفع مكانة ناريتم، وكان لا يصدر أمراً إلا بمشاورته، ولما رأى ناريتم نفوذه لدى القائد قال له: إن الماء الذي في الحصنين (الشرقي والغربي) قديم، وفيه دود، وأخشى أن يطول الحصار علينا من المسلمين، فالرأي تجديد الماء، وكذا البارود، فإنه قد فسد، والرأي تجديده، بالدق ثانية، كما أن مخزن القمح الذي لدينا أصاب التلف، وأصبح لا يصلح.

ونصيحتي لك أيها القائد تفريغ خزانات المياه، وتجديد الماء والاستغناء عن مخزون الذخيرة القديم، وتشييد بدلاً منه جديداً. وإعدام القمح ؟ لأنَّ به سوساً، وتخزين كمية جديدة بدلاً منه.

وقد أبدى القائد البرتغالي إعجابه بآرائه، وكلفه بتنفيذ ذلك، وبعد

أن نفذ ناريتم الجزء الأول من العملية، بعث برسالة إلى الإمام سلطان بن سيف، وأخبره بكل ما تم بينه وبين القائد البرتغالي وطلب منه أن يقوم بهجوم يوم الأحد؛ لأنه يوم عيد عند المسيحيين ويتركون سلاحهم وأماكنهم بسبب الإحتفالات، وأن النجاح سيحالفه، إذا هاجمهم في ذلك اليوم، كما أنه طلب منه أن يكون الهجوم على الحصون سريعاً، كما وضح له أنه سيتبادل معه الطلقات إلا أنها ستكون فاسدة؛ لأنه سيبللها بالخل، فلن تؤذي أحداً، وقد سعد الإمام بهذا الخبر، وأعلن موافقته لما طلب منه ناريتم.

وفي يوم الأحد تقدم الإمام بسرعة كبيرة على رأس قواته، حتى وصل إلى مسقط. وقد كانت خطة الهجوم بالإندفاع داخل الحصنين، وكانت هجمات العمانيين سريعة وعنيفة. وفي يناير ١٦٥٠ أرغم البرتغاليين على أن يسلموا نهائياً قلعتهم الأخيرة في عمان. أما الإمام، فقد كافأ ناريتم وأفراد أسرته فأعفاهم من الضرائب، تقديراً لخدماتهم، وعين الإمام ابنه بلعرب حاكماً على مسقط، بينما عاد هو إلى نزوى[٧٦].

نظام الدولة:

الحكومة هي المؤسسة التي تمثل « الإدارة السياسية » بما تحمل هذه العبارة من حق اتخاذ القرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

والإدارة السياسية غالباً ما تكون معبرة عن مصالح معينة، وغالباً ما تكون تعبيراً عن الطبقة العليا للمجتمع. ولم نجد في التاريخ أن

---

(٧٦) القصة موجودة في عدة مراجع، وقد أخذ فحواها من كتاب السالمي « الأب »: التحفة، جـ ٢، ص ٦٥ ـــ ٦٦، وصحيح أن القصة فيها بعض الخيال إلا أن الحقيقة التاريخية أن مسقط حررت في عهد الإمام سلطان بن سيف، من البرتغاليين، بغض النظر عن الخيال الموجود فيها، فما أجمل الأدب عندما يمتزج بالتاريخ.

حكومة معينة كانت ممثلة تمثيلاً صحيحاً لكل فئات الشعب لأنه دائماً يكون هناك تضارب مصالح، وهناك فرق شاسع بين ما يتمناه الغني، وما يتمناه الفقير إلى أن اهتدى الإنسان إلى حل وسط باختياره حل « حكومات الأغلبية » أي الحكومة التي تصل إلى الحكم بواسطة الأغلبية الشعبية.

وبالتالي هذا العرف السياسي انبثق منه تقليد يقول: الأقلية تخضع لقرارات الأغلبية. فالاستقراء للتاريخ يظهر لنا أنماطاً كثيرة من أنواع الحكم ابتداء من اسبرطة وأثينا إلى ما هو موجود حالياً من أنواع الديمقراطية. مروراً بالملكية التي هي كذلك أنواع منها الحكم المطلق، ومنها ظل الله في الأرض، ومنها الملك المستنير.

يهمنا هنا نظام الحكم في عمان، وعمان قد عرف أنواعاً كثيرة من أنماط الحكم، فإذا بدأنا قبيل العصر الإسلامي، فنجد الملكية المطلقة، وهي ما عرف بالتاريخ العماني دولة بني الجلندى، ثم تلتها الإمامة، وهي نوع مغاير للملكية من حيث التوارث، وفيها نوع من الحرية السياسية ضمن وجهاء القوم، وعلماء الدين، ثم رجعت الملكية مرة أخرى على يد بني نبهان، ثم نوع آخر من الإمامة مختلف عما عرفناه من الإمامة في العهد القديم، وهي الإمامة في العهد اليعربي، كما تطرقنا سابقاً. ثم دولة بني سعيد الذين تلقبوا بلقب سلطان، وكما يقول السالمي:[٧٧]

« توالت على قُطر عمان انقلابات من إمامة إلى ملكية ومن ملكية إلى إمامة، فمنذ انقطاع الخلافة العباسية تولى عمان أئمة على طريقة الخلفاء الراشدين، فمتى ضعفت الإمامة برزت إلى الميدان الملكية أو أمراء الطوائف، وهكذا: إلا أن الغالب عليه الإمامة، وكأنها الروح السائدة

---

(٧٧) السالمي « الأب »: التحفة، جـ ١، ص ١٠٧.

في سواد الأمة، ولاسيما العلماء. ولم يحكم هذا وعمان في يد أهله، حتى كان الاستقلال ممتزجاً بدماء أهله فرداً فرداً، يرى الموت أهون من أن يضيّع الأمر من يد قومه، بل يرى المذلة كفراً ». ومع أننا نختلف مع السالمي في قوله « لم يحكم عمان أجنبي عنه » حيث إن السالمي عاش إلى عصر السلطان فيصل بن تركي، في مطلع القرن العشرين، وكان الإنجليز مسيطرين على عمان، وكذلك قبلهم البرتغال، إلا أننا نجد عذراً للشيخ السالمي، لربما قصد بالحكم، السيطرة الكاملة على تراب عمان أجمع، وإذا عرفنا أن الإنجليز لم يتدخلوا في الشؤون الداخلية لعمان إلا عندما تتهدد مصالحهم، وكانوا حذرين جداً من التورط في الشؤون الداخلية، وإذا عرفنا أن الإنجليز قد حلوا كل مشكلاتهم من خلال شخصية السلطان، فلربما نجد عذراً للسالمي فيما قصد، حيث إنه من سكان عمان الداخل، هذا الجزء من تراب عمان كان صعب المنال، حيث التضاريس الطبيعية، والانحياز التام للفكر الأباضي، وعدم القبول والارتياح للأجنبي.

إن ما يهمنا هنا نظام الدولة في عصر اليعاربة. إن نظام الدولة في عهد اليعاربة، لا يختلف اختلافاً كثيراً عن نظام الدويلات الإسلامية حيث أن الدين الإسلامي هو الرافد الثقافي، وحيث إن الثقافة هي التي دائماً تنتج المفهوم السياسي. إن الفكر هو الأساس، والسياسة ما هي إلا انعكاس لهذا الفكر. فلا نجد شيئاً من الصعوبة لتفسير نظام الحكم في عصر اليعاربة، مع أن المراجع التي تصدت لهذا الموضوع نادرة(٧٨).

إن الدين الإسلامي دين لا يؤمن بالصراع الطبقي، وهو يفلسف الأمور بأن الحياة الدنيا غير مهمة، فكل ما حرم منه الإنسان في الحياة

---

(٧٨) اعتمدنا على المصادر العمانية، مثل مخطوطة، كشف الغمة، لسرحان بن سعيد، والفتح المبين في سيره السادة البوسعيديين، محمد بن رزيق، والتحفة للسالمي.

الدنيا سوف يجده في الآخرة إذا عمل صالحاً، فهناك الجنة، حيث الحوريات، وحيث الخمر جار كأنهار، كأن هذه المكافأة في الآخرة هي رأسمال الفقير، فالغني في الحياة الرأسمالية يحاول أن يجمع رأس المال، حتى يكون في مستوى معين، يستخدم الربح، حتى يحصل على ما يريد من رفاهية شخصية، ولو أن هناك أسباباً أخرى، لكن يهمنا هنا الجانب الشخصي، فالفقير في الفكر الإسلامي، إذا لم يجد رأس المال للحصول على الرفاهية الشخصية، فالأمر بسيط جداً أن يلتزم بمبادئ الإسلام، هذه المبادئ التي لم تحرضه على الثورة « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وبالتالي سوف يجد الرفاهية عند الممات » لهذا يكفي علماء الدين أن يفسروا الدين؛ ليخدم مصالح النظام، فيكفي أن يقول علماء الدين إن العصيان على الإمام كفر وضلال، وسوف يدخل النار من يعلن العصيان. حتى نجد من غالبية الشعب استجابة.

فعلماء الدين في النظام اليعربي يمثلون الزعامات الشعبية، ومجموع هذه الزعامات يمثلها الإمام، فالاحتكاك يكون بين علماء الدين وبين الإمام، هنا الشورى، هم يجتمعون، يناقشون ثم يتفقون ويعلنون للشعب بواسطة الإمام قراراتهم.

وحيث إن هذه القرارات من يطعها فسوف يدخل الجنة، ومن يعصيها فسوف يدخل النار، أو يقتل، فنجد غالبية الشعب ينصاع لهذه القرارات معلناً استحسانه بها.

وناصر بن مرشد، الإمام المؤسس من أسرة النباهنة، لم يكن رجل دين، وإنما كان أميراً منحدراً من أسرة حاكمة، تنتمي إلى أسرة النباهنة، التي يصفها مؤرخو عمان بأنهم حكام ظلمة، ومع هذا فقد استطاع هذا الرجل أن يؤسس دولة قوية استطاعت فعلاً أن توحد عمان، وتطرد الغازي، بل تكون امبراطورية عمان.

بل الأكثر من هذا شكل أسرة حاكمة تتوارث الحكم، خلافاً لما

يذهب المذهب الاباضي، فأسرة اليعاربة ملوك غير متوجين، واكتفى علماء الدين بلقب إمام، والمشاورة بينهم وبين الإمام، واكتفى الإمام بمشورة العلماء، واحترام المذهب الأباضي وتعاليمه.

إن المشكلة الأساسية التي تواجه الباحث في هذا المجال، للتصدي إلى نظام الدولة والحكم، غالباً ما تكون وجه نظر شخصية، حيث إن المصادر التي تتطرق إلى هذا الموضوع نادرة جداً ومبهمة وغير واضحة في بعض الأحيان، ومع هذا فوجود نص حول تعيين وال من قبل الإمام يعطينا صورة تقريبية لكيف تكون الصلاحية لهذا الوالي، وكيف علاقته مع الإمام ؟

عثورنا على طريقة اختيار الإمام من قبل رجال الدين، تعطينا مفتاحاً لدراسة علاقة رجال الدين مع الإمام. رجوع الإمام إلى القاضي في بعض الأمور تعطينا كيف تقوم العلاقة بين القاضي وبين الإمام. خطبة الجمعة مثلاً في عهد الإمام تعطينا ما المشكلات السياسية التي تواجه النظام. خصوصاً إذا عرفنا أن الخطبة في يوم الجمعة عبارة عن محاضرة سياسية. عزل أحد الولاة يعطينا كيف تكون صلاحية الإمام. نصيحة من أحد علماء الدين إلى الإمام تعطينا كيف يفكر رجال الدين، تشييد حصن أو هدمه يعطينا وجهة النظر العسكرية، القيام بغزوة سواء محلية أو خارجية تعطينا التكتيك العسكري، وكيف نظام الجيش، ذكر منع الولاة من المتاجرة، تعطينا المفهوم الديني للتجارة، اهتمام أحد الأئمة بالناحية الزراعية تعطينا نوع الاقتصاد. رسالة من أحد علماء الدين للإمام حول التعليم نستشف منها طريقة التعليم، وكذلك على الباحث أن يقرأ ويحلل ويأتي برأيه، ومع هذا، فالمؤرخ لا يخلق شيئاً من العدم، ولكن يستطيع أن يستفيد من كتابات قليلة ؟ ليصل إلى كيفية نمط الحكم. فما الادارة السياسية في العهد اليعربي ؟ تتشكل الإدارة السياسية في دولة اليعاربة من:

أ) المجلس الأعلى، ويضم الإمام، ورجال الدين، ووجهاء البلد.
ب) الولاة.
جـ) القضاة.

يقول السالمي (الابن):

« نظام الحكم في الداخل الشريعة المحمدية يسير إمامهم بسيرة الخلفاء الراشدين المهديين، ينظر أهل الحل والعقد من رجال العلماء وقت استطاعتهم للظهور، فيختارون من تتوفر فيه الكفاية والشروط المطلوبة، يبايعونه على طاعة الله وطاعة رسوله محمد ﷺ، غير ناظرين في ذلك إلى بيت أو قبيلة، بل إلى ما في الشخص من الروح والمقدرة والكفاية، والقصد من ذلك توجيه الأمة إلى الصلاح وإبعادهم عن الشر، والسير فيهم بأوامر دينهم، ويستندون في ذلك إلى قاعدة وضعها القرآن الكريم ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ فإن قام بالشروط على النهج، ولم يخالف العلماء، ولم يرتكب محظوراً، فعليهم طاعته، وكان ولياً مقدساً عندهم، وإن خالف وتعدى خلع ورفض وقدموا غيره، ولا يقبلون ولاية عهد يجعلها الأول لابنه وأخيه؛ إذ ليس المسلمون قطيع غنم، فيورث، إنما عملهم وأسلوبهم على وفق الصدر الأول من الإسلام، وهو الدستور الإسلامي منذ فجر التاريخ، وهو نظام الأمة المعهود في الشريعة الإسلامية الموجودة في كتب الفقه، ولا يبقون به بديلاً. ومجلسها يتألف من كبار رجال العلماء وعظماء الدولة، ومتى حدث طارق بهم اجتمع معهم الزعماء والرؤساء من المقاطعات.

النظام الإداري تابع له، سواء كان الأمر سياسياً أو مالياً كجباة الخراج والجندية والشرطة والعمال والقضاة.

نظام الجندية، الشعب كله جند حربي بطبعه، لا يبلغ الفرد منهم الحلم حتى يكون قد أتقن عن أبيه العمل بالسلاح، كما كانوا عليه قبل ظهور الإمامة من الفتن والسعايات، فصار مألوفاً عندهم حمل

السلاح، ويعد ناقصاً من أهمل حمله في كل ساعة، اللهم إلا شيخ علم أو أعمى أو عاجز على أن شيخ العلم يحمله عند الحاجة بلا مراجعة يلقب حاكمهم بإمام المسلمين »[٧٩].

ماذا نفهم من هذا النص، صحيح أن هذا النص متأخر، ولا يعالج عهد اليعاربة، وإنما يعالج الاختلاف بين الإمامة والسلطنة في عهد البوسعيد إلا أن معرفتنا بهذا الكاتب وبثقافته الدينية، ومتابعته للأمور خصوصاً أن المذكور كان له كذلك دور مهم في الحركة الدينية في عمان، وإذا عرفنا أنه كان بمنزلة السكرتير لوالده السالمي (الضرير)، وكذلك كان كاتباً للإمام سالم بن راشد الخروصي[٨٠].

فهذا يعني أنه مطلع على الفكر الاباضي والتطور التاريخي لنظام الإمامة، ولهذا نعتقد أن ما كتبه السالمي (الابن) لا يخرج عن المفهوم العام. فماذا نفهم من هذا النص. ؟

إننا نفهم أن رأس الدولة هو الإمام، وهو يسير على سيرة الخلفاء الراشدين، وهذا يعني أن الإمام له كل صلاحيات الخلفاء الراشدين من قيادة الأمة للصلاح وأبعادها عن الشر والسير فيهم بأوامر دينهم.

كما نفهم كذلك أن النظام الإداري سواء كان الأمر سياسياً أو مالياً أو عسكرياً تابع للإمام، وأن رجال الدين يشكلون مجلساً ليس فقط للمشاورة، وإنما كذلك للمراقبة، فإن قام الإمام بالشروط أطاعوه، وإن هو خالف خلعوه.

إن مجلس الإمامة يتألف من كبار العلماء « أي رجال الدين »، وعظماء الدولة، ـــ ويقصد بعظماء الدولة الأمراء ـــ أهل التأثير والنفوذ

(٧٩) السالمي « الإبن »: النهضة، ص ٦٢.

(٨٠) ملاحظاتي الشخصية عند زيارة الشيخ السالمي « الإبن » في منطقة بدية، سنة ١٩٧٠.

المباشر، أما الزعماء والرؤساء، فإنهم أمراء القبائل الصغيرة والبعيدة عن عاصمة الحكم.

وإذا ما حدث حادث يتطلب ترتيبات أكبر من طاقة هذا المجلس، مثل إعلان الحرب، فيستدعي لذلك بالإضافة إلى رجال الدين، وعظماء الدولة، الزعماء والرؤساء.

وإن دستورهم هو دستور الإسلام ؟ أي الكتاب والسنة، وإذا تركنا هذا النص، وحاولنا أن نفهم أبعد من النص، فيبدو أن نظام الحكم في العهد اليعربي شبيه بالمرحلة الإقطاعية أو الدولة الإقطاعية إذا جاز هذا التعبير الذي يعتمد على رجالات الإقطاع الذين يملكون إقطاعيات تقيم من خلال صغرها وكبرها غناها وفقرها. يجتمعون بقلعة معينة، رئيس الإقطاعية هو رئيس القبيلة، هناك إقطاع كبير يقود، وبقية رجالات الإقطاع والإقطاعيين متحالفون مع هذا الإقطاعي الكبير، يدعوهم عند الحاجة فيلبوا الدعوة، ثم بعد ذلك يرجعون إلى إقطاعياتهم ليمارسوا الحكم الذاتي. مجموع رجالات الإقطاع يمثلون في الغالب الولاة، فما صلاحيات هؤلاء الولاة ؟

قبل أن نتطرق لهذا الموضوع لنقرأ هذا النص: —

« أما بعد، فهذا ما يقوله المعتصم بالله المتوكل عليه ناصر بن مرشد.. إلى الشيخ أبي الحسن، علي بن أحمد بن عمر بن عثمان رحمه الله، فإني أحمد إليك الله، الذي لا إله إلا هو، وأوصيك ونفسي وجميع المسلمين بتقوى الله، واللزوم على طاعته، فأقول يا أبا الحسن: إني قد وليتك على قرية لوى من الباطنة وما حولها، وما يشتمل عليها من بلدان الباطنة، وحتى ديار الجدان والجو وناجوان، حتى حزان، ودما وما يشتمل على هذه القرى والبلدان، وما فيهن وما بينهن من المزارع والأطوى وجميع الأماكن أن تأمر في هذه القرى والبلدان: باديهم وحاضرهم وعبدهم وحرهم وصغيرهم وكبيرهم وغنيهم وفقيرهم

بالعدل والمعروف، وتنهاهم عن المنكر المخوف، وأن تعمل فيهم بكتاب الله المستبين وتحيي فيهم سنة النبي الأمين، وآثار الأئمة المهتدين وسيرة القادة المخلصين الذين جعلهم الله منار الهدى، وقادة الناس إلى التقوى، وأورثهم الكتاب والسنة يدعون إلى طريق الجنة، وأن توالي في الله، وتعادي فيه، ولا تأخذك في ذلك رأفة ولا رحمة ولا تخف في الله لومة لائم، ولا عدل مجرم آثم، وأن تخلط الشدة باللين، وأن تخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين، وأن تعرف لكل امرئ حقه وتوفيه كاملاً، وتؤتي ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله، وأولئك هم المفلحون. فالله الله يا أبا الحسن في اقتراف الحسنات وإنكار المنكرات، بغير تجاوز منك إلى غير واجب أوجبه الله في الجد والتشمير وترك التهاون والتقصير وأن تجتهد كل الجهد في إصلاح أهل ولايتك، وإصلاح أفلاجهم وعمارة مساجدهم والصفح عن مسيئهم والتجاوز عن سيئاتهم، ما وسعك من ذلك، وأن تقبض زكواتهم من أغنيائهم بحقها، وتجعلها في أهلها من فقرائهم وضعفائهم بعدلها، طيبة نفس معطيها إلا من وجب جبرة، ولا يخفى عليك، إن شاء الله، فالله الله يا أبا الحسن في التفحص عن فقيرهم وضعيفهم من جميع أماكن ولايتك لتساويهم من مال الله ما وسعك من ذلك، ولا تدعهم يتعسفون إليك من السغب والعري، واجعل لهم أعواناً من إخوانك ليتفحصوا عنهم، فإن كثيراً من الفقراء يقصر عن المجيء إليك من حياء أو ضعف، فيقف عنك، وهي في ضرر عظيم من شدة فقره وفاقته، وقد جعلت لك يا أبا الحسن أن تعامل على صوافي ولايتك بمزارعة أو مقادة، وقبض غوالها ووضعها في موضعها ما وسعك من ذلك، وقد جعلت لك أن تنفق على الشراة، ومن وضع نفسه معك من أهل القرى من مال المسلمين على قدر ما تراه عدلاً. وقد جعلت لك حبس من يجب من أهل الأحداث والحقوق على ما تراه عدلاً، مما حفظته من آثار المسلمين من غير حيف ولا ميل

لأحد. وقد جعلت لك إطعام الضيف النازل على قدر ما تراه عدلاً من آثار المسلمين، ولا تأتمن على ما ائتمنك عليه من أمانتي التي أنا أمين لله فيها إلا من هو حقيق بذلك، في دين المسلمين، وقد جعلت لك حماية البلاد والذود عنها، وعن الحريم والعباد، وألزمت جميع أهل القرى طاعتك، وحجرت عليهم معصيتك، ما أطعت الله ورسوله فيهم وقعت بما شرطته عليك في عهدي هذا إليك، فإن خالفت إلى غيرما أمرتك به، فأنا ومال المسلمين بريئان منك، وأنت المأخوذ به في نفسك ومالك. واعلم أنه لا أثرة عندي لظالم، ولا حيف عندي لمسلم، بل إرادتي إعزاز دين الله عز .وجل، وإحياء سنن النبي المرسل، وإظهار دعوة المسلمين، والأخذ على أيدي الظالمين، وإخماد كلمة المعتدين، وكسر شوكتهم، وإطفاء بدعتهم وتفريق جماعتهم التي يجتمعون فيها على الحرام، والخوض في الآثام، وانتهاك عظيمات الأمور ما استطعت إلى ذلك، فالله الله يا أبا الحسن، اتق الله حق تقاته، وخفه حق الخوف ما استطعت إلى ذلك، واصبر وما صبرك إلا بالله، ولا تحزن عليهم، **﴿ولا تكن في ضيق مما يمكرون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾**، وصلى الله على رسوله محمد، وآله وسلم تسليماً. وكان الكتاب عشية الأحد لخمس ليال بقين من شهر ذي الحجة من خمسين وألف من الهجرة النبوية. كتبه الإمام ناصر بن مرشد بيده »[٨١].

وقد تضمن كتاب السالمي « الأب »[٨٢] عدة عهود ونصوص موجهة من الإمام إلى الولاة وهي عبارة عن نصائح وتوضيح لمهمة الوالي. كما أننا نجد رسائل تنص على عزل الولاة، كما إن هناك رسائل أخرى تنصح بعدم جمع منصب الوالي واشتغاله بالتجارة، ومن

(٨١) السالمي « الأب »: التحفة، جـ ٢، ص ٢٦ — ٢٩.
(٨٢) لمزيد من المعلومات حول هذه القضية أنظر السالمي « الأب »: التحفة، جـ ٢، ص ٢٦ — ٣٦.

قراءة العهود والنصوص والرسائل التي كتبها أئمة اليعاربة على والي ولاتهم يتضح الآتي:

أولاً: أن الوالي يتمتع بكل صلاحيات الإمام في نطاق ولايته، وهذا تخويل من الإمام للوالي وتشمل هذه الصلاحيات المجالات الإدارية والمالية والعسكرية.

ثانياً: يوجد في منطقة الوالي « جماعة من الشراة » تراقب الوالي، وتشرف على أعماله، وهو بذلك يخضع لرقابة محلية شبيهة بتلك التي خضع لها الإمام في مركزه، وأن هذه المراقبة لا تحد من صلاحياته، ولكن تساعده على عدم الإنحراف، وتطبيق مفاهيم الشريعة الإسلامية.

ثالثاً: مقر الوالي، فيكون حصناً أو قلعة.

رابعاً: يتقاضى الوالي راتباً أو مكافأة، ويحق له أن يفتح مضيفاً، يستضيف فيه رجالات الدولة، أو الضيوف، ويصرف عليه من مال الخزانة العامة.

خامساً: يكون له جهاز « عيون » ما يعرف الآن بالمخابرات، يتعرف من خلاله على أحوال الرعية، وخصوصاً في تطبيق فريضة الزكاة وإنفاقها.

النظام العسكري:

اهتم أئمة اليعاربة في النظام العسكري فكان لهم ما يشبه الجيش الثابت يتقاضى رواتب منتظمة، مهمته الأساسية الدفاع عن البلاد.

إلا أنه في حالة الحرب، فإن القبائل كانت تنخرط في سلك الجيش، لتكون قوة كبيرة هي سند الدولة الأساسي في حروبها مع أعدائها.

وقد اعتمد الأئمة اليعاربة في حروبهم على أبناء القبائل، وكان نظام الجيش يشبه إلى حد كبير النظام الإقطاعي الذي كان معروفاً في العصور

الوسطى، فعندما تتعرض إحدى المقاطعات في البلاد إلى اضطراب داخلي أو خطر خارجي، يطلب الإمام من ولاة المقاطعات، وشيوخ القبائل وأعيان البلاد إمداده بما يلزم من القوات اللازمة؛ لصد ذلك الخطر، ويساهم أفراد هذه المجموعات كل منهم بالسلاح الذي تدرب عليه منذ الصغر. وكان الشيوخ والرؤساء يؤكدون ولاءهم للإمام باشتراكهم في دفع الخطر، وكان الأئمة من جانبهم يحرصون على تقديم مكافآت للرؤساء، وشيوخ القبائل، الذين يسهمون في ذلك إلى جانب الهدايا مع إعفائهم في بعض الأحيان من ضريبة « العشور » التي كانت تفرض على إنتاج أراضيهم.

أما الغنائم، التي يحصل عليها من الحروب، فكانت تقسم عادة بين القوات التي اشتركت في القتال، هذا بالإضافة إلى قدر من المال يوزع يومياً كراتب للجنود، بالإضافة إلى مكافأة يحصل عليها المحارب في نهاية الحرب، وهذه المكافأة تتوقف قيمتها على مرتبة الشخص، وعلى مقدار ما بذله من جهود وتضحية في القتال، وفيما يبدو أن الأئمة قد رأوا أن هذه الطريقة تخفف عليهم عبء تكوين جيش دائم في البلاد[٨٣].

القلاع[٨٤]:

القلعة أو الحصن هي انبثاق الفكر العسكري، وهناك خطأ شائع أن القلاع في عمان بناها البرتغاليون، والحقيقة لا توجد سوى ثلاث قلاع برتغالية في جميع أنحاء البلاد، اثنتين في مسقط، وواحدة في مطرح.

وتعد القلاع والحصون في عمان من أعظم آثارها المعمارية. وتتراوح

(٨٣) قاسم جمال زكريا: دولة، بوسعيد، ص ٦٣.

(٨٤) كل المعلومات حول القلاع مستمدة من وثائق المتحف الوطني بمسقط، بالإضافة إلى مشاهداتي الخاصة عند زيارتي لعمان.

القلاع الرئيسة بين مباني ضخمة، مثل قلعة بهلا والرستاق، وبين قصور محصنة، مثل الحزم وجبرين، التي شيدت أصلاً لتكون مقراً للحاكم، كما تنتشر القلاع الأصغر حجماً في كل قرية ومدينة تقريباً.

وقلعة نزوى هي بغير شك أكثر القلاع مناعة وضخامة، وقد أقيمت على أرض منبسطة دون أي مزايا طبيعية، حيث يرتفع برج دائري، يبلغ قطره أربعين متراً، مصنوع من الحجر إلى ارتفاع عشرين متراً، وقد شيدت قلعة نزوى بوساطة الإمام سلطان بن يوسف، واستغرق بناؤها اثني عشر عاماً.

أما قلعة جبرين، التي تقع على بعد ٢٠ كيلومتراً جنوب غربي بهلا، فلم تشيد أصلاً كقلعة، وإنما كقصر للإمام، وقد بنى الجزء الرئيسي من البناء بوساطة الإمام بلعرب بن سلطان، وعاش ودفن فيها. وكانت جبرين في المرحلة الأولى من تشييدها، وتتكون من بنائين منفصلين، ثم وصل البناءان في مرحلة ثانية، وسدت النوافذ والأبواب الخارجية، وأقيمت الأبراج في الزوايا، ويتجلى روعة وجمال جبرين في الجزء الأول من القصر، الذي يضارع القصور المبنية في الفترة نفسها في الهند وإيران.

ويبلغ طول غرف الاستقبال الرئيسية ١٢ متراً، أما جدرانها، فترتفع ستة أمتار حتى السقف المزخرف. والمصنوع من خشب الصندل، وتتميز زخرفة السقف برسوم ونقوش بديعة ذات الطراز العربي وأبرز ما يميز جبرين هو تلك الدقة في التفاصيل كافة من الرسوم والنقوش والطلاء والألوان حتى الحفر على الأبواب والقطع المعدنية التي تغطيها.

أما قلعة الحزم التي تقع قرب الرستاق فقد بناها الإمام اليعربي سلطان بن سيف الذي حكم خلال الفترة ١٧٠٦ ــ ١٧١٩، وعلى خلاف جبرين، فإن الحزم بنيت أصلاً لتكون حصناً قوياً ومقراً للحاكم في الوقت نفسه، وترتفع جدرانها الضخمة إلى علو شاهق كما أن تصميمها

الخارجي الذي يشبه جيرين، قد روعي فيها إطلاق النيران من برجي المدفعية، وتتميز سقوف غرف الاستقبال الرئيسية بالزخارف والنقوش البديعة، وقد زود أحد أبراجها بخمسة مدافع برتغالية وإسبانية ضخمة، وقد نقلت هذه المدافع، التي كانت موجودة أصلاً في قلعة الميراني إلى الحزم، خلال القرن الماضي، ومعروضة الآن في المتحف الوطني العماني في مسقط.

أما قلعة الجلالي، فقد بناها البرتغاليون في مسقط، وقلما يوجد ركن في مسقط لا يمكن رؤية إحدى أو كلتا هاتين القلعتين، وهذا أمر يشهد بمهارة البرتغاليين العسكرية. وقد كان القصد من ذلك السيطرة والإشراف على المدينة، وحمايتها في الوقت نفسه.

وأكبر هاتين القلعتين مبنية على صخرة شديدة الإنحدار فوق المدينة، وتعرف باسم قلعة ميراني، وتوجد كتابة فوق بوابتها باللغة البرتغالية القديمة تتحدث عن أصلها:

« في ظل حكم فيليب الرفيع الشأن والعظيم القوة، صاحب الاسم الأول سيدنا ومليكنا في العام الثامن من ملكه، تحت التاج البرتغالي، أصدر أمراً بواسطة « دوم دوارتي، دي متريس » نائب الملك، وحاكم الهند، ببناء القلعة الذي قام به « بلكيور كالاتشا » أول قائد لها ومؤسسها في عام ١٥٨٨ »[٨٥].

وما زالت قلعة الميراني التي كانت تعرف أصلاً باسم قلعة « كابيتاد » ربما بالنسبة إلى اسم القبطان الذي بناها، تحتفظ بمدفع حديدي يعود تاريخه إلى أيام الإحتلال البرتغالي. ومن على جدرانها يؤدي مدفع مماثل التحية للسفن الزائرة من الأساطيل البحرية الأجنبية التي تزور عمان.

وتواجه قلعة ميراني قلعة جلالي التي تم بناؤها قبل عام، من بناء

(٨٥) سلطنة عمان، إصدار وزارة الإعلام العمانية، ص ١٠.

شقيقتها عام ١٥٨٧، ربما بوساطة بلكيور كالاتشا نفسه، وأطلق عليها عندئذٍ اسم قلعة « سانت خوان » وقد استعملت قلعة جلالي كسجن، إنما يجري التخطيط لاستعمالها لأغراض أكثر بهجة وسعادة.

أما الأسطول اليعربي، فقد بدأ ينمو ضمن الظروف، وخصوصاً عندما سقطت مسقط ١٦٥٠ على يد الإمام سلطان بن سيف، فقد بلغ النشاط البحري أوجه خلال حكم هذا الإمام، الذي كان يمتلك شخصياً ٢٤ سفينة كبيرة، و ٢٨ سفينة صغيرة يحمل أكبرها ٨٠ مدفعاً[٨٦] هذا بالإضافة إلى السفن التجارية الأخرى، التي لن تكون بعيدة كل البعد عن الإستراتيجية الحربية متى دعت الضرورة.

التعليم في عهد اليعاربة

لم يكن حظ عمان من العلم قليلاً، فلقد اهتم العمانيون بالثقافة الدينية الإسلامية، وقد كان لهم مؤلفات ترجع إلى القرن الثاني الإسلامي[٨٧] كما أن الشيخ خلف بن سنان الغافري قاضي الإمام سيف بن سلطان كانت له مكتبة تحتوي على ثلاثمائة وسبعين مخطوطة[٨٨].

لنا كتب في كل فن كأنها	جنان بها من كل ما تشتهي النفس
جرى حبها مني ومن كل عالم	ذكي الحجي والفهم حيث جرى النفس
فلا ابتغي ما عشت خلاً مؤانسا	سواها فنعم الخل لي وهي الأنس
ولست أرجو أن يفوز بمثلها	على غابر الأيام جن ولا أنس
ثلاث مئين ثم سبعون عدها	وتسعة آلاف لها ثمن بخس[٨٩]

(٨٦) الأسطول اليعربي، متحف عمان الوطني، مسقط، واعتقد أنه رقي مبالغ فيه.
(٨٧) مثل المدونة الكبرى والصغرى، لأبي غانم الخراساني، ومدونة جابر بن زيد.
(٨٨) سالم الحارثي: العقود الفضية في أصول الأباضية؛ ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦.
(٨٩) إن الشطر الأخير لا يضيف رقماً جديداً ولربى لمنها، ومهما كان لا يريد أن يبيعها.

كان الأمر هكذا، فينبغي لإمام المسلمين أن يجعل في كل حصن من حصون مملكته.. معلما »[٩٠].

لقد أثرت نصيحة هذا الرجل في نفس الإمام، فتلقاها بالقبول والتبجيل، وشرع في العمل على تنفيذها، ولا شك أن الظروف قد أتاحت للإمام بلعرب ثالث الأئمة اليعربية، ما لم تتح لأسلافه لبذل الجهود في هذا الميدان، وذلك أن أولهم ناصر بن مرشد قد صرف كل جهوده لتأسيس الدولة، سواء بطرد الخطر البرتغالي، أو بتدعيم الوحدة الوطنية.

وثانيهم سلطان قد انشغل بتعقب البرتغاليين وإنشاء الامبراطورية العمانية، وجاء بلعرب تساعده الظروف للقيام بهذا العمل البناء، ظروف الإستقرار في الداخل، وزوال مخاطر التهديد من الخارج.

يقول السالمي: إن الإمام بلعرب كان يخدم الطلاب ومعلميهم بنفسه؛ إذ كان يتحرى لهم الأطعمة المقوية للأفهام والذكاء وقد تخرج في هذه المدرسة التي ألحقت في حصن جبرين ما يقارب الخمسين عالماً كلهم أهل اجتهاد وأهل إفتاء بالرأي بالإضافة إلى الشعراء والأدباء، وعلى رأسهم الشاعر الكبير الحبس[٩١].

سقوط الدولة:

تضافرت مجموعة: أسباب للإجهاز على دولة اليعاربة في كل من عمان وشرقي أفريقيا خلال أربعينات القرن الثامن عشر، وقد تمثلت أهم تلك الأسباب في الصراعات الداخلية، التي واجهتها البلاد من ناحية، وما تعرضت لها من غزو جيرانها « الفرس » كنتيجة لهذه الصراعات من ناحية أخرى، وكان تدخل الفرس، للأسف، بطلب من بعض قادة عمان.

(٩٠) السالمي « الأب » التحفة جـ ٢ ص ٨١ ــ ٨٤.

(٩١) نفس المصدر ص ٨٥ ــ ٨٦.

لم يمضِ وقت طويل على وفاة الإمام سلطان بن سيف الثاني (١٧١١ ــ ١٧١٨م) (١١٢٣ ــ ١١٣١هـ) حتى عادت عمان تواجه وضعاً قريباً من أوضاعها قبل قيام دولة اليعاربة متمثلاً في ذلك الإنقسام الذي أخذت تواجهه البلاد؛ إذ اختلف الناس على من يخلف الإمام، فقد فضل بعضهم ابنه سيف ابن سلطان الثاني، وفضل آخرون مهنا بن سلطان، ولقد تغلب أصحاب الإختيار الثاني كما ذكرنا، ولكن لم يمضِ وقت وجيز حتى نشبت الصراعات بين الفريقين، مما أدى إلى قتل الإمام الجديد بعد عام من ولايته.

وانتهى الخلاف باختيار شخص ثالث هو يعرب بن بلعرب، إلا أن أهالي الرستاق ظلوا يفضلون سيف بن سلطان الثاني، مما اضطر الإمام يعرب إلى التنازل.

ولم تمض فترة طويلة على اختيار سيف بن سلطان الثاني إماماً حتى بدأت عمان تواجه فترة من أصعب فتراتها، شهدت خلالها من الانقسام ما يمكن أن نعده حقيقة بداية النهاية لدولة اليعاربة، وفي أثناء هذا الصراع على الحكم وقع انقسام أنتج تكتلات قبلية، فظهر تكتل الغافرية[٩٢]، وتكتل الهناوية[٩٣].

أدى هذا الانقسام إلى حروب أهلية عنيفة، وقتل عدد كبير من زعماء الطائفتين، ففضل أهل عمان الإلتفاف من جديد حول سيف بن سلطان الثاني، ولكن ظهر له منافس جديد هو بلعرب بن حمير، فتجددت الحرب الأهلية، واتجه سيف بن سلطان الثاني إلى الفرس بطلب المعونة، وكان خطأً فاحش لأن حاكم إيران بذلك الوقت، وهو نادر شاه، كان طموحاً للتوسع والسيطرة على الشعوب المجاورة[٩٤].

---

(٩٢) نسبة إلى محمد بن ناصر الغافري.

(٩٣) نسبة إلى خلف بن مبارك الهناوي، الملقب بالقصير.

(٩٤) صلاح العقاد: التيارات السياسية، ص ٥٠.

تمكن نادر شاه من نقل قوات كبيرة إلى عمان ١٧٣٩، واحتلت الساحل، بل وصلت إلى مدينة نزوى، وقد ندم سيف بن سلطان الثاني على ذلك، حيث اكتشف أن الفرس لا يعملون لصالحه، وتفاهم مع بلعرب بن حمير، وتم الإتفاق على أن يتنازل الأخير، وفي تلك الأثناء ظهر منافس جديد، هو سلطان بن مرشد.

طلب مرة ثانية سيف بن سلطان الثاني الفرس، ومرة ثانية نكث الفرس بوعودهم، إلا أن سيفا لم يعمر طويلاً، كما قتل منافسه سلطان بن مرشد في الحرب ضد الفرس، وخلا الميدان لأحمد بن سعيد حاكم صحار. الذي سيؤسس أسرة حاكمة جديدة استمرت إلى يومنا هذا (١٩٨٩).

عمان في عصر البوسعيد
١٧٤٤ ــ ١٩١٣

هذه الأسرة التي ورثت اليعاربة، بامتدادهم الخليجي والأفريقي، كان عليها أن تفهم التطور التاريخي ولعبة الأمم، حتى تستطيع على الأقل الحفاظ على قواها الذاتية، ولكن الإمبريالية كانت أقوى وأفهم حتى من كل الأشخاص الذين فهموا لعبة الأمم، وحاولوا أن يلعبوها بحذر.

إن أفرادا من هذه الأسرة حاولوا أن يخلقوا من عمان دولة قوية تنافس الدولة الإمبريالية في المنطقة، وهذا عكس مصالح هذه الدول، كما أن بعضا من أفراد هذه الأسرة خضعوا للسيطرة الأجنبية وبالأخص بريطانيا. لقد حاول بعضهم التصدي للسيطرة الأجنبية في بادئ الأمر، وعندما فهموا أن كرسي الحكم يبقى بقدر ما يحافظ على العلاقات الودية بينه وبين الدول الامبريالية حافظوا على كرسي الحكم والعلاقات الطيبة مع هذه الدولة.

أقوى الشخصيات في هذه الأسرة ثلاثة، الإمام أحمد بن سعيد، مؤسس هذه العائلة وسعيد بن سلطان، الذي حاول أن يتفهم لعبة الأمم، والسلطان فيصل بن تركي آخر السلاطين البوسعيدين، في الفترة الزمنية التي نعالجها. لقد حاول فيصل بن تركي أن يجبر التنافس الدولي لصالحه، ولكنه ذهب ضحية هذا التنافس.

في عهد هذه الأسرة انقسمت عمان إلى ساحل وداخل، ولو أن الإنقسام الأول، ثم في نهاية دولة اليعاربة، حيث الإمام سلطان بن سيف كان يحكم في الساحل، بينما بلعرب بن حمير يحكم في الداخل. ولكن في عهد الأسرة البوسعيدية انقسم عمان انقساماً نهائياً، وبرز في المجتمع العماني، تياران سياسيان لكل منهما نمط تفكيره، وحتى نمط إنتاجه المختلفان، فقد استقرت البرجوازية العمانية بالساحل، بينما الإقطاع قبع بالداخل.

بل أكثر من ذلك، انفصل عمان السياسي عن عمان الطبيعي، لقد كان عمان يشمل المنطقة التي تبدأ من ظفار إلى قطر، ولكن في عهد هذه الأسرة حددت عمان من ظفار إلى رؤوس الجبال، وهذا يتوافق مع أول معاهدة بريطانية عمانية (١٧٩٨ ــ ١٨٠٠م)، حيث عد شيوخ القبائل العمانية القاطنة على ساحل الخليج أن هذا عمل مخالف للدين، حيث التحالف مع (الكفار)، وكان بداية لنشوء الإمارات الخليجية، ومع هذا فلم يطبق الانفصال السياسي عن الجغرافي، إلا من خلال معاهدات لاحقة بين أمراء الخليج من ناحية، وبريطانيا من ناحية أخرى، تكفلت الأخيرة بحمايتهم ما داموا يحافظون على العلاقات الودية والصداقة مع بريطانيا.

ولهذا نلاحظ أن النفوذ السياسي حتى زيارة بلجريف Palgrve (١٨٦٢ ــ ١٨٦٣) إلى عمان يشمل من ظفار إلى قطر[٩٥] إلا أن العهد البوسعيدي في عمان نستطيع أن نقول عنه: إنه عهد العلاقات الأوروبية العمانية، حيث عقد أول اتفاق بين انجلترا وعمان في ١٧٩٨، هذه الإتفاقية التي فتحت الباب على مصراعيه للعلاقات الأوروبية، وأصبح بعض أفراد هذه العائلة أصدقاء لانجلترا، يعتمدون عليهم في مساندتهم

---

(٩٥) PALGRAVE Central and Easter Acairla Vol. I, voire le carte London 1865.

للبقاء في الحكم، حتى لو كانت هذه المساندة على حساب الوطن، أو على حساب الشعب.

سقوط دولة اليعاربة وانتقال الحكم إلى دولة آل بوسعيد

تمخض احتلال الفرس عن إفراز زعيم جديد للبلاد، قام ليسترد لها استقلالها وسيادتها ويعيد لها امبراطوريتها وما ضاع من نفوذها في الخليج، وليعمل على تحقيق الوحدة الوطنية، هو أحمد سعيد البوسعيدي[٩٦].

لقد دب الشقاق بين عائلة اليعاربة في آخر زمانهم، مما اضطر سيف بن سلطان أن يستنجد بالفرس الذين استغلوا هذا الموقف؛ ليحولوا النجدة إلى احتلال عمان. ضمن هذه الظروف ظهر أحمد بن سعيد، ولوصوله للحكم قصة تروى[٩٧]:

عندما توفي الإمام سيف بن سلطان، بعث الفرس رسولاً إلى الحزم؛ ليأتيهم برجل من اليعاربة، حتى يتدارسوا الأمر معه، كان أقرب الأشخاص إلى الأمام سيف هو ماجد بن سلطان، فلما وصل ماجد إلى مسقط، أعطاه الفرس كتاباً إلى الشاه، وأمروه بأن يذهب إلى العاصمة الإيرانية، حتى يأتي بخطاب من الشاه، بتسليم المعاقل التي في أيدي الفرس له، وذهب ماجد من مسقط إلى شيراز، ووفق في مقابلة الشاه، وأعطاه الشاه خطاباً بتسليم المعاقل له، ولسوء حظ ماجد فقد رست سفينته عند العودة في ميناء صحار بدلاً من الذهاب إلى مسقط، وذلك بسبب الأجواء البحرية، وعندها وقع في يد أحمد بن سعيد الذي أخذ الكتاب،

---

(٩٦) يقول أمين سعيد إن الإمام أحمد سعيد البوسعيدي، مؤسس هده الأسرة بدأ راعياً يرعى الإبل في مدينة « ادم ». أمين سعيد: الخليج العربي، ص ٤٥.

(٩٧) ابن رزيق: المرجع السابق، صحيفة ٢٤٧ وما بعدها.

وأرسل إلى مسقط خميس بن سالم البوسعيدي، وذهب خميس ومعه أربعمائة رجل، فلما وصل الفرس إلى مسقط وأعطاهم الكتاب، ظنوا أنه رجل من جماعة ماجد بن سلطان، أو لعل خميساً أفهمهم أنه مندوب من ماجد بن سلطان، فسلموا له المعاقل. كتب خميس رسالة إلى أحمد بن سعيد يخبره بها أنه استلم المعاقل.

فبعث أحمد بن سعيد إلى خميس أن يأتيه بالعجم إلى مدينة « بركة »، وكان أحمد يدبر مؤامرة لقتلهم، أمر أحمد كل الناس القاطنين مدينة بركة أن يقوموا بالضيافة للعجم، بل أجبرهم على ذلك، وكان القصد من وراء ذلك العمل أن يستفز الناس ضد الفرس، وكان كلام الناس في هذه اللحظة، أن العجم لا يستحقون كل هذا، ولكن يستحقون أن تضرب أعناقهم بالسيوف.

نصب أحمد الخيام، وقام بالضيافة العربية، وخيم العجم ثلاثة أيام في بركة، ثم دعاهم لزيارة الحصن، وكما يقول ابن رزيق: « دخل أكابرهم الحصن مع رسول أحمد بن سعيد، وعدد من دخل الحصن من أكابرهم خمسون رجلاً، فما كان بعد دخولهم بنصف ساعة إلا أن ضرب طبل الحصن، ونادى المنادي الآن من له في العجم حق فليأخذه من العجم، ولم يكمل المنادي كلامه إلا والصايح (أي المهاجم) على العجم من كل مكان، وكانت المجزرة ولم يبق منهم إلا القليل[٩٨].

اشتهر أحمد بن سعيد بإدارته الحازمة بعد وصوله إلى السلطة، فقد قام بوضع كثير من القوانين لإدارة جهاز الحكومة واهتم بصفة خاصة من القضاء، والنواحي العسكرية، ويرجع الفضل له في محاولته الأولى لتكوين جيش دائم في البلاد موزع على ثلاث مناطق (مسقط —

(٩٨) المصدر السابق نفسه صحيفة ٢٤٨.

صحار ـــ الرستاق)، وأشرف على إعداده وتنظيمه، كما عين قائداً للأسطول(٩٩).

ومع ذلك فإن الظروف اضطرت أحمد بن سعيد إلى تكوين حكومته على شكل لامركزي، حينما ترك اليعاربة والغافريين يمارسون سيطرتهم على بعض المقاطعات في البلاد، بعدما بذل جهوداً مضنية لانتزاع هذه المقاطعات من أيديهم، ولكنه لم يوفق. ولقد لجأ إلى طريقة في الحكم كانت لها عواقب وخيمة في حياته، حيث أشرك أبناءه معه في الحكم، فكان يضطر إلى التدخل المستمر في حل نزاعهم المستمر نتيجة لجشعهم اللامحدود، بل كان يضطر أحياناً إلى حماية نفسه من هجوم أبنائه عليه، كما حدث إبان الثورة التي قادها ضده ولداه سيف وسلطان، فعلى الرغم من أنه اعترف بالأمر الواقع، وترك لهم السيطرة على مدينة بركة، إلا أنهما واصلا ثورتهما. الأمر الذي دفع قضاة المدينة إلى التدخل في الأمر، حيث تم عقد الصلح بين الامام وأبنائه على أن يأخذ سيف القلعة الشرقية في مسقط، ويحتل سلطان القلعة الغربية. ومع هذا فإن الابنين لم يقفا عند ذلك، وتماديا في خروجهما، حتى كادت تلك الأزمة تودي بكيان الدولة الناشئة خاصة حينما نشطت القبائل المنافسة للسيطرة على البلاد مستغلة ما وقع من اضطراب، مما اضطر الابنين إلى إنهاء التمرد، ومساعدة أبيهما(١٠٠).

وهكذا ورثت أسرة بوسعيد فيما ورثته عن اليعاربة ذلك التنازع الأسري والإضطراب الداخلي، الذي سيصبح سمة واضحة من سمات الدولة. وإذا كان التنازع الأسري بدا واضحاً في أيام حكم أحمد بن سعيد، فإنه سيكون أشد وضوحاً في عهد خلفائه من حكام تلك الأسرة.

---

(٩٩) Landen op. cit. P. 59 voir IBN ROZAIK Failles 249.

(١٠٠) Huzrt, op. cit P. 271 et Badger op. cit P. XLTL.

وقضى أحمد بن سعيد بقية حكمه في توطيد مركزه، ومركز عائلته، وقد كان تاجراً قبل أن يكون حاكماً، فشجع التجارة بطرق تميل إلى السلام، وانتعشت مسقط كمركز تجاري، وعاد الخير على البلاد كلها. وفي العاصمة (الرستاق)، التي اختارها ليحفظ التوازن بين الساحل والداخل، كون أحمد لنفسه بلاطاً لا يستهان به، كما ألف جيشاً وأسطولاً نظامياً، فخرج بذلك على نص المذهب القديم للفكر الاباضي، الذي يدعو إلى البساطة، ولكن الأحداث أثبتت، فيما بعد، أنه فيما فعل محقاً بعيد النظر؛ إذ سرعان ما أظهرت مخالبها روح التمرد الفطرية في أهل عمان، مما اضطره إلى أن يحارب؛ ليصون عرشه خلال حكمه الذي دام قرابة ٣٩ عاماً (١٧٤٤ ــ ١٧٨٣م)، ولقد تحداه بعض من أفراد قبيلة اليعاربة، كما تحداه الغافريون، بل قد واجه في أواخر أيامه تمرد ولديه سيف وسلطان كما ذكرنا[١٠١].

أما ما يخص الحراسة الخاصة، فقد اشترى ألفي عبد شكل منهم حرسه الخاص، كما كان يذهب كل سنة إلى مسقط يقضي هناك أسبوعين، يراجع الحسابات ويدققها، وكان آخر يوم قبل رحيله إلى الرستاق يعفي التجار في هذا اليوم من الضرائب[١٠٢].

وبعد وفاة الإمام أحمد قام رؤساء عمان بعقد البيعة لابنه الثاني، سعيد بن أحمد (١٧٨٣ ــ ١٨٢١م)، أما ابنه الكبير هلال، فقد أصيب بمرض في عينيه أفقده البصر، الأمر الذي اضطره للذهاب إلى كاجرات، للعلاج، حيث مات هناك[١٠٣].

كانت سلطة الإمام سعيد بن أحمد على غاية ما تكون من الضعف بسبب التفكك الداخلي، الذي نتج عن توزيع مقاطعات البلاد لبعض

---

(١٠١) سلطنة عمان المصدر السابق ص ٣٩.

(١٠٢) ابن رزيق المصدر السابق صحيفة ٢٦٤.

(١٠٣) Huart op. cit P. 272.

أفراد الأسرة المالكة مما أوجد مجالاً للتمزق، الذي عانته البلاد، وقد لعبت طبيعة البلاد الجغرافية دوراً مهماً في تفتيت الحياة السياسية؛ إذ أصبح من الميسور لكل قبيلة أن تحافظ على كيانها في إقليمها الخاص البعيد المنال.

هذا بالإضافة إلى ضعف سعيد نفسه، الأمر الذي أدى إلى أن تصبح سيطرته في طريقها إلى الزوال حتى لم يبق له في أيامه الأخيرة إلا لقب الإمام فقط، وظل طوال حكمه قابعاً في الرستاق، وهي العاصمة الدينية لعمان. وحتى الإمامة التي احتفظ بها كانت صحة عقدها له موضع الشك أيضاً، أضف إلى ذلك أنه لم يهتم بتأكيدها لنفسه، وإنما على العكس أخذ ينهج أموراً دنيوية لا يألفها الاباضيون المتمسكون بمبادئهم، ولعل ذلك هو الذي دفع أحد هؤلاء الاباضيين، وهو (ناصر بن أبي نبهان) للخروج عليه[١٠٤].

كان الأباضيون في ثورتهم على الإمام سعيد يفصحون عن معارضتهم لقيام إمامة على غرار الحكم الوراثي، لأننا نجد أن ما دعا إليه أبو نبهان إنما كان يعد في حد ذاته ثورة على نظام الإمامة[١٠٥]؛ لأنه نادى بإقصاء سعيد وعقد البيعة لمن يجمع الناس على احتياره[١٠٦] ومع هذا فقد استمر سعيد يحمل لقب الإمام متخذاً من الرستاق مقراً له. من ناحية أخرى قاوم بعضهم اختياره كحاكم سياسي، وعلى رأسهم ابنه حمد، حيث اغتصب السلطة السياسية من أبيه، ونقل العاصمة إلى مسقط، حيث اتخذ لنفسه لقب (السيد)، بينما بقي أبوه في الرستاق، لا حول له ولا طول، فلا هو يؤم الناس كزعيمهم الروحي، ولا هو يحكمهم كقائد سياسي[١٠٧].

---

(١٠٤) جمال زكريا: دولة بوسعيد، المصدر السابق، ص ٥٠.

(١٠٥) KAJAR? Firouz op. cit P. 69.

(١٠٦) السالمي « الأب » ج ٢ ص ١٨٢.

(١٠٧) سلطنة عمان المصدر السابق ص ٣٩.

الإنشقاق بين الساحل والداخل

نقصد هنا بالساحل، ساحل عمان السياسي، الممتد ما بين ظفار إلى رؤوس الجبال، ونقصد بالداخل داخلية عمان التي تتطابق مع هذا الامتداد الساحلي الممتدة من جبال ظفار إلى واحة البريمي، وقد ساعد على هذا الإنشقاق سببان رئيسان:

السبب الأول: طبيعة البلاد الجغرافية، حيث سلسلة الجبال التي تحجز الداخل عن الساحل، وحيث وعورة الطرق.

السبب الثاني: تناقض في نمط الإنتاج الاقتصادي، فبينما الداخل يعتمد على الزراعة، ويحكمه فكر شبيه بالفكر الإقطاعي المحافظ، نجد أن الساحل يعتمد على التجارة، ويحكمه فكر قريب إلى الفكر البرجوازي المعتدل.

صحيح أن عمان تدين بمذهب واحد يعتنقه الشعب العماني، ولكنه ليس مبرراً حقيقياً لتشكيل الوحدة الوطنية. ومع هذا، فلقد لعب المذهب الاباضي، دوراً إيجابياً في وحدة عمان، كما أنه لعب دوراً سلبياً في انفصال الساحل عن الداخل. وحتى العصر الحديث كانت الغلبة للداخل، ولم يكن الساحل إلا امتداد بشري واقتصادي للداخل.

إن تاريخ عمان في العصر الحديث لا يفهم إلا من خلال فهم الأمور الداخلية أنه صراع بين التطور والتخلف، بين المعتدلين والمحافظين، إذا جاز هذا التعبير، بما يحمل هذا المفهوم من تداخلات اجتماعية وأيديولوجية، هي بمجموعاتها تعبير عن نمط معين من الإقتصاد، الذي تمثل في الإقطاع في الداخل، وبين بورجوازية المدن في الساحل، بين المجتمع البحري بما يحمل هذا المجتمع من أفكار في الساحل، وبين المجتمع القبلي في الداخل.

لقد تغلف الإقطاع بمظهر الدين، وقد كان يستمد قوته من كونه

قيادة دينية إقطاعية قبلية، أما بورجوازية المدن، التي كذلك كانت تستمد قواها من الدين، ولكنها بحكم تعاملها التجاري وانفتاحها البحري تخضع الدين للعلاقات التجارية، أو فلنقل إنها تضفي مفهوماً دينياً غير متعارض مع الأصل للعلاقات التجارية، مع هذا ففي بداية أمرها لم تستطع شق عصا الطاعة على الداخل، ولكن إلى مدى يخدم هذا الدين العلاقات التي تربط الساحل التجاري بالداخل الإقطاعي؛ لجعل الاقتصاد العماني وحدة واحدة، تمتد من الساحل إلى الداخل والعكس صحيح.

وفي الوقت نفسه إن الساحل مضطر لأن يظهر بعض التسامح الديني لكونه يتعامل مع قوى إما أنها غير إباضية، أو أنها غير إسلامية، فالتعامل مع الهند أوروبا وإيران تجارياً لا بد أن تحكمها نظرة دينية تسامحية. ضمن هذه العلاقات الاقتصادية بين الساحل من جهة، وبين الداخل من جهة أخرى، كان النمط الاقتصادي للاثنين يخدم علاقات انجذاب، وليس علاقات انشقاق، وخصوصاً في الوقت الذي كان به الساحل في تشكيله البدائي، عندما كان يمثل امتداداً اقتصادياً وبشرياً للداخل، أما بعد أن تطورت الأمور، وأصبح بمقدور الساحل اقتصادياً أن ينفصل عن الداخل، عندها قرر الانشقاق الإقتصادي. إن الإنشقاق هنا مفهوم اقتصادي، ولم يكن انشقاقاً سياسياً، حيث كانت الوحدة السياسية دائما تظهر في بعض الأحيان، وتختفي لظروف التطور، وتبعاً لقوة الحاكم وضعفه.

بينما نجد الداخل الذي كان يقود عمان حتى العصر الحديث، يشكل قيادته السياسية، ويساهم في اقتصادياته، ويستثمر الساحل كممر للتبادل الإقتصادي، وكامتداد للداخل، الذي يعتمد على الإقطاع ضمن اقتصاد بدائي، يمكن اعطاؤه صفة « الاكتفاء الذاتي »، نجد الداخل يناضل دائماً من أجل الوحدة الوطنية، وقد رأينا، في العصر الإسلامي أو العصر الحديث، أن القيادة السياسية تشكل في الداخل، ولكنها لا

تهمل الساحل، وكم كانت حروب التحرير تنطلق من الداخل لتحرير الساحل، سواء ضد الفرس أو البرتغاليين، وكم من هجوم من الداخل على المدن الساحلية سوف نراه، من أجل الانفتاح الاقتصادي كما كان عندما هاجم اليعاربة البرتغاليين.

التبادل التجاري بين الساحل والداخل (وهو عامل اقتصادي) هو الذي جعل الإقطاع الديني يحاول المرة تلو الأخرى للسيطرة علي الساحل أو على الأقل التفاهم مع بورجوازية المدن الساحلية، خصوصاً إذا عرفنا أن الرز الذي لا يزرع في عمان، ويجلب من الهند أو من إيران، غذاء، أساسي للعمانيين.

من هنا كان مفهوم الانشقاق، الذي تم في عهد الإمام سعيد بن أحمد كان انشقاقاً اقتصادياً أكثر منه سياسياً، حيث إن الإمام سعيد احتفظ بلقب الإمامة.

صحيح أن العمانيين بمساعدة ابنه حمد حاولوا عزله، ولكن بقاءه يحمل لقب (إمام) متخذاً من الرستاق عاصمة له، مع وجود ابنه حمد، الذي لم يتخذ لقب إمام، بل اكتفى بلقب سيد، يعطينا مدلولاً اقتصادياً، وليس سياسياً. ومع هذا، نستطيع القول إن حركة حمد هي بداية إخضاع اقتصاد عمان الداخل لاقتصاد عمان الساحل، بالإضافة إلى ذلك بروز شخصية الحاكم التاجر، وهذا سيظهر واضحاً في عهد سعيد بن سلطان.

ظل حمد بن سعيد يحكم الساحل متخذاً من مسقط عاصمة له، وظل والده الإمام في الرستاق مكتفياً بلقب إمام، وعندما توفي حمد

(*) لا نجد تفسيراً منطقياً لاعتماد العمانيين على الأرز، والتفسير الوحيد إلى الآن ربما رخص الرز ووجوده باستمرار، خصوصاً أن الإنشطار الإقتصادي بين بورجوازية المدن والإقطاع في الداخل لم يتم نهائياً، إلا عندما استولت عائلة البوسعيد على الحكم، أما قبل ذلك، فإنه كان هناك صراع، كانت الغلبة فيه لأهل الداخل.

سنة ١٧٩٣ حاول الإمام سعيد إرجاع سيطرته على الساحل، ولكنه لم يستطع أن يحتفظ بها طويلاً.

إن عدم إدراك الإمام سعيد لأهمية المجال الخارجي وانطوائه في الرستاق أتاح الفرصة لأخيه سلطان أن يسيطر على مسقط والبلدان المجاورة لها، وأصبح بذلك الحاكم الفعلي، ومع هذا، فلم يحاول سلطان أن ينتزع الإمامة من أخيه، ولم يشأ أن يعقدها لنفسه، وسار خلفاؤه من بعد ذلك النهج نفسه؛ إذ لم يحاول أحد من الحكام المنحدرين من أسرة آل بوسعيد أن يظفروا بتأييد ديني لسلطتهم يصل إلى درجة الإمامة، وإنما قنعوا إلى الإرتكاز على ما لبيتهم من هيبة وسمعة، وإلى القوة العسكرية التي تدين لهم، والاعتماد فيما بعد على التأييد الذي ظفروا به من جانب حلفائهم الإنجليز.

وعندما استقروا في مسقط، وشغلوا أنفسهم بالشئون التجارية، فقدوا صلاتهم إلى حد كبير في الداخل؛ أي بالأرض التي تعد منشأ الإمامة وقاعدتها.

استمر سلطان بن أحمد يقوم بالحكم في مسقط إلى جانب الإمامة التي ظلت في الرستاق حتى وفاة الإمام سعيد (١٨٢١م)، وبمقتل سلطان بن أحمد تولى حكم عمان سعيد بن سلطان، ذلك الشاب الذي خلف أباه وعمره ١٧ سنة، وحكم عمان نصف قرن.

لقد كان حمد بن سعيد (١٧٨٤ ـــ ١٧٩٣م) المؤسس الأول لدولة الساحل، وقد اتخذ من مسقط عاصمة له، وقد يحلوا لبعض المؤرخين أن يعطوا هذه الدولة اسم « سلطنة مسقط »[١٠٨].

ولا نعرف تعليل هذه التسمية، ربما راجع إلى اعتماد مصادرهم

(١٠٨) جمال زكريا: دولة بوسعيد، المصدر السابق ص ٥٣.

على الوثائق الأوروبية، التي إلى الآن نجدها في أرشيفاتهم القديمة، سلطنة مسقط وعمان.

وعلى العموم فإن تسمية عمان، بسلطنة مسقط أو سلطنة مسقط وعمان، فهي تسمية حديثة نجدها في الأرشيف الأوروبي، ولا نجدها في الكتب العمانية، بل إن أفراد هذه العائلة لم يتخذوا لقب سلطان كصفة بارزة إلا بعد التحكيم — وقد حدث هذا في مارس ١٨٦٢، حيث اعترفت كل من انجلترا وفرنسا بكل من سلطان مسقط وسلطان زنجبار سنة ١٨٦٢[١٠٩].

هل للاسم دخل في التسمية، حيث إن كلمة سلطنة مشتقة من كلمة سلطان؛ لأن سلطان هو ثاني رجل يحكم الساحل من عائلة بوسعيد، فسميت سلطنة مسقط، اشتقاقاً من كلمة (سلطان)، حيث كانت مسقط تمثل حجر الزاوية في دولة الساحل.

أما المؤرخ العماني، (ابن رزيق)، فقد اكتفى بلقب (سيد) بعد عهد الإمام سعيد بن أحمد[١١٠]. من هنا نفضل تسمية (سلطنة مسقط) بدولة الساحل صحيح أن عاصمة هذه الدولة هي مسقط، وقد كان اختياراً موفقاً سواء لمركزها الاستراتيجي أو لصلاحية مينائها، ولكنه ليس سبباً في اختراع أسماء لم تكن موجودة في التاريخ.

إن انتقال الحكم الفعلي من الرستاق في الداخل إلى مسقط على الساحل كانت خطوة مهمة لتحطيم الانزواء والعزلة، التي حاول الإمام سعيد بن أحمد أن يفرضها على عمان، وأصبح لدولة الساحل منذ ذلك الوقت مجالاً كبيراً في علاقاتها مع الدول الأجنبية التي خرجت

(*) تقسيم امبراطورية عمان إلى قسمين؛ قسم منها آسيوي، وعاصمته مسقط، والآخر أفريقي، وعاصمته زنجبار.

(١٠٩) Badger op. cit P. 271.

(١١٠) ابن رزيق المصدر السابق صحيفة ٢٩٧.

إلى بحار الشرق، كما كان لهذا الانتقال تأثير كبير في مجريات الأمور الداخلية.

يقول لوريمر (Lorimer): إن نقل العاصمة من الرستاق إلى مسقط حوالي ١٧٨٤، ربما كان أهم ما حدث في عهد السيد حمد، وكانت لهذه الخطوة نتائج بعيدة ودائمة، فهي قد أبعدت حكام عمان من حيث كانوا لا يستطيعون الإبقاء على أنفسهم إلا بالوسائل العسكرية والسياسية، وسيرت لهم جميع العوائد بسهولة على طول ساحلهم، واستطاعت أن تضمن لهم شبه سلطة بغير إكراه عليها، وهي أخيراً قد عرضتهم لغزو الحضارات الأجنبية فباعدت بينهم وبين النظام القبلي في الداخل، وقللت أيضاً من شعبيتهم بين رعاياهم، فلو ظلت العاصمة في الداخل، كما كانت لكان محتملاً أن تظل حكومة عمان طوال القرن التالي؛ (أي القرن التاسع عشر) أكثر قوة وانضباطاً، ولما حدث التحلل الخلقي في الأسرة الحاكمة على ذلك النحو السريع[١١١].

وما يطرحه لوريمر صحيح إلى حد ما، حيث إن الحضارة الأوروبية قد ساعدت في نقل المجتمع العماني ــ كما فعلت كذلك في مجتمعات العالم المتخلفة ــ هذا النقل قد هز العادات والتقاليد الموروثة، وأصبح مجتمع الساحل مجتمعاً جديداً فيه كثير من صفات المجتمع المنحل.

ومن الأهمية أن نؤكد هنا أن قيام مسقط بشؤون الحكم ترك هوة فاصلة بينها وبين الرستاق، أو بالأحرى بين الساحل والداخل، إذا بقيت عمان الداخلية بعد تحول العاصمة إلى مسقط لا تكاد تشارك بأي نصيب في الحكم، ولكنها استمرت على عدم اعترافها بسيطرة حكام بوسعيد في الساحل، الذين كانوا في عرف الاباضيين المتمسكين بمبادئ مذهبهم خارجين عن تقاليد الإمامة الاباضية الصحيحة.

---

(١١١) Lorimer op. cit P. 419

ويبدو أن الفرصة لم تسنح لهؤلاء الأباضيين لعقد الإمامة لرجل قوي، فقد كان للفترات الحرجة التي مرت بها البلاد من غزوات وهابية، أو محاولات حكام مسقط المتكررة السيطرة على مقاطعات الداخل، أثرها في خلو مقعد الإمامة عقب وفاة الإمام سعيد (١٨٢١م)، وبقائه خالياً حتى مبايعة عزان بن قيس في ١٨٦٨ م.

السياسة الداخلية لدولة بوسعيد، وشئون الحكم الداخلي:

عندما استلم السيد / سلطان بن أحمد الحكم (وهو الابن الخامس للإمام أحمد) لم يكن هناك انتخاب؛ إذ كان الإمام سعيد ما زال على قيد الحياة يعيش في الرستاق.

عمل سلطان على دعم سلطته مستفيداً من كل تجاربه الشخصية ــ حيث إنه أحد الأبناء الذين ثاروا على أبيهم (الإمام أحمد ١٧٨١ م)، فأول ما فكر به سلطان القضاء على التناحر الأسري داخل الأسرة البوسعيدية.

جمع الأسرة في مدينة (بركة) عام ١٧٩٣ م، وعقد معهم اتفاقاً بموجبه، تم توزيع السلطان هذا التوزيع الذي ساعد على تفتيت عمان، فبقي الإمام سعيد في الرستاق، وحصل قيس (الابن الثالث للامام أحمد) على صحار، واحتفظ سلطان بمسقط كانت اتفاقية بركا العائلية، دليلاً على التغييرات التي أدخلها جيلان من حكم آل بوسعيد، فقد بدأت السلطة تقسم، وبدأ مركز الإمام يدخل في حيز العدم، وأخذ سلطان يكرس حياته للشؤون التجارية، فلا غرابة أن دبت الفرقة بين آل بوسعيد والقبائل التي تعيش داخل البلاد، بعيداً عن الساحل[١١٣] وهكذا كان

---

(١١٢) جمال زكريا: دولة بوسعيد، المصدر السابق، ص ٥٤.

(١١٣) سلطنة عمان: المصدر السابق، ص ٤٠.

أكثر اعتماد حكام البوسعيد على الجنود المرتزقة، وعلى الخصوص البلوش، وكذلك الحرس الخاص، كما رأينا من قبل حرس الإمام أحمد المتكون من ألفي عبد. وعلى الرغم من الاضطرابات السياسية، التي عكرت صفو الأوضاع، فقد انتعشت الحالة الاقتصادية، في البلاد، لا سيما في القسم الساحلي، ويعود الانتعاش إلى عدة عوامل منها نشاط الملاحين العمانيين الذين كانت أساطيلهم تجوب المحيط الهندي على امتداده من سواحل أندونيسيا حتى شرق أفريقيا، وكذلك المساهمة الفعالة للطبقة التجارية العمانية، التي عرف أفرادها كيف يستفيدون من تدهور نشاط الموانئ الإيرانية؛ لدعم مركز مدينة مسقط بصفتها المركز الأول للحركة التجارية في الخليج، وواحدة من أهم الموانئ على ساحل المحيط الهندي ـــ وأخيراً نجاح حكام البوسعيد في استقلال موارد الدولة لتنشيط الملاحة والتجارة في الخليج، أو دعمها[١١٤].

وكان على حكام مسقط من آل بوسعيد أن يبحثوا عن موارد جديدة بعد أن أصبح من العسير عليهم الاعتماد على الموارد التقليدية الموجودة في الداخل؛ لعدم ثباتها من ناحية، وعدم ضمان السيطرة عليها، أو تحصيلها من ناحية أخرى، فكان لسيطرة حكام مسقط على الموانئ البحرية، وخصوصاً منافذ الخليج، مثل هرمز، والبحرين، وبندر عباس، أثر في وجود موارد جديدة نتجت عن تحكمهم في التجارة[١١٥].

واستغل حكام مسقط الموقع الجغرافي لبلادهم، فكانوا يفرضون رسوماً جمركية على البضائع الأجنبية الواردة إلى البلاد في حين أعفيت الصادرات من الجمارك.

ويذكر نيبور NIEBUHR؛ الذي زار مسقط في عهد الإمام أحمد

---

(١١٤) Landen op. cit PP. 60-61

(١١٥) Palgrave op. cit vol. ii. P. 275.

بن سعيد، أن دخل الجمارك كما قدره يقرب من مائة ألف روبية، أما الضريبة، فهي تختلف حسب الجنسية، فبينما كان يدفع الأوروبي ٥٪ كان المحمديتان Mohametans (حسب قول نيبور، ويقصد بهم المسلمين) ٦,٥٪، وفي المقابل نجد أن اليهود والبنيان Binuans (طائفة من الهنود) يدفعون ٧٪، وحتى الإمام نفسه كان يدفع ٦٪[١١٦].

كانت القوة البحرية للإمام تتكون (١٧٦٥ م) من أربعة سفن كبيرة وثمانية سفن صغيرة، وكانت السفن الكبيرة تخصص في أوقات السلم للتجارة في شرق أفريقيا، بينما السفن الصغيرة لحماية شواطئ عمان من القراصنة[١١٧].

ازدهرت التجارة مع البصرة ازدهاراً عظيماً في عهد الإمام أحمد، حتى بلغ الأسطول التجاري في سنة ١٧٦٥ إلى خمسين سفينة، تقوم برحلات سنوية إلى البصرة، ونلاحظ أن بحارة مدينة صور كانوا مشهورين أساساً بدورهم في هذه الرحلة السنوية لنقل البن من اليمن إلى العراق عن طريق مسقط.

وكانت الصادرات التي تأتي إلى مسقط من داخل جزيرة العرب هي الصمغ، وريش النعام، والجلود، وعسل النحل، والماشية والأغنام، أما الواردات، فكانت التوابل الهندية والبهار والأرز والتبغ والبن والسكر. هذا إلى جانب الثياب الانجليزية والماشية والآلات، وازدهرت أيضاً التجارة العابرة (ترانزيت)، في مسقط، حتى أغرقت الخليج بألوان السلع والبضائع[١١٨].

---

(١١٦) NIEBUHR op. cit vol II P. 116.

(١١٧) IBID p. 122-123.

(١١٨) Lorimer op. cit P. 417.

دولة بوسعيد والشرق الأفريقي

إذا كان اليعاربة يحددهم الفكر الديني أولاً ثم المفهوم الاقتصادي ثانية في تشكيل اتساع الرقعة العمانية، والأطلال إلى خارج حدود عمان السياسية والطبيعية، فنستطيع القول إن عائلة بوسعيد في محاولتهم للاحتفاظ بشرقي أفريقيا، هو أولاً يحدوهم الفكر الاقتصادي ثم الديني، وهنا يجب أن نقسم الفترة الزمنية إلى قسمين؛ القسم الأول من الإمام أحمد ١٧٤٤ إلى السيد / سلطان بن أحمد ١٨٠٧ م، أما القسم الثاني، فيبدأ بسعيد بن سلطان وينتهي بانتهائه ١٨٥٦ م، ولا يستغرب ذلك، فنصف قرن من الزمان تصلح وحدها موضوعاً متكاملاً ذاته.

عندما تولى الإمام أحمد بن سعيد الحكم في عمان كان الذين يمثلون سلطة اليعاربة في أفريقيا، وخصوصاً في ممبسة، عائلة المزروعي، وكان على رأسهم محمد بن عثمان المزروعي، وكان طبيعياً أن هذه العائلة ترفض الاعتراف بسلطة الإمام أحمد على شرق أفريقيا.

حيث إن وصوله إلى السلطة قد عد من قبل عائلة المزروعي بمنزلة انقلاب على اليعاربة وحيث إنهم يمثلون سلطة اليعاربة، فكان أمامهم أمران، إما رفض سلطة الإمام أحمد، حيث إنه اغتصب الحكم من اليعاربة، وهذا ربما يتيح لهم الفرصة للوصول إلى الحكم الذاتي، وإما الاعتراف بسلطة الإمام، وهذا سيفقدهم مركزهم الاجتماعي، حيث دأبت عائلة البوسعيد على تولية أحد أفرادها على المقاطعات.

لقد اختارت عائلة المزروعي رفض سلطة الإمام أحمد، وهذا يعني طريق الصدام مع الإمام أحمد.

كان الإمام أحمد في ذلك الوقت عنده ما يكفيه من مشكلات في عمان، ولكنه كإنسان طموح قبل أن يكون حاكماً، لم ينس شرق أفريقيا الغنية بمواردها الإقتصادية، وخصوصاً تجارة العاج والرقيق والذهب.

وإدراك الإمام أحمد ما يرمي إليه آل المزروعي في أفريقيا من سياسة انفصالية، تكون لها أثر سيء في العلاقات التجارية بين مسقط والشرق الأفريقي، من هنا كان تفكيره الجدي في إخضاع ممبسة وتأكيد سيطرته على تلك الممتلكات التي ورثها عن أسلافه من اليعاربة.

ولم يعدم الإمام أحمد الحيلة للاستيلاء على ممبسة، كما عودنا دائماً في إيجاد مسوغات المكايد والخداع، فقد عمد إلى الدهاء والحيلة. والحيلة.

بادر الإمام أحمد إلى إرسال ستة من أعوانه المخلصين تحت رئاسة سيف بن خلف إلى ممبسة، وتمكن هؤلاء من مقابلة المزروعي، وأقنعوه أنهم لاجئون سياسيون، وأنهم فروا هاربين من عمان من تحدي أحمد بن سعيد لهم، حيث إنهم كانوا يثيرون القلاقل والإضطرابات ضد حكمه، وأنهم فرحوا عندما عرفوا أن حاكم ممبسة يشاطرهم العداء ضد أحمد بن سعيد ولكي يمثلوا دورهم بمهارة طلبوا من المزروعي أن يساعدهم في الرحيل إلى المقاطعات والأقاليم المجاورة لممبسة آملين جمع ما يستطيعون جمعه من المساعدين والأنصار لإنجاح تلك الحركة التي يهدفون إلى تحقيقها.

وفي أحد الاجتماعات بين المزروعي وبين أولئك الرجال المخلصين بادر أحدهم، وطعن المزروعي، بخنجره طعنة قتلته، ثم قام سيف بن خلف بالقبض على رجال المزروعي وحاشيته، وأعمل فيهم الذبح والتقتيل[١١٩].

ولكن قتل المزروعي لم يحل المشكلة، ولم يخضع شرقي أفريقيا لسلطة الإمام أحمد، بل نهض أخو المزروعي، وكان يدعى محمداً

(١١٩) Gaillaim op. cit PP. 543-544.

للأخذ بثأر أخيه، ونجح محمد في استرداد ممبسة، وقتل سيفا[120].

وإذا واجهت سلطة آل بوسعيد الحركات الانفصالية في الشرق الأفريقي، وعلى رأسها حكام ممبسة، فإنه في المقابل كانت المقاطعات الأخرى، وعلى رأسها زنجبار، قد استمرت على ولائها لسلطة آل بوسعيد، واعترفت للدولة الجديدة[121].

إلا أن محاولة الانفصال من قبل المقاطعات لم تتوقف، وكذلك محاولة آل سعيد السيطرة وإرجاع هذه المقاطعات كذلك لم تتوقف إلى أن جاء عصر السيد / سعيد بن سلطان، الذي حسم هذه المشكلة، بل أكثر من ذلك نقل السيد / سعيد عاصمته من مسقط إلى زنجبار ١٨٣٢، وتفرغ إلى تكوين امبراطورية عمانية تضم عمان والشرق الأفريقي.

---

(١٢٠) IBID PP. 546-547.

(١٢١) جمال زكريا: دولة بوسعيد، ص ٩٣.

العلاقات المحلية

أ) العلاقات المحلية في عهد اليعاربة.
ب) العلاقات المحلية في عهد البوسعيد.

العلاقات المحلية:

نقصد بالعلاقات المحلية، العلاقات التي تمت بين عمان وجيرانها، ونقصد بجيرانها، الفرس، وسكان الخليج العربي، وسكان الجزيرة العربية.

ومن هنا يكون الإيرانيون والوهابيون، وكذلك رؤساء القبائل القاطنة على ساحل الخليج العربي، محور هذه الدراسة.

لقد حكم العلاقة بين عمان وإيران مفهومان؛ الأول قومي وطني، حيث عمان تنتمي إلى الأمة العربية، ويشكل الإيرانيون أمة أخرى. أما الثاني؛ فهو ديني، حيث إن عمان يعتنق غالبية سكانه المذهب الاباضي. كما قلت سابقاً، والإيرانيون بأغلبيتهم يعتنقون المذهب الشيعي.

أما العلاقة التي حكمت عمان بالوهابيين، فكذلك لها مقومان الأول إقليمي، وهذا جانب غير مشترك بين العمانيين والوهابيين، بل يختص به العمانيون فقط؛ لأن الدعوة الوهابية دعوة دينية شاملة، تتعدى المفهوم الإقليمي. أما المقوم الثاني، فهو ديني، كون الوهابيين يعدون أن كل من يخالفهم خارج عن الدين الإسلامي.

وخلاف هذه الدوائر الثلاثة، (الفرس، ساحل الخليج العربي، الوهابيين)، سوف نتطرق ما أمكن، وضمن سياق الحديث، حول العلاقات الأخرى، مثل العلاقة العثمانية العمانية، أو المصرية العمانية، وحتى اليمنية العمانية.

العلاقات المحلية في عهد اليعاربة (١٦٢٤ ـــ ١٧٤١):

كان الخليج العربي خالياً من أي تشكيل سياسي، عندما برزت دولة اليعاربة على شواطئه، ما عدا فارس على الضفة الغربية للخليج، ولهذا ليس أمامنا في عهد اليعاربة إلا علاقة بين فارس وعمان، أما الوهابيون، وسكان ساحل الخليج العربي، فهي تكوينات سياسية متأخرة، برزت في العهد البوسعيدي.

العلاقة بين فارس وعمان قديمة جداً، كما بينا سابقاً، ويمكن القول إن هذه العلاقة قد اتسمت بالعداء منذ نشأتها. فقد نشبت حروب طاحنة بين العمانيين وبين الفرس، وابتداء من الهجرات الأولى التي تلت إنهيار سد مأرب، كان الصدام بين مالك بن فهم، منذ قدومه إلى عمان، والقائد الفارسي مرزبان[١٢٢].

وفي مطلع الإسلام حارب أهل عمان الفرس، وأجلوهم عن عمان[١٢٣] وفي عهد النباهنة قام الفرس بغارات على عمان، حيث وجه العجم من شيراز حملة لاحتلال عمان في عهد السلطان عمر بن نبهان النبهاني، حوالي (١٢٦٥ م ـــ ٦٧٤ هـ)، وكان على رأسها قائدان؛ أحدهما « فخر الدين بن الداية »، والثاني « شهاب الدين »، وكانت

---

(١٢٢) – KAJAR, Firouz, op. cit P. 61.

(١٢٣) – Voir l'introduction.

AL-NABHANI periode, C'est une periode avant la periode YAR ou Bite

* AL AGRE, C'est un endroit fret NAZWA.

تتكون الحملة من ٤ آلاف مقاتل وخمسمائة فارس، وقد قام أفراد هذه الحملة بأعمال تخريبية لا توصف، وقد تقدمت هذه الحملة نحو الداخل حتى نزوى، ومنها تقدم إلى منطقة العقر، حيث قامت بطرد الأهالي من ديارهم، واستولت على منازلهم بالقوة. ولقد مكثت هذه الحملة أربعة شهور في العقر، ثم تقدمت حتى وصلت إلى بهلى، وحاصرتها، وفي أثناء الحصار مات أحد القادة « فخر الدين » وقد رجعت الحملة عندما انتشرت المجاعة(١٢٤).

كما أن (ابن رزيق) يذكر في تاريخه حملة أخرى قادها أمير هرمز، ويسمى (محمود بن أحمد الكوشي)؛ وقد وافق قدوم هذه الحملة تنازع داخلي بين آل نبهان، مما أدى إلى تسهيل مهمة الفرس، وقد رست الحملة في مدينة قلهات البحرية، وقد طلب قائد الحملة من أبي المعالي كهلان بن نبهان أن يقوم بتحصيل الضرائب من العمانيين ويسلمها إليه. ولما كانت سلطة أبي المعالي، لا تمتد إلا على قسم صغير من عمان، ولما كان أغلب الأهالي من الفقراء وغير قادرين على دفع الضرائب، فقد أبدي للقائد الفارسي عجزه عن الاستجابة لمطالبه، ولربما تعلل أبو المعالي في ذلك لأن محموداً قال له: إذا أنت ضعيف، ولا تملك العساكر، فخذ عسكري واقصد بهم من خالفك من أهل عمان، ولكن أبا المعالي تعلل بالأعذار السابقة.

نكاية من قائد الحملة لأبي المعالي اجتمع محمود الكوش بأمراء البدو، وأغدق عليهم الهدايا، ووعدوه بالنصر، ومساعدته على أهل عمان.

بعد ذلك تقدم محمود إلى ظفار بوساطة السفن، وعند عودته من ظفار — بعد أن حصل على بعض الانتصارات والمغانم، ترك سفنه

---

(١٢٤) الشيخ سرحان المصدر السابق صحيفة ٣٨٢ — ٣٨٣.

(*) يرجح أنه حاكم مدينة قلهات.

تسايره على الساحل، واتخذ الطريق البري إلى داخل عمان، ولكن حملته والمغانم، ترك سفنه تسايره على الساحل، واتخذ الطريق البري إلى داخل عمان، ولكن حملته هذه منيت بالإخفاق بسبب نقص المؤن في الصحراء، حيث مات معظم جنوده من العطش والجوع في هذه المغامرة المدمرة، ومن ناحية أخرى تصدت قبيلة بني جابر للسفن الراسية في ميناء قلهات، وأغرقت السفن، وهزم الجيش الهرمزي، وانتهت الحملة الفارسية(١٢٥).

ومع أن التنازع العماني الفارسي إحدى السمات المميزة للعلاقة بين ذلك البلدين، إلا أننا نجد أنه في عام ١٦٢٠ قد تكونت قوة مشتركة عربية فارسية، وقضت على قوة برتغالية كانت قد احتلت موقعاً على الساحل العربي قرب رأس الخيمة(١٢٦).

والغريب في الأمر أن العلاقات الفارسية العمانية يحكمها تغير العائلة الحاكمة، فنجد معظم مؤسسي العائلات العمانية، التي حكمت عمان، يكون أول عمل له طرد الإيرانيين من عمان، وأن آخر حاكم في العائلة يطلب من الإيرانيين المساعدة.

وكان من المفروض أن يثمر هذا التحالف، في خلق علاقات ودية بين العمانيين والفرس، خصوصاً أن ما يجمع العمانيين بالإيرانيين أكثر مما يجمع الإيرانيين بالبرتغاليين، إلا أن المصالح الإقتصادية والإختلاف المذهبي والقومي طغى على كل العناصر الإيجابية للجمع، وأخذ التنافس يدب بين القوتين المحليتين (العمانية والفارسية)، ومنذ عهد الإمام ناصر بن مرشد لوحظ أن فارس أخذت تهادن البرتغال؛ ففي ١٦٢٥ عقد بين الطرفين (فارس والبرتغال) صلح اعترف فيه البرتغاليون بانتقال

(١٢٥) ابن رزيق المصدر السابق صحيفة ١٧٤ — ١٧٥.

(١٢٦) – BADGER op. cit p. 40.

هرمز وقشم إلى الشاه عباس، على أن يكون لهم نصف العوائد الجمركية في كنج الواقعة بالقرب من لنجة[127].

وقد أخذت العلاقة تسوء بين عمان وفارس بسبب مهادنة الفرس للبرتغاليين، وخصوصاً في معركة جلفار، كما مر بنا. وتعاون البرتغاليون والفرس معاً ضد العمانيين، وصلت القوة البحرية العمانية في عهد الإمام سيف بن سلطان إلى أقصى قوة لها، وأخذت في مهاجمة الفرس في مياه الخليج العربي، فقد بعث الإمام سيف حملة مكونة من خمس قطع بحرية؛ لمهاجمة منطقة كنج الفارسية، وقد تمكنت تلك القوة من القضاء على قوات الفرس. مما دعا الفرس إلى طلب العون من الوكالة الإنجليزية؛ لإعاقة السفن العربية من التقدم نحو فارس، وطلبوا كذلك مساعدتهم لمهاجمة مسقط[128] خشي الإنجليز أن يقدم الهولنديون المساعدة للفرس، الذين كانوا على أتم الاستعداد لتقديم هذه المساعدة؛ لأنهم كانوا يأملون من وراء ذلك أن تقدم لهم فارس تسهيلات تجارية، إلا أن الفرس تخلوا عن فكرة مهاجمة مسقط، ربما لأنهم شعروا بعدم قدرتهم على ذلك، مما أسعد الإنجليز؛ إذ لم تتح الفرصة للهولنديين لتقديم خدماتهم للفرس[129].

وانزعج الفرس لتزايد القوة البحرية العمانية، وشارك الإنجليز الفرس هذه المخاوف، وقد صور الإنجليز هذه المخاوف بأنها كالوباء أو كالطاعون بالنسبة لمنطقة الخليج والهند[130].

وقد استمرت المحاولة مرة أخرى بين الفرس والبرتغال لتكوين جبهة

---

(١٢٧) - Lorimer op. cit p. 52.

(١٢٨) - Lorimer IBID P. 132.

(١٢٩) - Lorimer IBID PP. 132-133.

(١٣٠) - Miler: Countries and trilies of persian gulf P. 219.

ضد البحرية العمانية حتى أواخر القرن السابع عشر، ففي عام ١٦٦١ م كانت آخر محاولة فارسية برتغالية لمهاجمة مسقط، ولكن الإمام سيف بن سلطان استطاع أن يقضي على هذه المحاولة. بمهاجمة أكبر المراكز البرتغالية في الهند.

ولما يئس الفرس من البرتغاليين اتجهوا نحو القوى البحرية الجديدة (الإنجليز والهولنديين) إلا أن الإمام سيف بحكمته وسياسته استطاع أن يجهض هذه المحاولة أيضاً، أو قرر عدم التعرض لتجارة شركة الهند الشرقية، التي تمثل المصالح الإنجليزية، بالإضافة إلى عدم التحمس الذي أبدته هذه الشركة؛ إذ لم يكن لديها الرغبة في التدخل الفعلي؛ تجنباً للأعباء العسكرية بقدر الإمكان، هذه الأعباء العسكرية التي تكلف الشركة أموالاً طائلة[١٣١] بيد أن تلك الجهود التي بذلتها فارس للتخلص من منافسة عمان وتحويلها لم تؤد إلى نتيجة حاسمة؛ إذ كانت فارس تتعرض في ذلك الوقت لبعض مشكلات داخلية أسفرت عن إشاعة الفوضى في البلاد؛ ففي عام ١٧٢٢ تمكن الأفغان من غزو فارس، واحتلال مقاطعة أصفهان، كما أن روسيا احتلت المقاطعات الشمالية.

ولا شك في أن عرب عمان اغتنموا فرصة الاضطرابات الداخلية، التي وقعت في فارس؛ ليؤكدوا لأنفسهم في الخليج، وأن يكونوا القوة الفعالة الموجهة لسياسته.

على أن فارس لم تلبث أن تمكنت من انتزاع ذلك النفوذ من أيدي العمانيين، مستغلة ما حل بدولة اليعاربة من ثورات وحروب أهلية،

---

(١٣١) - Lorimer op. cit P. 132 voir P. 132 voir encore Curzen, persia and the Question of persian Gulf vol. II P. 484, and Bombay government selections from the records vol. XXIV. P. 18.

وتنازع حول الإمامة، كان من جرائها سقوط دولة اليعاربة، ووقوع عمان في أيدي الفرس[١٣٢].

أما ما تم من علاقات بين عمان واليمن، فهي كذلك لا تخرج عن إطار العلاقات المتوترة، والنص الوحيد الذي وجدناه عبارة عن رسائل متبادلة بين الإمام سيف بن سلطان، وملك صنعاء إسماعيل بن القاسم، ولقد أورد الرسائل « السالمي، الأب » ونفهم منها أن العمانيين في أثناء مطاردتهم للبرتغاليين في شرق أفريقيا قد شملت عملياتهم حدود ملك صنعاء، مما أزعج هذا الملك، الذي إغتنم فرصة اليعاربة وانشغالهم في مطاردة البرتغاليين والفرس، فشن هجوماً على ظفار، واحتلها، واستولى على بعض المدافع، ويفهم من النص أن ملك صنعاء قد أخذ المدافع، وربما تراجع مرة أخرى، وترك ظفار.

ولا نعرف بالضبط هل قضية المدافع سابقة لاعتداء العمانيين على الحدود اليمنية أم العكس، ولكن الشيء الذي يوضحه النص أن ملك صنعاء قد بعث رسولاً إلى سيف بن سلطان، للتفاهم معه، ولكن لم ينجح هذا الرسول في مهمته، وقد أرسل الإمام سيف رسالة إلى ملك صنعاء يهدده فيها كما رد ملك صنعاء بتهديد على التهديد.

والغريب في الأمر أن عمان يحكمها إمام للمذهب الاباضي، واليمن كان يحكمها إمام للمذهب الزيدي، والمذهبان لا يختلفان كثيراً، وللأسف لم نجد أية معلومات أخرى تبين العلاقات إلا من خلال الرسالتين المتبادلتين، اللتين تضمران التهديد[١٣٣].

---

(١٣٢) زكريا قاسم دولة البوسعيد ص ٣٥ — ٣٦.
(١٣٣) السالمي « الأب » التحفة المصدر السابق ج ٢ ص ٥٧ — ٦٠.

العلاقات المحلية في عهد البوسعيدي

أ) العلاقات بين فارس وعمان.
ب) العلاقات بين عمان وساحل الخليج العربي.
جـ) العلاقات بين عمان والوهابيين.

العهد البوسعيدي في عمان، هو عهد العلاقات المحلية والدولية، وهو في الوقت نفسه العهد الذي تتشكل فيه الخرائط السياسية لشبه الجزيرة العربية والخليج العربي، تحت مسئولية بريطانيا.

في هذا العهد انفصلت الامبراطورية العمانية وانقسمت إلى قسمين، الشرق الأفريقي، وعاصمته زنجبار، والقسم الآسيوي وعاصمته مسقط، بل أكثر من ذلك، فقد تشكلت الخريطة السياسية لعمان نفسه؛ فقد كان اسم عمان في السابق يستخدم بمعان كثيرة تختلف حسب الظروف المستخدمة لها، وتبعاً للإطار الذي تستخدم فيه فهي تستخدم أحياناً للتعبير عن منطقة جغرافية واسعة وأحياناً للدلالة على منطقة جغرافية محدودة، بينما تستخدم ثالثة، وبمعنى أوسع، لوصف وحدة سياسية معينة، كما أنها في غالب الأحيان تتخذ هذه التسمية معنى عاماً، بحيث لا يعرف ما إذا كانت تعبر عن وحدة جغرافية أو سياسية، بينما[١٣٤] يبدو أنها في بعض الأحيان تستخدم كتعبير عن الإثنين معاً.

(١٣٤) محمد أمين عبدالله: قضية عمان في الأمم المتحدة، ص ٦١، القاهرة ١٩٦٤.

ومع كل هذا الخلط، فإن التسمية تنطبق على المنطقة الممتدة من ظفار في الجنوب حتى قطر في الشمال، أما الخريطة السياسية التي تشكلت في العهد البوسعيدي، فهي الرقعة التي تمتد من ظفار إلى رؤوس الجبال، ما عدا بعض الجيوب على ساحل خليج عمان، التي تنتمي سياسياً الآن لدولة اتحاد الإمارات العربية(*).

إن العلاقات التي تمت في هذه الفترة ــ ونقصد العلاقات في بداية العهد البوسعيد ــ بين القوى المحلية على شواطئ الخليج، هي علاقات يحكمها النهج الفردي، ولم تكن ممثلة لحركة مجتمع واضحة المعالم، على رأسها حكومة لها كل متطلبات الدولة وكيانها.

إن كل ما تم هو في إطار المغامرات الشخصية، ولهذا لا نستغرب التحالف غير المسوغ والعداوة غير المنطقية، صحيح أن هناك خطوطاً عامة أتاحت للمغامرة الفردية أن تأخذ مداها مثلما ذكرنا سابقاً؛ حيث الإختلاف القومي أو الديني، ولكن هذه الخطوط العامة لم تفرز من خلال حركة مجتمع تعطيها الديمومة والاستمرار.

لهذا نرى الخط البياني في العلاقات، ينزل ويصعد بدون مسوغات منطقية، بل كل ما نستطيع أن نعطيه من تفسير هو إلى أي مدى هذا الفرد المغامر يستطيع أن يفهم هذه الخطوط العامة، ويجيرها لصالحه، أو لصالح عائلته، فإذا وجدنا حاكماً تلمس هذه الخطوط العامة نجده فعلاً يستطيع الإستفادة منها، ولا تستغرب إذا تكررت أسماء كثيرة لا نستطيع التحدث عنها إلا بضع وريقات. إن هذا المفهوم ينطبق على معظم العهد البوسعيدي من أول إمام إلى عهد سعيد بن سلطان، حيث تدخلت القوة الأوروبية بعد ذلك فاعلة في التطور الحضاري والتاريخي لهذه المنطقة، هذه القوة الأوروبية التي فعلاً تمثل حركة

(*) مثل الفجيرة، وخورفكان، وكلباً.

مجتمعها في دول منظمة لها استراتيجية واضحة المعالم، وتكتيك يخدم هذه الإستراتيجية باستمرار. بل نستطيع القول إن العلاقات المحلية أصبحت خاضعة للتنافس الدولي ولعبة الأمم، ومراكز القوى الأوروبية منذ المعاهدة الأولى بين انجلترا وعمان في سنة ١٨٠٠ م. وإذا عرفنا أن سعيد بن سلطان استولى على الحكم في مطلع عام ١٨٠٧ م فإننا لا نستطيع عملياً أن نستمر في العلاقات المحلية بعد ذلك بمعزل عن العلاقات الأوروبية وخصوصاً انجلترا وفرنسا.

من هنا سوف نقتصر في الحديث عن العلاقات المحلية بين عمان والقوى الأخرى إلى هذه الفترة، أما فترة سعيد بن سلطان فهي فترة تحكمها العلاقات الدولية.

في هذه الفترة؛ أي فترة سعيد بن سلطان وما بعدها ــ وبمساعدة بريطانيا، وضمن مبدئها المشهور (فرق تسد)، ظهرت الإمارات العربية على شاطئ الخليج العربي التي شكلت فيما بعد « دولة الإمارات العربية المتحدة » ما عدا قطر والبحرين والكويت.

كما أن العصر البوسعيدي يتوافق مع ظهور الدعوة الوهابية، وتشكيل الدولة السعودية الأولى (١٧٥٠ ــ ١٨٢٠)، بالإضافة إلى تطلعات محمد علي في مصر لغزو الجزيرة العربية أما الجانب الفارسي، فنحن قد عرفنا أن الإمام أحمد بن سعيد مؤسس هذه العائلة قد انتخب إماماً، لأنه حرر عمان من الاحتلال الإيراني.

إن انسحاب البرتغاليين من الخليج، وعدم تمركز الإنجليز تمركزاً يمكنهم من السيطرة التامة على الخليج، والبداية المتأخرة لفرنسا للإتجاه نحو البحار الشرقية، كل هذا أتاح المجال للقوى المحلية أن تلعب دوراً بارزاً في الفترة التي سبقت السيطرة الكاملة على الخليج من قبل القوى الأوروبية؛ وخصوصاً بريطانيا.

هذه القوى قد تمثلت بعمان وفارس والوهابيين، أما القواسم والعتوب، فقد لعبوا دوراً وسيطاً ضمن هذه القوى الثلاثة، وحيث إن القواسم كانوا يمثلون أهم القوى البحرية، فقد كانوا هدفاً للقوى الثلاثة السالفة الذكر (عمان ـــ فارس ـــ الوهابيين) سواء بالتحالف أو العداء، أما العتوب، فقد اهتموا بالتجارة، ولهذا لم يكن لهم دور حربي بارز وكان دورهم أكثر من حربي.

أ) العلاقات بين عمان وفارس

كان من الطبيعي جداً، وضمن الفراغ الذي تركه انسحاب البرتغاليين أن تحاول كل من عمان وفارس أن تسيطر على الخليج. لقد كان على رأس المطامع الفردية في عمان الإمام أحمد بن سعيد (١٧٤١ م ـــ ١٧٨٣ م)، يقابله في فارس نادر شاه (١٧٢٧ م ـــ ١٧٤٧ م).

لقد استطاعت فارس في هذه الفترة؛ أي فترة العهد الأخير من دولة اليعاربة وبداية الدولة البوسعيدية أن تنجح في احتلال بعض المدن الساحلية العمانية، احتلال دام ثلاثة عشر عاماً (١٧٢٨ ـــ ١٧٤١)، انتهى بطردهم من البلاد نتيجة لوصول الإمام أحمد بن سعيد إلى الحكم[١٣٥].

على أن اغتيال نادر شاه عام ١٧٤٧ كان له أكبر النتائج بالنسبة لمركز فارس في الخليج وذلك راجع إلى القلاقل والتنافس على السلطة التي شغلت فارس عن توطيد سطوتها في الخليج، وأحداث التفكك الداخلي وأثره في ذلك، والتدهور الذي ألم بالقوة البحرية الفارسية بوجه عام، في الفترة التي امتدت من اغتيال نادر شاه ١٧٤٧ إلى وصول كريم خان الزندي إلى الحكم (١٧٥٦ م).

---

(١٣٥) زكريا قاسم: دولة البوسعيد ص ٧١.

وفي المقابل انشغل الإمام أحمد بن سعيد في المشكلات الداخلية التي تعرضت لها عمان في بداية استلام السلطة، وانصراف الإمام أحمد لتوطيد نفوذه ومجابهة هذه المشكلات التي لم تكن أقل خطورة لعمان عما كانت عليه الحال في فارس.

إن نجاح كريم خان في تركيز سيطرته في شيراز أعطته الفرصة ليعيد القوة البحرية الفارسية، فأخذ يوجه جهوده صوب الخليج، محاولة منه لاسترجاع سطوة فارس على تلك البلاد.

طلب كريم خان، ارجاع السفينة الإيرانية، التي استولى عليها الإمام، كما طلب أيضاً دفع الفوائد المتأخرة عليه، التي استوى عليها الإمام، كما طلب أيضاً دفع الفوائد المتأخرة عليه، التي كانت مستحقة لنادر شاه، ولكن الإمام أحمد رفض كلا المطلبين، وقد رد الإمام أحمد بخصوص السفينة أنه قد اشتراها بطريقة شرعية من الشيخ عبدالله في هرمز وبالتالي لا مسوغ لردها. أما الجزية السنوية، فقد كانت تدفع لنادر شاه، لأنه كان طاغياً، ظالماً وقوياً، وكانت عمان في تلك الفترة لا تستطيع أن تدافع عن نفسها. أما الآن، فالأمر يختلف تماماً، فنادر شاه كان يحكم كل إيران، أما كريم خان، فإنه لا يسيطر إلا على بعض الأقاليم من إيران. فإذا أصر كريم خان على مطالبه، فلن نجيبه إلا بطلقات المدفع والرصاص(١٣٦).

وترتب على ذلك التحدي قيام بعض المناوشات بين فارس وعمان، فحجز الإمام أسطولاً فارسياً يحمل بُنًّا كان متوجهاً إلى البصرة، ورد الإيرانيون على هذا بالإستيلاء على سفينتين محملتين بالبن كانتا في طريقهما إلى البصرة.

وتبعت ذلك اشتباكات بين الفريقين في البحر، كانت الغلبة عموماً

(١٣٦) - Lorimer op. cit P. 650.

للإمام وحلفائه، وفي ١٧٧٠ قام أسطول عمان بمظاهرة استعراضية خارج ميناء بوشهر، رداً على الفرس الذين استولوا على بعض القطع البحرية العمانية[١٣٧].

حاول كريم خان عدة مرات أن يجهز أسطولاً لمحاربة العمانيين، فكانت المحاولة الأولى في ١٧٧٣ تحت قيادة المير علي من ريج، ولكنها أخفقت، ثم في ربيع ١٧٧٤ عهد إلى الشيخ ناصر بصفته ممثلاً لكريم خان، وخول له حق التفاوض مع الإمام لعقد علاقات صداقة، وعلى الرغم من أن الإمام أحمد بن سعيد أعلن رغبته في أن تكون له علاقة صداقة مع الفرس إلا أنه رفض دفع الضرائب؛ إذ كان قبول مبدأ الجزية لفارس يتضمن التبعية لفارس[١٣٨].

لهذا لم تصل المفاوضات إلى أية نتيجة، وأعلن الإمام أن أسطوله سيقوم برحلته المعتادة إلى البصرة، وسيعتمد على قوته الذاتية لرد أي اعتداء من جانب كريم خان أو من غيره[١٣٩].

عندما أخفقت المفاوضات بين عمان وفارس بحث الإمام أحمد بن سعيد في ذلك الوقت عن حليف قوي، يستطيع أن يعتمد عليه في صراعه ضد فارس، ولعل ذلك يفسر سرعة استجابته إلى التحالف مع الدولة العثمانية واشتراكه فعلياً ضد أسطول الفرس عند محاصرته للبصرة.

والجدير بالذكر أن هذه لم تكن هي المرة الأولى التي اتجه فيها الإمام أحمد لتخليص البصرة من الفرس، ولذلك بادر في عام ١٧٥٦ بالتوجه إلى البصرة بسفينته الشهيرة (الرحماني)، وتمكن من تحطيم

---

(١٣٧) زكريا قاسم: دولة البوسعيد ص ٧٣.

(١٣٨)

(١٣٩) - Lorimer op. cit. P. 651.

سلاسل الحديد التي كان قد وضعها الفرس لمنع الأسطول العماني للوصول إلى البصرة. وساهم الإمام أحمد مساهمة فعالة في طرد الفرس من البصرة، وقد قدر السلطان العثماني تلك المساعدة القيمة من جانب عمان، مما جعله ـــ أي السلطان العثماني ـــ يقرر مساعدة مالية سنوية من خزانة البصرة لإمام عمان(١٤٠).

أما كريم خان، بعد سقوط البصرة ١٧٧٦، فقد حاول أن يغزو عمان برا، ولكن هذه المحاولة لم تنفذ، وفي صيف ١٧٧٦ قام شيخ هرمز، بأمر من كريم خان، بالاستيلاء على سفينة، لبعض رعايا الإمام، كانت محملة بالبضائع من مسقط إلى بوشهر والبحرين، وقد رد العمانيون على ذلك بنصب كمين لشيخ هرمز، وقبضوا عليه، وأرسل إلى مسقط على ظهر سفينة عمانية، غير أنه استعاد حريته في العام التالية.

وجاء موت كريم خان في ١٧٧٩ ليقضي مؤقتاً على نفوذ إيران في الخليج، وليزيد من سيطرة عمان وغيرها من القوى العربية الأخرى، حتى أصبح مقصوراً عليهم دون منازع(١٤١).

أما التصادم بين عمان وفارس، بعد الإمام أحمد، فقد تولى أمره السيد سلطان بن الإمام أحمد، بعد أن استطاع أن يقضي على النزاع والتصارع الداخلي في معاهدة (بركا العائلية).

كان سلطان منذ توليه زمام الأمور في عمان غير متوقف أبداً عن جهوده ومعاركه في كل الجهات، ففي عام ١٧٩٣ قام بهجوم ناجح على الساحل الإيراني واحتل جوادر. كما أنه قاد بنفسه حملة بحرية على حكام قشم وهرمز(١٤٢).

---

(١٤٠) - KAJAR. F. op. cit. P. 68.

(١٤١) - Lorimer op. cit. p. 652.

(١٤٢) صادق حسن عبدوان : علاقات الدولة السعودية الأولى مع دول شرق الجزيرة العربية، ص ٣٦، القاهرة ١٩٧٣.

وفي عام ١٧٩٧ حدث نزاع بين عمان وإيران، فكانت محاولة من إيران لاحتلال مسقط، ومن ثم تجهيز حملة تحت قيادة حاكم بوشهر، ولكن يبدو أن هذا الحاكم قد عجز عن تنفيذ هذه التعليمات[١٤٣].

وفي كل الأحوال يمكن أن نقرر هنا أنه في خلال حكم الإمام أحمد بن سعيد (١٧٤١ ــ ١٧٨٣) استطاعت عمان أن يكون لها شأن في الخليج العربي، إذ امتدت حدودها في إتجاه الغرب إلى الأحساء والبحرين، كما وصل في الاتجاه الشرقي إلى حدود المهرة. أما في عهد سلطان بن أحمد (١٧٩٣ ــ ١٨٠٤)، فقد بلغت السيطرة العمانية على الخليج العربي أقصى حد لها في الاتساع حين نجح في عام ١٧٩٤ من السيطرة على ميناء بندر عباس، كما تمكن في عام ١٧٩٨ من الحصول على فرمان من الحكومة الفارسية، أجاز له ضم الميناء بملحقاته؛ جوادر وشوربها، الواقعتين على ساحل مكران، نظير أجر سنوي، وبذلك استطاع حكم عمان أن يكون لهم المقام الأول في توجيه سياسة الخليج العربي.

وجهد خلفاء سلطان، وكان ابن أحمد، في الاحتفاظ بما آل إليهم من سواحل وموانئ، على أنهم حصلوا عليها بحق الغزو. وكانوا يتصرفون في إدارتها تصرف صاحب الأمر. بل نجد في الاتفاقية التي عقدها الإنجليز مع السيد سلطان بن أحمد في عام ١٧٩٨، أنه سمح للانجليز بإبقاء حامية لهم، وإنشاء مركز تجاري في ميناء بندر عباس، دون الرجوع في ذلك إلى الحكومة الفارسية[١٤٤].

---

(١٤٣) - Lorimer op. cit. P. 663-664.

(١٤٤) - Lorimer op. cit. P. 670.

ب ــ العلاقات بين عمان وساحل الخليج العربي:

عند ظهور الدولة البوسعيدية، وفي الفترة الأولى من حكمها؛ أي الفترة التي بدأت بالإمام أحمد بن سعيد، وانتهت بعهد سلطان بن أحمد، لم يكن هناك قوى محلية متميزة على الساحل الغربي للخليج العربي، بل كان هناك تجمعات قبلية تحترف الغوص، وصيد الأسماك. وقد كانت الأسرة البوسعيدية، وخصوصاً مؤسسها الإمام أحمد، لها السيطرة الفعلية على معظم أجزاء تلك المنطقة؛ حيث إن عمان كانت تشكل القوة الرئيسية بالنسبة للمجموعات القبلية، التي كانت تقطن المنطقة.

كان أهم هذه التجمعات القبلية في أواخر القرن الثامن عشر، ومطلع القرن التاسع عشر، القواسم والعتوب.

القواسم:

قبيلة عربية، تنتمي في الأصل إلى سكان نجد، ويعرف أبناؤها ببني ناصر ويسمون أيضاً بني الغافري، وكانت مواطنهم على يسار الكعبة. وقد احتلوا منطقة الصير في عمان[١٤٥]، في أواخر القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر، وأخيراً استطاعوا تشكيل بعض الإمارات على ساحل الخليج العربي، أهمها (الشارجة ورأس الخيمة)[١٤٦].

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر بدأ القواسم يشكلون قوة بحرية، استطاعوا بها أن يستولوا من قاعدتهم رأس الخيمة على بعض المدن الساحلية على الخليج العربي[١٤٧] ولقد لعب القواسم في أول

---

(١٤٥) أي ساحل عمان، والصير منطقة في رأس الخيمة، وقد ذكرنا حصن الصير في عهد اليعاربة.

(١٤٦) الشارقة ورأس الخيمة الآن ضمن دولة اتحاد الإمارات العربية.

(١٤٧) أحمد مصطفى أبو حاكمة: تاريخ الكويت جـ٢، قسيمة ٢، ص ١٥٤، الكويت ١٩٧٠.

الأمر دور « الوسيط » كما قلنا سابقاً، فلا نستغرب التحالف والانشقاق الذي كان أحد مبادئ هذه القبيلة، فنجدهم مرة يتحالفون مع عرب عمان، وأخرى مع فارس. وأخيراً حسموا الأمر، عندما تحالفوا مع الوهابيين، ليشكلوا الذراع البحري لهذه الدعوة، ويشكلوا في الوقت نفسه قوة أخذت تثير الانتباه، ويحسب لها ألف حساب في الخليج العربي..

ولقد امتاز تاريخ الخليج في هذه الفترة؛ أي فترة ظهور القواسم، بنشاط بحري قوي، اتسم بالقوة والضعف، فعمليات الاعتداء على السفن الأجنبية، والاستيلاء على محتوياتها، وتأديب بحارتها، هذه العمليات، التي تسمى في المفهوم السياسي الحديث « القرصنة »، كانت من السمات المميزة لنشاط القواسم، وقد سيطروا بكل قوة على الجزء الشمالي الغربي لعمان، فيما بين رأس الخيمة ودبي[١٤٨].

ومن الملاحظ أن ذلك النشاط الحربي كان في معظمه، إن لم يكن في كله، موجهاً ضد دول عدها القواسم في ذلك الحين من الدول المعادية، وهي فارس، وعمان، وبريطانيا. ولم يكتف القواسم بالاعتداء على سفن تلك الدولة، بل إنهم قاموا بعدة عمليات حربية لاحتلال أجزاء من المناطق التابعة لتلك الدول.

ففي عام ١٧٢٠ استولى الشيخ راشد، حاكم رأس الخيمة على باسيدو في جزيرة قشم على الساحل الإيراني استمر أسطول القواسم يجوب الخليج مستشيراً كل شيخ صغير؛ لكي يعد قوارب مسلحة تقوم بهجمات غايتها النهب[١٤٩]، وفيما بين عام ١٧٦٥ و ١٧٧٢ م كان القواسم يسيطرون على جزيرة قشم ولافت ولنجه، بل أخذوا

---

(١٤٨) صادق حسن عبدواني: المصدر السابق، ص ٤٠.

(١٤٩) لوريمر: دليل الخليج، جـ٢، ص ٩٦٦.

يتوسعون في جميع أملاك ملا علي[١٥٠] الذي كان حكمه يمتد على هرمز، وجمبرون (بندر عباس)، وميناب، في عهد نادر شاه[١٥١]، لقد أدى صراع القواسم مع الفرس إلى تحالف حربي مع حاكم عمان، ففي سنة ١٧٧٢ تحالف الشيخ راشد، حاكم رأس الخيمة، الذي خلف أباه الشيخ مطر مع إمام عمان بوساطة واليه خلفان، وحاكم مسقط ضد الفرس، وقد استطاع المتحالفون أن يحطموا سفينتين من نوع (جالبوت)، بالقرب من بندر عباس، ومخزناً كان الجيش الفارسي، قد أقامه في لنجة[١٥٢].

وقد برزت القواسم، كقوة تمثل خطراً حقيقياً ضد الإمام، ولم يتوقف اعتداء القواسم على السفن العمانية، ففي سنة ١٧٧٥ م كان إمام مسقط في حرب مع الشيخ راشد، الذي استولى على بعض القوارب، بالقرب من بوشهر؛ لأنها كانت تحمل شحنات لمسقط، وفي ١٧٨٣ م قام أحد زعماء القواسم بغارة على الرستاق، عاصمة عمان الداخلية[١٥٣].

وعلى الرغم من تلك الحروب إلا أن العلاقات بين عمان والقواسم، الذين اتخذوا من رأس الخيمة قاعدة لهم، لم تكن عدائية كلياً، خصوصاً أنهم يمثلون قوة وسطية بين الأطراف المتنازعة، فقد رأينا التحالف بين إمام مسقط والقواسم ضد فارس. إلا أنه في غياب العدو المشترك

---

(١٥٠) كان ملا علي أمير البحر الإيراني في الخليج في عهد نادر شاه.

(١٥١) - Historical Sketch of the rise and progress of the Government of Muskat, Commencing with the year 1694-95 and continued to the year 1819 By MR FRANCIS WARDES member of the concil at Bombay H.S.G.M. Francis Wardes Paragraph 2.

وسوف نشير إليه في المرات القادمة H.S.G.M.

(١٥٢) - IBID paragraphe 3.

(١٥٣) - Lorimer op. cit vol. 2p. 970.

كانت العلاقة تعود إلى توترها، كما حدث في عام ١٧٧٥، حين بدأت المعارك من جديد بين الحاكمين في البر، ثم انتقلت إلى البحر، عام ١٧٨٣ م[١٥٤].

وفي عام ١٧٩٨ عقد صلح آخر بين السيد سلطان وشيخ القواسم؛ للتفرغ للمطالبة بحقوق الحملة، (التي ساعد فيها والده الإمام أحمد) حاكم بغداد في أثناء حصار الفرس للبصرة[١٥٥].

إلا أن صراع السيد سلطان مع القواسم تجدد مباشرة بعد انتهاء نزاعه مع حكومة بغداد، فقد قام بهجوم بحري على دبي عام ١٧٩٧.

تطور نشاط القواسم البحري بعد هذه السنة، وأصبح القواسم يهاجمون، في هذه الفترة، جميع السفن التجارية (الإيرانية والعمانية والإنجليزية)، فأدت هذه العمليات إلى اضطراب الملاحة في الخليج، مما قرب وجهات نظر كل من الإنجليز وحكام عمان؛ للعمل على الحد من نشاط القواسم.

فقامت بريطانيا بشن سلسلة من الحملات البحرية ضد القواسم، شارك فيها الأسطول العماني بشكل واضح، وانتهت الحملة بنجاح الإنجليز في الحد من نشاط القواسم[١٥٦].

العتوب:

العتوب قبيلة عربية تنتمي إلى عنزة، إحدى كبريات القبائل العربية، وكان موطن العتوب نجد، وإلى العتوب ينتسب (آل الصباح حكام الكويت، وآل خليفة حكام البحرين). ولقد هاجرت هذه القبيلة في

---

(١٥٤) صادق حسن: المصدر السابق، ص ٣١، وكذلك لوريمر: ٦٤٨.

(١٥٥) - Lorimer op. cit P. 652.

(١٥٦) زكريا قاسم: دولة البوسعيد، المصدر السابق، ص ٨٢.

أواخر القرن السابع عشر الميلادي من موطنها الأصلي إلى شبه جزيرة قطر، ثم أبحروا إلى الكويت(١٥٧).

وكان العتوب الذين أبحروا إلى الكويت يتكونون من اتحاد أسري ثلاثي ـــ الصباح آل خليفة ـــ الجلاهمة) على أن ذلك التحالف، الذي كان قائماً بين تلك الأسر الثلاث، لم يستمر طويلاً، فقد غادر آل خليفة الكويت، وانتقلوا إلى الزبارة، وهي ميناء يقع في شبه جزيرة قطر، مواجهة لجزر البحرين، ثم تبعهم بعد ذلك الجلاهمة، بينما بقي آل الصباح في الكويت(١٥٨) انتهز عتوب الزبارة حالة الفوضى التي سادت الخليج العربي بعد موت كريم خان، واستطاعوا أن يحتلوا البحرين في عام ١٧٨٢، وكرسوا جهدهم لمزاولة التجارة، مما أدى إلى ازدهار النشاط التجاري في تلك الجزر(١٥٩).

ونتيجة لهذا التطور السريع، ونجاح آل خليفة بالتجارة أصبحت مسألة استرداد البحرين هدفاً، ليس فقط لحكام بوشهر الخاضعين اسمياً لفارس، بل أصبح جزءاً من سياسة حاكم فارس نفسه. ولكن وفاته عام ١٧٨٥ م حول الإتجاه من البحرين إلى التنافس على وراثة العرش، وبالتالي أتيح لحكام البحرين أن يحتفظوا بالبحرين بهدوء تام، حتى عام ١٧٩٩.

ومنذ عام ١٧٩٩ أصبح احتلال البحرين من مهمة حكام عمان، وليس من مهمة الفرس. وكان حاكم عمان مستعداً للقيام بحملات ضد البحرين، سواء بالتعاون مع الفرس أو بدونهم، ففي هذا العام قاد السيد سلطان بن أحمد حملة ضد البحرين، ونظراً إلى أن حكام البحرين لم يكونوا يملكون إلا أسطولاً بحرياً صغيراً، وقد كان متجهاً إلى الهند في أثناء الحملة العمانية قام السيد سلطان بأسر هذا الأسطول

(١٥٧) أحمد مصطفى أبو حاكمة: تاريخ الكويت، جـ١، ص ١٠٢ ـــ ١٠٣.
(١٥٨) زكريا قاسم: دولة البوسعيد، المصدر السابق، ص ٧٦ ـــ ٧٧.
(١٥٩) صادق حسن عبدواني: المصدر السابق، ص ٥٣.

وأخذه، وعلى الرغم من ذلك إلا أن حاكم عمان لم يغامر بالنزول إلى البر، بل عاد أدراجه إلى عمان(١٦٠).

بعد هذه الحملة حاول حكام البحرين أن يجدوا حليفاً لهم يحميهم من هجمات أخرى، وقد حاولوا أن يدفعوا مبلغاً من المال إلى حكام فارس، مقابل حمايتهم من أي اعتداء، ولكن الفرس مع استلام المبلغ لم يقوموا بأية اجراءات حاسمة لضمان سلامة البحرين من أي اعتداء خارجي(١٦١).

وفي ١٨٠٠ قام السيد سلطان بن أحمد بحملة أخرى، وقد ترتب على هذه الحملة أن سقطت البحرين كلها تحت يده، وأسر السيد سلطان عدداً كبيراً من أهل البحرين وأخذهم إلى مسقط، كما وضع حامية عسكرية كبيرة لضمان تبعية البحرين لعمان. وفي الوقت نفسه طارد القوات الهاربة إلى الزبارة أو القرين (الكويت). وعين ابنه سالماً نائباً عنه لرعاية مصالح عمان في البحرين. ولكن نظراً لصغر سن سالم، فقد عين والياً معه يساعده في الحكم، وهو أحد المناهضين لآل خليفة، ويدعى محمد بن خلف.

وقد أدى هذا الاحتلال إلى استنجاد العتوب بالوهابيين لأول مرة، وذلك لمساعدتهم في طرد العمانيين، وقد استطاع الوهابيون أن يجبروا والي الإمام وابنه بمغادرة الجزيرة(١٦٢).

الوهابيون:

الوهابيون هو الاسم الشائع، الذي يطلق على أتباع محمد بن

(١٦٠) المصدر نفسه: ص ٥٤.

(١٦١) لوريمر: المصدر السابق، ص ١٢٧٥.

(١٦٢) – H.S.B. Francis Wardes paragraphe 23.

عبدالوهاب، ولو أنهم في بعض الأحيان يطلق عليهم لقب « الموحدين » أو « السلفيين »[١٦٣].

وما قام به هذا الرجل المصلح لا يتعدى عن ثورة على ترهل الدين وابتعاده عن أصوله، بالضبط مثل أية حركة إصلاحية تدعو إلى الرجوع إلى أصول الدين، ونبذ « الخرافات » الناتجة عن عدم فهم مبادئ الدين، وللتقريب، فهي حركة تشابه ما قام به مارتن لوثر الألماني في العصور الوسطى، عندما احتج على الكنيسة وتصرفاتها.

ولد محمد بن عبدالوهاب عام (١١١٥ هـ ــ ١٧٠٣ م) في بلدة العُيينه وكانت في حينها مزدهرة ومتطورة، وكان صاحب العيينه ابن معمر. قاضي البلدة، فكان عبدالوهاب بن سليمان (والد محمد بن عبدالوهاب)، الذي استطاع أن يوفر لابنه المناخ والتربية الدينية[١٦٤].

في هذا الجو الديني ظهر نبوغ محمد بن عبدالوهاب في المجال الديني، فعندما كان في التاسعة من عمره، كان قد حفظ القرآن، ثم قرأ على والده الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل.

واصل محمد بن عبدالوهاب دراساته في الفقه الديني، فذهب إلى مكة، ثم إلى المدينة، وبعد ذلك ذهب إلى البصرة، وهناك بدأ يدعو لمذهبه، وهو مذهب « التوحيد » وأخرج من البصرة بسبب دعوته هذه.

رجع إلى نجد، وأخذ يدعو الناس إلى إنكار العادات والبدع المنتشرة بين جموع المسلمين، وتميزت دعوته في بداية الأمر بالأسلوب السلمي، وعدم استعمال العنف. ولكن بعد وفاة والده (١١٥٣ هـ ــ ١٧٤٠ م)

---

(١٦٣) مجلة الخليج والجزيرة العربية عدد ٥ يناير ١٩٧٦ ص ١٢ جامعة الكويت.

(١٦٤) عبدواني: المصدر السابق، ص ١٨.

بدأ يدعو جهراً بين أفراد مجتمعه، ولكنه اكتشف أن دعوته لن تنجح إلا إذا كانت هناك قوة تسندها.

حاول التحالف مع شيخ العيّينة، ولكن تحالفه لفت نظر حكام الأحساء الأقوياء، الذين ضغطوا على شيخ العيّينةِ؛ للتخلص من دعوة محمد بن عبدالوهاب. وأخرج من العيّينه وتوجه إلى الدرعية[١٦٥].

كانت الدرعية في[١٦٦] في ذلك الوقت (أي ما يقارب ١٧٤٥) مجرد قرية صغيرة تائهة في أعماق الصحراء يحتمي بأسوارها الطينية الواطئة فريق من الفلاحين البسطاء، الذين عزلتهم قساوة الحياة الصحراوية وشظافة المعيشة المتخلفة عن العالم الخارجي، وكان شيخ هذه القرية من آل مقرن، ويدعى محمد بن سعود[*].

كان محمد بن عبدالوهاب يطمح إلى نشر أفكاره التوحيدية، وكان مشايخ آل مقرن يطمحون لنشر نفوذهم وسلطتهم العشائرية إلى ما وراء أسوار القرية، تم التحالف الديني السياسي، بين الأمير محمد بن سعود، وبين محمد بن عبدالوهاب، وضمن هذا التحالف حددت الصلاحيات. فقد تخلى الأمير السعودي للشيخ عن السلطة التشريعبة في مقابل تخلي. الشيخ له ولأبنائه عن السلطة التنفيذية، ولقد لعبت زوجة الأمير محمد بن سعود دوراً مهماً في خلق هذا التحالف[١٦٧].

وعندما تقابل الرجلان قال الأمير لعبدالوهاب « أبشر ببلاد خير من بلادك، وأبشر بالعزة والتمكين، وهذه كلمة « لا إله إلا الله » من تمسك

(١٦٥) عثمان بن بشر النجدي الحنبلي (المعروف بابن بشر): عنوان المجد في تاريخ نجد، ص ١١، الجزء الأول، طبع مكتبة الرياض (السعودية)، بدون تاريخ.

(١٦٦) تقع الدرعية على حافتي وادي حنيفة، وتبعد عن مدينة الرياض حالياً قرابة ١٨ كم.

(*) ينسب إليه آل سعود، حكام المملكة العربية السعودية حالياً.

(١٦٧) اسمها موضي بنت وطبان.

بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد... »[١٦٨].

بعد هذا التحالف السياسي الديني، بدأ نجم الوهابيين بالبروز، وأخذوا يشنون حملاتهم في كل شبه الجزيرة العربية، واعتمدوا على الميليشيات الدينية، التي عرفت بالإخوان فيما بعد[١٦٩].

في بداية ١٨٠٠ م وجه الوهابيون أولى حملاتهم في إتجاه عُمان، بقيادة سالم بن بلال الحارق، وفي بداية فبراير من هذا العام توجهت الحملة صوب واحة البريمي، حيث لقيت مقاومة من قبل قبائل بني ياس، ولكنها تمكنت من إخضاعها، ثم هاجم القائد السعودي الظاهرة، وهو إقليم في شمال عمان، ودان له في النهاية سكان هذه المنطقة[١٧٠].

كان لسقوط البريمي تحت السيطرة الوهابية أثر قوي في تاريخ المنطقة كلها، فهذه الواحة التي تقع على سفوح جبال الحجر الغربي تعد في الواقع من المناطق الإستراتيجية المهمة لمنطقة غرب وشمال عمان. اتخذ القائد الوهابي من هذه المنطقة قاعدة له للانقضاض على عمان، مما اضطر السيد سلطان إلى التحالف مع القواسم، شيوخ رأس الخيمة، وسار بقواته إلى البريمي، ولكن نتيجة هذا اللقاء الأول لم يكن لصالح السيد سلطان، فعقد هدنة مع القائد الوهابي، ورجع إلى صحار.

استطاع سلطان في هذه الفترة من توقف الحروب أن يواصل تنفيذ خططه في الخليج، ويحرز فيها شيئاً من النجاح، كما رأينا عندما احتل البحرين.

---

(١٦٨) ابن بشر: المصدر السابق، ص ١٢.

(١٦٩) مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية عدد ٥ يناير ١٩٧٦ ص ٩ — ٢٦ جامعة الكويت.

(١٧٠) - KELLY, J.B. Eastern Arabian frontiers P. 310 London 1964.

كما أن السيد سلطان حاول الإتصال بأشراف مكة، الذين كانوا يحاولون الدفاع عن إقليم الحجاز ضد هجوم الوهابيين. وعندما كان السيد سلطان في الحج قدم للأشراف بعض المال والعتاد.

استاء أمير الوهابيين لما فعله حاكم عمان، وعد ذلك تدخلاً في شؤون الحجاز، فأعلن الحرب ضده، ووجه نداءه إلى القواسم، في رأس الخيمة، وإلى العتوب في البحرين والكويت، للإنضمام إليه، ولكنهم لم يكونوا راغبين في التضحية بموسم اللؤلؤ، فاستجابوا لندائه بعد تردد، وخصوصاً قبيلة العتوب.

خشيت السلطات الإيرانية والتركية هذا الخطر الذي يهدد شواطئها، فأبدت استعدادها في البداية لمناصرة السيد سلطان، لكن استعداداتهم هذه ظلت مائعة، تنقصها الشجاعة للاقدام على التنفيذ، ولربما ينقصها الوسائل العملية لتنفيذها.

بقي حاكم عمان وحده في مواجهة الوهابيين، ووجد نفسه أعجز من أن يقوم بعمل هجومي، وأن يحمي شواطئه من الهجوم البحري في الوقت نفسه، فقد نزلت فرقة من جنود الأعداء في جزيرة قشم، التي كانت تابعة في ذلك الوقت لعمان.

وأخيراً أرسل سلطان بعثة صلح للدرعية، وتم الإتفاق على هدنة مدتها ثلاث سنوات. على أن تدفع عمان جزية سنوية قدرها ١٢ ألف روبية (عملة هندية)، وأن يسمح لممثل سياسي ديني وهابي بالإقامة في مسقط، لكن هذه الهدنة لم تكد تبدأ حتى مزقها الوهابيون خصوصاً بعد أن فرغوا من معاركهم في الأجزاء القريبة من الجزيرة العربية.

قام القائد الوهابي سالم بن بلال الحارق بشن حملات جديدة على إقليم الباطنة في خريف عام ١٨٠٣، فأرسل حاكم عمان قوة عسكرية إلى شمال مدينة السويق، التي تقع على الساحل الشرقي لعمان بين

مسقط وصحار، وعلى بعد مائة كيلومتر تقريباً من العاصمة مسقط، لصد تقدم الوهابيين، ولكن القوة العسكرية سحقت، وأبيد كل أفرادها.

أمام هذه الهزائم المتلاحقة عقد السيد سلطان مؤتمراً عاماً، حضره ممثلون من آل بوسعيد واليعاربة، ومعظم رؤساء وشيوخ القبائل، وانعقد الإجتماع في مدينة بركا، وهي مدينة تقع أيضاً على ساحل عمان الشرقي في إقليم الباطنة.

وناقش المؤتمر الوسائل العسكرية والمادية الواجب اتخاذها لردع العدوان، واتفقوا جميعاً على الإستمرار في المقاومة حتى آخر رمق، وحددوا الهدف الأول، وهو رفع الحصار عن مدينة صحار، التي كانت تعد مفتاح السيطرة على إقليم الباطنة.

وتقرر في المؤتمر أن تجتمع القبائل والقوات العسكرية في مدينة خابورة الواقعة في إقليم الباطنة على الساحل الشرقي العماني، وتقع بين مسقط وصحار.

وحين اجتمعت أعداد هائلة من هذه القوات في الخابورة، وتهيأت لشن هجوم شامل على صحار، بهدف رفع الحصار عنها، نما إلى سمع القائد السعودي « سالم بن بلال الحارق » نبأ اغتيال الأمير عبدالعزيز بن سعود في الدرعية، وكان ذلك في أواخر رجب من عام ١٢١٨ هـ، الموافق ٤ أكتوبر ١٨٠٣ م.

عندئذٍ انسحب القائد الوهابي إلى واحة البريمي، وآثر البقاء هناك، وفي الوقت نفسه رضي القادة العمانيون بهذا الجلاء المؤقت عن إقليم الباطنة، وتفرقت قوات القبائل[١٧١].

---

(١٧١) لوريمر: المصدر السابق، ص ٦٦٦ ــ ٦٦٨، وكذلك عبدواني: ص ٥٩ ــ ٢٧، وكيلي: المصدر السابق، ٥٦ وبادجر: المقدمة IX,IIX وابن رزيق: صحيفة ٣١٠ ــ ٣١٣.

وفي سنة ١٨٠٤ جدد الوهابيون نشاطهم لفتح عمان فتحاً شاملاً، وقد اتخذوا من بركا قاعدة لهم، وقد طلب السيد سلطان من الإنجليز والترك المساعدة، ولكن لم يجد منهم إلا الوعود، فاضطر الإعتماد على قوته الذاتية. وفي سبتمبر سنة ١٨٠٤ قام بحملة بحرية في الخليج، وفي رجوعه إلى مسقط هاجم القواسم السيد سلطان، الذي قد ترك سفينته الكبيرة « جنجافا » إلى سفينة أصغر تدعى (بردى)، للذهاب إلى بندر عباس، وعندما تجاوزت هذه السفينة نطاق عون الأسطول العماني، هاجمتها ثلاث سفن بحرية للقواسم، وأصابت السيد سلطان طلقة في رأسه فقتلته، ودفن على شاطئ البحر حوالي منتصف نوفمبر ١٨٠٤[١٧٢].

خلف موت السيد سلطان آثاراً سياسية خطيرة بين أفراد الأسرة الحاكمة فقد نشأت في مسقط عقب وفاته مشكلة في غاية الأهمية والصعوبة إذ إن السيد / سلطان لم يخلف عند موته إلا ولدين قاصرين هما سالم وسعيد. فكانا تحت وصاية محمد بن ناصر الجبري، وهو قريب للسيد سلطان من ناحية أمه. وفي الوقت نفسه كانت هناك شخصية أخرى قوية، تعمل تحت الستار في هذه الفترة، ومهيمنة على الأمور السياسية في القصر إلى حد كبير هي موزة بنت الإمام أحمد لكونها عمة القاصرين.

وأول من ظهر في ساحة المعارضة لحكم القاصرين قيس بن الإمام أحمد، وقد كان في هذه الفترة والياً على صحار. واستطاع قيس أن يكتسب تأييد كل من أخيه الإمام سعيد بن أحمد، وكذلك تأييد محمد بن الإمام، وكان في هذا الوقت والياً على مدينة السويق، وبعد ضمان هذا التأييد قام بشن هجوم قوي، استطاع من خلاله السيطرة على

(١٧٢) - Lorimer op. cit. P. 679-680

إقليم الباطنة كلها، ثم قوى سيطرته على طريق (خابورة ـــ سيب) ومن ثم فرض الحصار على مدينة مسقط بعد أن احتل مطرح(١٧٣).

كان كل من محمد بن ناصر، وموزة بنت الإمام يريان في هذه الظروف الحرجة، أن نفوذهما على وشك الإنهيار، ومن ثم لم يجدا من وسيلة غير الاتصال ببدر بن سيف، الذي كان من منافسي السيد سلطان في الحكم، وتمكن خلال السنين الماضية من كسب وتأييد الوهابيين إلى جانبه، عندما قام بانقلاب غير ناجح على السيد سلطان في أثناء وجوده في الحج، مما اضطره أن يلتجئ إلى الدرعية عاصمة الوهابيين، وبعد ذلك اتخذ من الزبارة مقراً له.

استطاع بدر، بمساعدة الوهابيين، وبقوة من الغافريين، يقودها محمد بن ناصر، أن يوقع الهزيمة في قوات قيس، فتوصل الطرفان إلى اتفاق، منح بموجبها قيس بعض المواقع في إقليم الباطنة، بالإضافة إلى صحار، واعترف بسلطة بدر بن سيف على مسقط.

إلا أن الإشتباكات سرعان ما تجددت بعد عدة أسابيع، مما اضطر بدرا أن يطلب المساعدة من الوهابيين من جديد، فقدمت قوة بحرية كبيرة شارك فيها بعض قبائل العتوب، وأدت المعارك من جديد إلى هزيمة قيس، وقبوله تسوية جديدة، قوامها أن يتخلى عن مدينة مطرح، مقابل راتب شهري قدره ألف روبية يدفعها له بدر بن سيف(١٧٤).

دور الوهابيين في النزاع العائلي في عمان

في عام ١٨٠٣ عندما ذهب السيد سلطان إلى أداء فريضة الحج قام بدر بن سيف بن الإمام أحمد بمحاولة انقلاب ضد عمه السيد

---

(١٧٣) عبدواني: المصدر السابق، ص ٧٨ ـــ ٧٩.

(١٧٤) ابن رزيق: المصدر السابق، صحيفة ٣٣١ ـــ ٣٤٠.

سلطان، ولكنه أخفق في هذه المحاولة، أدى إخفاقه هذا إلى هروبه إلى خارج عمان فذهب أولاً إلى عجمان(*)، ثم إلى زنجبار، والتجأ أخيراً إلى الزبارة، وعقد تحالفاً مع الوهابيين.

ونتيجة لهذا التحالف أمر القائد الوهابي القوات الوهابية المرابطة في غرب عمان أن تساند السيد بدر في محاولته غزو عمان. قام عام ١٨٠٤[١٧٥] بمحاولتين لاحتلال مسقط، ولكنه لم ينجح، وذهب مرة أخرى إلى الدرعية.

وعندما مات السيد سلطان كان بدر لا يزال في الزبارة، حيث كانت تتجمع قوة لمساعدته، فلما سمع بوفاة عمه، انطلق بصحبته بضعة من أتباعه في قارب صيد صغير، ووصل إلى عمان في الوقت الذي كان عمه قيس يحاصر مطرح ومسقط، وبناء على اتفاق مسبق تحركت القوات الوهابية لمساندته من مقرها الرئيسي في البريمي. ولم تتوجه إلى مسقط، حيث كان السيد / قيس يحاصرها، بل اتجهت القوات الوهابية لتحاصر صحار المقر الدائم لقيس. كما أن قوات كبيرة من الغافرية الموالين للوهابيين وصلت إلى مسقط[١٧٦].

في هذه الفترة (مطلع القرن التاسع عشر)، كان الوهابيون يهدفون إلى إيجاد حكومة تابعة لهم في عمان، ورغم أن السيد بدر كان المرشح لهذا الدور إلا أن الوهابيين شعروا بأن أي انتصار ساحق لبدر على منافسه قد يجعله قادراً على الإعتماد على نفسه، ومن ثم الإستغناء عن مساعدتهم؛ لذا عملوا بأن تبقى القوتان المتنافستان (قوة قيس

(*) عجمان الآن إحدى إمارات دولة اتحاد الإمارات العربية، وهي تقع بين دبي ورأس الخيمة على ساحل الخليج العربي.

(١٧٥) عبدواني: المصدر السابق ص ٨٠.

(١٧٦) – H.S.G.H. Francis Wardes paragraphe 47.

وقوة بدر) في حالة التكافؤ، وبالتالي يستمر استنزاف قواها[١٧٧].

وأدت تلك الظروف إلى عقد إتفاق صلح بين الطرفين، قبل بموجبه السيد/ بدر أن يدفع لقيس راتباً مقداره ألف روبية، بل أدت إلى أن بدراً ارتبط بمعاهدة مع الوهابيين، تضمنت تبعية عمان الصريحة للدولة السعودية الأولى، وكان أهم تلك البنود:

أن يساعد الوهابيون بدراً في حكمه على عمان، مقابل دفع مبلغ سنوي من المال إلى الدرعية. كذلك يقيم الأمير سعود أمير الوهابيين وكيلاً له في مسقط، يتولى جمع الزكاة، وكذلك أن تحتل قوة وهابية الأراضي المجاورة لمقاطعة بركا[١٧٨].

واجه بدر بعد استقراره في الحكم ظروفاً سياسية بالغة التعقيد؛ إذ إن تعدد الأطراف في الصراع الدائر بمنطقة الخليج في هذه الفترة. طرحت أسلوباً معقداً للتعامل، فكان على حاكم عمان الجديد، في الوقت الذي أعلن ولاءه وتبعيته للوهابيين، وارتبط بهم بمعاهدة أعطتهم الحق في فرض سيطرتهم على معظم أرجاء عمان. كان عليه في الوقت نفسه أن لا ينسى، كأسلافه، الصراع التقليدي مع المنافسين له في الخليج، ونعني بذلك القواسم.

ولكن خضوع القواسم لسيطرة الوهابيين أيضاً، فرض على الحاكم الجديد العماني اتباع جانب الحذر في عدائه ضد القواسم، وذلك حتى لا يسيء إلى علاقته مع الوهابيين.

ورغم أن السيد / بدر ظل متمسكاً بتعهداته مع الوهابيين، إلا أن العلاقات بين السيد / بدر من جانب، والوهابيين من جانب آخر، وصلت

(١٧٧) Lorimer op. cit P. 68. -

(١٧٨) زكريا قاسم: دولة البوسعيد، ص ١٣٣، انظر كذلك بادجر L.XVI.

إلى حالة فقدان الثقة، وذلك ناتج عن الحروب التي قام بها السيد / بدر ضد حكام قشم، حلفاء القواسم.

إلا أن بدراً استطاع أن يقنع الوهابيين بإخلاصه الدائم لهم، والتزامه بتعهداتهم القديمة، مما ساعد في رجوع العلاقات الودية بين الطرفين من جديد[١٧٩].

في ظل إعادة العلاقة الودية بين بدر والوهابيين، حاول بدر أن يقضي على منافسه السيد / قيس حاكم صحار، وقد قام بمحاولة لاسترداد مدينة الخابورة، ولكن هذه المحاولة أخفقت، ومن هنا تقرر عقد مؤتمر في بركا لدراسة الخطوات العسكرية، بقصد شن هجوم على صحار للتخلص من قيس نهائياً. إلا أن الداعين لهذا المؤتمر، وعلى رأسهم سعيد بن سلطان، كانوا قد خططوا لهدف آخر، وهو اغتيال بدر.

ما كاد بدر يصل إلى مدينة بركا، ويدخل قلعتها، حتى تقدم المتآمرون وطعنوه حتى الموت. وكان ذلك في ٩ يوليو ١٨٠٦، وقد أثرت الحامية الوهابية المرابطة في تلك المدينة الإنسحاب إلى البريمي، ريثما تنجلي الأمور[١٨٠].

---

(١٧٩) - Kelly, Britain and Persia Gulf P. 106.

(١٨٠) عبدواني: المصدر السابق، ص ٩٢ ـــ ٩٣.

الباب الثالث

عمان والتنافس الدولي

الفصــل الأول

العلاقات الفرنسية بالشرق
(١٧٨٩ — ١٨١٠ م)

خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر أرسلت شركة الهند الشرقية بوارج وعملاء استطاعوا أن يفتحوا مكاتب ووكالات تجارية على ضفاف الخليج العربي[١٨١].

وبذلك بدأت عملية الاهتمام والتنافس التجاري في منطقة الخليج العربي على المستوى العالمي بين الدول الاستعمارية في ذلك الوقت وخصوصاً بين انجلترا من جهة وبين فرنسا من جهة أخرى.

ظهرت فرنسا كمنافسة لبريطانيا في البحار الشرقية بعد ثورة ١٧٨٩ وخاصة بعد حملة نابليون بونابرت على مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١)[١٨٢].

وحتى قبل الثورة الفرنسية قد حاولت فرنسا الحصول على مكاسب

(١٨١) - VADALA R., "de golfe persique". Paris 1920. P. 62.

(١٨٢) - VADALA, cf Bibl, P. 26.

تجارية لها في الخليج العربي والبحار الشرقية، مثل بقية الدول الأوروبية. وكان اهتمام الغربيين منصباً على التوابل والأحجار الثمينة بوجه خاص.

وفي سنة ١٦٦٤ تأسست « الشركة الفرنسية للهند الشرقية »(١٨٣) واستطاعت فرنسا بعد ثلاث سنوات أن تفتح مكتباً تجارياً في بندر عباس، وقد كتب الدكتور « فرير » (FRYER) الذي زار المنطقة في تلك الفترة يقول: « إن عمل الفرنسيين في هذا المرفأ قليل جداً مثل نشاط فرنسا في الموانئ الأخرى وبالنظر لأن ممثل فرنسا يتباهى بكسبه الكثير من تجارة النبيذ؛ حيث إنه يشرف على معصرة نبيذ لفرنسا كما لبقية الدول الأوروبية الأخرى في « سيراف » فإن وضع الفرنسيين لا يتحسن، ولكن هذا الفرنسي يقيم بهدوء هناك لا مهمة له سوى أن يزور أو يزار. وهو يعامل الجميع بلطف لا يفرق بين المسيحيين والأهالي، هكذا يقضي وقته(١٨٤).

وفي سنة ١٦٦٨ كانت للفرنسيين تجارة محدودة مع البصرة، وفي سنة ١٦٩٦ وقعت الدول الأوروبية على معاهدة لم تجد طريقها للتنفيذ، هذه المعاهدة التي تقضي بنودها بأن تتولى فرنسا الدفاع عن منطقة الخليج العربي ضد القراصنة، وتتولى بريطانيا أمر الإشراف على شمال الهند، بينما تشرف هولندا على البحر الأحمر(١٨٥).

وفي سنة ١٧٣٥ وصلت سفينة فرنسية إلى بندر عباس، حيث حصل الفرنسيون على حق فتح مكتب تجاري لهم هناك. ثم فتحوا في ١٧٥٥ مكتباً آخر في البصرة(١٨٦).

وفي ١٤ يناير ١٧٥٨، وصلت سفينة حربية فرنسية، تدعى

(١٨٣) - AZIZOLLAH, M.E. de golfe persique et les îles Bahrein paris 1936, P. 34.

(١٨٤) - ARNOLD. T. Wilson, of Bibl. P. 167.

(١٨٥) dorimer, cf B. bl. 35.

(١٨٦) - IBID. P. 133.

« لوبرستول » Le Bristole إلى ساحل بندر عباس، حيث بقيت عدة أيام بين قشم وهرمز، قبل أن تتجه نحو البصرة.

وفي سنة ١٧٥٦ اندلعت حرب السنوات السبع بين فرنسا وبريطانيا، التي دامت حتى ١٧٦٣، ولم تقتصر هذه الحرب على الساحة الأوروبية، بل تجاوزتها إلى المستعمرات، وهكذا، ففي أكتوبر ١٧٥٩ شن الأسطول الفرنس هجوماً على المكتب التجاري الإنجليزي في بندر عباس، واحتله ودمره تدميراً كاملاً(١٨٧).

وحاول الفرنسيون قبل ثورة ١٧٨٩ أن يقيموا علاقات مع عمان، مما يدل على مدى الأهمية التي كانت تتمتع بها مسقط، كعاصمة لعمان، كما كان يشير إلى ذلك ممثلو فرنسا في جزيرة فرنسا، وفي بغداد(١٨٨).

وكان هؤلاء الممثلون يريدون أن يجعلوا من مسقط مركزاً للتجسس على الإنجليز في الهند. وترددت باريس أمام هذا المشروع، غير أن تدفق الرسائل جعل الحكومة الفرنسية تقرر فتح قنصلية لها في عمان (مارس ١٧٨٨)(١٨٩).

وفي رسالة موجهة من وزير الخارجية الفرنسية إلى السيد روسو «Rousseau» قنصل فرنسا في بغداد، نقرأ ما يلي: « إن إلحاح إمام

(*) سيراف الاسم القديم لجزيرة هرمز الحالية.

(١٨٧) - IBID. P. 102-106.

(١٨٨) جزيرة فرنسا، وتدعى جزيرة موريس، اكتشفها البرتغاليون سنة ١٥٠٥، ثم احتلها الهولنديون سنة ١٥٩٨، وسموها باسم حاكمهم موريس، فلما حل الفرنسيون محل الهولنديين في هذه الجزيرة سموها جزيرة فرنسا، وجعلوا منها مركزاً تجارياً (١٧١٥ — ١٨١٠).

(١٨٩) - Archives de minister des affaires étrangère (A.M.A.E) Mascate. vol. 1 P. 39; Lettre du ministre des affaires étrangères à Rousseau en dante du 11.3.1788.

عمان على أن يكون عنده ممثل لفرنسا وملاحظاتك عن أهمية مسقط بالنسبة لمملكة فرنسا الملاحية، إضافة إلى التجارة، ومداخل الهند، كل ذلك دفعنا لأن نقيم قنصلية »[١٩٠].

ولكن قيام الثورة الفرنسية ١٧٨٩، وفي هذه الفترة بالذات، ووسط عاصفة الأحداث وقعت مسألة قنصلية مسقط تحت ستائر النسيان.

إن « الحقبة النابليونية » في الشرق الأوسط، إذا جاز التعبير، تمتد من نهاية القرن الثامن عشر إلى بداية القرن التاسع عشر، وتبدأ مع الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٩، لتنتهي بخسارة وفقدان « جزيرة فرنسا » سنة ١٨١٠ لصالح الإنجليز[١٩١].

وقد تأثرت السياسة الإنكليزية في آسيا خلال هذه المرحلة بالسياسة الفرنسية في الشرق، هذه المتاعب هي إحدى الأسباب الرئيسة التي خلقت استراتيجية بريطانية جديدة، مفادها أن أصبح الخليج العربي واحداً من خطوط الدفاع الرئيسة لبريطانيا العظمى في دفاعها عن مستعمراتها في الهند. وامتدت الحرب الدبلوماسية بين فرنسا وانجلترا إلى أربع مناطق، مصر، وبغداد، وبلاد فارس، والخليج العربي، وخصوصاً عمان.

وكانت الإستراتيجية الفرنسية الخاصة بالهند تستهدف جعل البحر المتوسط نقطة انطلاقة لفتوحاتها الآسيوية ولانتزاع المستعمرات من أيدي الإنجليز. وضمن هذا الإطار يجب أن نفهم حملة نابليون على مصر. وقبل ذلك بقليل تم إرسال بعثات فرنسية إلى الشرق الأوسط؛ لتحديد الأهمية الإستراتيجية لهذه المناطق.

بعد الحقبة « النابليونية » حاولت فرنسا عقد صلات مع عمان، ولكن

---

(١٩٠) – IBID, P. 40 (en dante du 14 mai 1788, voir cette lettre dans L'annexe no, 2). ect.

(١٩١) – Lorimer, cf. Bible vol I part IA, P. 169

سياستها كانت مترددة جداً في تلك الفترة. وكانت بريطانيا قد سبقتها في مشروعاتها بأن عقدت مع عمان معاهدتي ١٧٩٨ و ١٨٠٠، ولم تتوان فرنسا مع ذلك عن مواصلة نشاطها الدبلوماسي، فنجحت في عقد اتفاقية مع عمان بعد ٤٤ سنة من أي معاهدة عقدت بين عمان وبريطانيا، وذلك سنة ١٨٤٤، وبالتالي، ان سياسة عمان قامت على المراوغة بين هاتين القوتين الأوروبيتين الكبيرتين المتنافستين.

شكلت « جزيرة فرنسا » قاعدة للصراع الفرنسي ضد بريطانيا في الشرق، وبدأت فرنسا بشن هجمات متواصلة على المكاتب التجارية الإنكليزية، ففي ١٧٩٩ تم اعتراض السفينة البريطانية « بيرل »، بعد معركة بحرية، وفي سنة ١٨٠٠ بدأت بارجتان حربيتان فرنسيتان بمراقبة السفن البريطانية حول ميناء عدن، وبعد ثلاث سنوات فتش الطراد الفرنسي « لوفورتين » مركباً بريطانيا يدعى « فلاي » وقاده إلى بوشهر، وقد قدرت الخسائر الإنكليزية في كلكوتا بسبب الهجمات الفرنسية المتواصلة بثلاثمائة ألف جنيه استرليني سنة ١٨٠٧.

ولكن إخفاق حملة مصر (١٨٠١)، ثم فقدان « جزيرة فرنسا ١٨١٠، وضعا حداً للتحركات الفرنسية في منطقة الخليج العربي، وبسبب قلقهم من نوايا نابليون في آسيا، فقد رد الإنكليز على الغارات الفرنسية بهجومات كبيرة، ولم يضعوا حداً للنفوذ الفرنسي في الشرق الأوسط، إلا بعد جهد جهيد.

كان الصدام بين بريطانيا وفرنسا قد أصبح أمراً لا يمكن تجنبه في مصر، حيث الوجود الفرنسي كان يشكل خطراً حقيقياً على السيطرة الإنجليزية في البحر. ومنذ سنة ١١٧٩؛ أي قبل أن تنخرط فرنسا بصورة حاسمة في شئون الشرق.

كانت بريطانيا العظمى قد أوجدت لها معتمدية في بغداد، بهدف فرض هيمنتها على الباشا، ولتدارك أمر مبادرات نابليون بونابرت المتعاظمة

الشأن في الشرق، وهكذا، ففي سنة ١٧٩٩ توصلت بريطانيا إلى ميثاق دفاعي مع تركيا، هدفه الأول طرد الفرنسيين من مصر. وفي اكتوبر ١٧٩٨ أبرم الإنجليز اتفاقية وطدت التحالف مع سلطان عمان.

في يناير ١٨٠٠ استطاع الكابتن جون مالكوم ممثل بريطانيا تجديد المعاهدة مع عمان قبل أن يدخل في المفاوضات مع الشاه في بلاد فارس، التي بدأت في مطلع عام ١٨٠١، هذه المفاوضات التي عززت الوجود البريطاني في الخليج العربي.

بعثة « بروفيير BRUGUIERE وأوليفييه G.A. OLIVIER ١٧٩٣ ــ ١٧٩٨.

قام مؤرخان فرنسيان، هما بروفيير، وأوليفييه، بواحدة من أهم البعثات الفرنسية إلى الشرق الأوسط، فقد تجول المؤرخان طيلة خمس سنوات عبر تركيا ومصر مروراً بالعراق وبلاد فارس، وكما كانت الخطة موضوعة قبل الثورة الفرنسية قطفت « حكومة المديرين » في فرنسا ثمار المشروع[١٩٢].

لم يكن هدف المؤرخين الفرنسيين المحدد إجراء مفاوضات دبلوماسية، وما يمكن قوله هو أن البعثة كانت قد جاءت في شهر مايو ١٧٩٣، حيث أقاما حتى نوفمبر، وقد استفادوا من إقامتهما لإجراء بحث مفصل عن التاريخ الطبيعي والتجاري والسياسي لتركيا، ثم توجها إلى مصر حيث مكثا من ديسمبر ١٧٩٤، إلى مايو ١٧٩٥، قبل أن يعودا إلى تركيا.

وبعد أن غادرا القسطنطينية عند نهاية شهر أوغسطس ١٧٩٥ توجها إلى بلاد فارس عبر حلب حيث مكثا ثلاثة شهور من نوفمبر ١٧٩٥،

---

(١٩٢) G.A. OLIVIER., "Voyage dans l'impier ottoman, l'egypte et le Perse.

إلى فبراير ١٧٩٦. وفي بداية شهر أبريل ١٧٩٦ وصلا إلى بغداد، حيث التقيا بسليمان باشا حاكم العراق، وأجريا عدة لقاءات مع موفد الشئون التجارية الفرنسية « روسو »، وانضم إليها « كارمان » بصفته كاتباً ومترجماً. وفي ١٨ مايو ١٧٩٦ غادر الثلاثة بغداد متجهين إلى طهران، حيث وصلوها في ٢ يوليو. ولما كان حاكم بلاد فارس غائباً عن العاصمة فقد انتظروا مجيئه في بلدة قريبة. وعندما عاد الحاكم إلى مركزه أجرى بروفيير وأوليفييه سلسلة لقاءات مع رئيس الوزراء، وبعد أن حصلا على الوثائق المطلوبة الخاصة بتاريخ بلاد فارس سلكا طريق العودة، غير أن بروفيير لقي حتفه في مدينة أنكون Ancon وعاد أوليفييه وحده إلى فرنسا.

وحسب الطريقة التي تمت بها هذه البعثة يمكن الاعتقاد بأن الهدف الحقيقي منها كان دراسة الآفاق الاستراتيجية لفرنسا في الشرق الأوسط، وخاصة الامبراطورية العثمانية، ويمكن أن تكون حملة مصر قد تقررت بعد أن أخذت بعين الاعتبار بعض نتائج هذه البعثة[١٩٣]. ولم يكن لنتائج البعثة سياسياً سوى أهمية محدودة، إلا أن الباحثين الفرنسيين استفادا من الرحلة؛ ليعرضا على الحكام الذين إتصلا بهم اتفاقيات تجارية وعسكرية[١٩٤].

وكان المقيم البريطاني في البصرة قد قدم لحاكم بومباي معلومات مفادها أن بروفيير وأوليفيية يفكران بالتوجه إلى الهند، مروراً ببغداد وبلاد فارس، وتبعاً لذلك فقد تلقى المقيم البريطاني في بوشهر أمراً بأن يدبر مع ممثل شركة الهند الشرقية في البصرة أمر ملاحقة الفرنسيين، واعتقالهما، ثم ارسالهما إلى بومباي، ولكن الإخفاق كان نصيب هذه العملية.

---

(١٩٣) Lorimer, cf Bible P. 153.

(١٩٤) العقاد صلاح: التيارات، مرجع سابق، ص ٦٧.

حملة مصر

لم يكن نابليون بونابرت أول رجل سياسي يحلم بفتح مصر؛ إذ سبق أن دعا وزير الخارجية الفرنسي « ثاليران » إلى توجيه ضربة إلى بريطانيا من خلال احتلال مصر، وقد أقدمت عليها حكومة المديرين le directoire لسببين اثنين:—

أولهما: — قطع الطريق على بريطانيا عن مستعمراتها الشرقية.

ثانيهما: — الحلول محلها، وتوفير سوق للمنتجات الصناعية الفرنسية في مصر[١٩٥].

ولم يكن لهذه الحملة، التي أعدت بسرية تامة، أهداف سياسية واستعمارية فقط، وإنما كان لها هدف ثالث أيضاً (أي فرنسة مصر)، بدليل وجود ١٨٧ عالم وأديب وفنان صحبوا عسكر الحملة التي ضمت ٣٨ ألف جندي.

وفي ١٨ مايو ١٧٩٨ غادر جيش بونابرت ميناء تولون في فرنسا متجهاً إلى مصر، وبعد أن نجح في تجنب الصدام مع أسطول الأميرال الإنكليزي نلسون نزل وعسكر بونابرت في الإسكندرية في أول يوليو. وفي ٢١ يوليو وضعت معركة الأهرامات حداً لسيطرة المماليك على مصر، وفتحتها أمام الحضارة الأوروبية، ببضاعتها وثقافتها. ثم دخل بونابرت وجيشه القاهرة في ٢٣ يوليو ١٧٩٨.

ومع ذلك فإن نلسون لم يفقد الأمل في إنزال الهزيمة بنابليون في البحر، وبالفعل فقد نجح الأسطول الإنكليزي في مفاجأة الفرنسيين في مرسى « أبو قير »، ودمر كل سفنهم الحربية، وعزل الجيش الفرنسي في مصر[١٩٦].

---

(١٩٥) – Roux F. ch. Bonapart, gouverneur d'Egypte P. 3.

(١٩٦) – Guerre de la revolution française Tome. 7, PP. 323-24.

تركيا التي كانت تشعر بالقلق من التوسع الفرنسي في الشرق الأوسط، زجت بقواتها المسلحة إلى جانب بريطانيا، وبذلك تشكل تحالف كبير ضد « حكومة المديرين » الفرنسية، واحتشد جيشان تركيان أحدهما في جزيرة رودس، والآخر في سوريا، استعداداً لقتال الفرنسيين في مصر. وبما أن بونابرت أصبح معزولاً في مصر، فلم يكن بمقدوره أن ينتظر هجوم الجيش التركي دون أن يحرك ساكناً. ذلك أنه « إذا بقي الفرنسيون في مصر، فإنهم سيتعرضون لهجوم مزدوج من الجيش التركي، كما كان يخشى أن تنضم قوات أوروبية إلى الأتراك في هجومهم[١٩٧].

هكذا فلم يتبق أمام بونابرت سوى شن هجوم على السوريين، فاستولى على غزة ويافا، وقضى في ١٦ أبريل ١٧٩٩ على الجيش التركي الأول في جبل ثابور. ولكن وباء الطاعون قضى على جزء من جيشه، الذي أضعفته الهزيمة، التي حلت به في عكا، ووضعت حداً لتقدمه نحو سوريا، ورغم كل هذا إلا أن بونابرت تمكن من أن يحرم الأتراك من تحقيق نصر ثان عليه، واستطاع أن يدمرهم في البحر في أبو قير، ٢٥ يوليو ١٧٩٩.

ولكن الوضع أصبح حساساً جداً بالنسبة للفرنسيين، واضطر بونابرت وجيشه إلى مغادرة مصر وسط سرية مماثلة لتلك التي أحاطت بداية الحملة على مصر.

العراق: —

لقد سجل التاريخ أحداثاً ابتداء من القرن السابع عشر، تدل على محاولات فرنسا توسيع نفوذها في العراق، ولربما يكون أفضل طريقة لإبراز هذه المحاولات تتبعها.

---

(١٩٧) Guerre de la revolution française Tome 7 p. 406.

ففي عام ١٦٣٨ عينت فرنسا مندوباً لها في بغداد، هو برنارد دي فال Bernard du val، وفي عهد لويس الرابع عشر فتحت قنصلية لها في البصرة.

وفي سنة ١٦٣٩ وصل الرحالة الفرنسي المشهور « جان بابست تافارنيه Jean Baptiste Tavernier إلى البصرة، وقد كتب مؤلفاً ثميناً عن رحلته[١٩٨]. وفي سنة ١٦٦٩ وصلت إلى ميناء البصرة السفن الفرنسية الثلاث الأولى التابعة لشركة الهند الفرنسية. وفي سنة ١٦٧٤ أقام ابن سكرتير وكاتب ملك فرنسا في مركز أبناء الصليب. وفي الفترة نفسها أصدر الملك لويس الرابع عشر مرسوماً يعين بمقتضاه، ولمدى الحياة، رئيس الرهبان الكرمليين قنصلاً لفرنسا في البصرة. وفي سنة ١٧٣٩ تعاقب أحد عشر راهباً كرملياً على منصب القنصلية في البصرة، إلى أن تم تعيين أول قنصل علماني بعدهم، هو « بيير دي مارتان فيل Pierre de Martain-Ville الذي توفي في البصرة سنة ١٧٤١[١٩٩].

وقد تركت حرب السنوات السبع بين فرنسا وبريطانيا آثارها المباشرة في المستعمرات، فقد رست بوارج حربية فرنسية في ميناء البصرة، وبقيت هناك طيلة الحرب. وفي بداية ١٧٥٩ زار المقيم الفرنسي في البصرة الباشا سليمان، الذي منحه صفة الشرف في الاستقبالات الرسمية، بصفته أول مقيم أوروبي في البصرة[٢٠٠].

وبين ١٧٦٥ ــ ١٧٦٦ كان التمثيل الفرنسي يضم مقيماً في البصرة لا دخل له بالشئون التجارية هذا من جهة، ومن جهة أخرى يضم ممثلاً للكنيسة الرومانية وقنصلاً في بغداد، وقد جمع البطريق بييه Baillet المنصبين حتى وفاته سنة ١٧٧٣.

---

(١٩٨) – Tavernier J.B., voyage de M.J.B Tavernier, écuyer, Baron d'Aubonne en Turquie, en perse et aux Indes Nuvelle edition Paris 1724.

(١٩٩) – Vadala R., cf Bible., P. 26.

(٢٠٠) Lorimer, cf Bible P. 1238.

وفي سنة ١٧٩٦ تم تعيين روسو قنصلاً للشئون التجارية في بغداد، بينما كانت بعثة بروفيير وأوليفييه قد وصلت إلى العاصمة العراقية. وفي أثناء حملة مصر تفاهمت بريطانيا مع تركيا كما سبق أن أشرنا، وطلبت طرد الفرنسيين من الأراضي الخاضعة للنفوذ التركي. وفي أكتوبر ١٧٩٨ تلقى الباشا سليمان أوامر صارمة، مفادها وقف جميع نشاط قنصل فرنسا، والفرنسيين العاملين في بغداد، وعلى الباشا اعتقالهم، ثم إرسالهم إلى القسطنطينية. وابتداء من ١٧٩٩ حل الأتراك محل الفرنسيين في أعمال المكاتب التجارية الفرنسية في العراق، حيث التغلغل الفرنسي لم يدم طويلاً.

فارس: ــ

قامت فرنسا خلال الثورة بالعديد من المساعي، هي مجال اختلاف حول حقيقتها، للحصول على تحالفات مع بلاد فارس[٢٠١]. وقد تمت هذه المساعي بوساطة ممثلي فرنسا في سوريا والعراق. وقد سلطت السياسة الفرنسية الشرقية الأضواء على بلاد فارس، التي لعبت منذ ذلك الحين دوراً أكثر أهمية على المسرح الدولي. وفي خريف ١٨٠٤ عرضت فرنسا على بلاد فارس القيام بعمل مشترك ضد روسيا، إلا أن الشاه فتح الدين على تجاهل العرض الفرنسي لسببين اثنين:ــ

الأول: ــ أن الشاه كان يعتمد بالدرجة الأولى على عون كبير من بريطانيا.

الثاني: ــ أن فرنسا احتفظت، حتى ذلك الوقت بعلاقات طيبة مع روسيا مما جعل الشاه يشك في صدق نوايا الفرنسيين.

وعندما اندلعت الحرب بين فرنسا وبين القوى المتحالفة ضدها،

---

(٢٠١) Lorimer, cf. Bible P. 1574.

بما في ذلك روسيا عام ١٨٠٥، بعث نابليون الكولونيل «روميو» Romieu إلى طهران؛ للتوقيع على معاهدة بين فرنسا وبلاد فارس. وتضمنت المقترحات الفرنسية إرسال وزير فرنسي إلى طهران، وتقديم عون مالي للعمليات العسكرية، التي تقوم بها بلاد فارس ضد روسيا. بل إن نابليون عرض إرسال قوة فرنسية إلى جورجيا؛ لمساندة الجيش الفارسي هناك. وفي صيف ١٨٠٥ وصل الكولونيل روميو إلى عاصمة الفرس، في الوقت الذي كان فيه الشاه يشك في وصول العون، الذي وعدته به بريطانيا، مما سهل مهمة المبعوث الفرنسي. وعندما توفي روميو خلال أداء مهمته تابع جوبير Jaubert المفاوضات بدلاً منه الذي توجه إلى بلاد فارس سنة ١٨٠٦ في الوقت الذي كان الشاه فيه قد فقد كل أمل بوصول أي عون بريطاني. وهكذا فقد رضي بالعروض الفرنسية، وأرسل وفداً إلى فرنسا لإبرام إتفاقية بين البلدين، ركزت تحالفهما ضد روسيا. وكان من المتفق عليه ضمن الوفد الفارسي أن يعمل على إحياء الأمل في نفس بونابرت، بعون عسكري فارسي له في أفغانستان، حيث كان يقوم بعمليات عسكرية في ذلك الوقت. ولذلك، فإن الوفد الفارسي عرض على نابليون مكاناً لإقامة مركز حصين؛ لاستعماله كقاعدة عسكرية، يمكن أن تكون ذات فائدة لغزو المستعمرات البريطانية في الهند، وعلى هذا الأساس تم التوقيع في ٤ مارس ١٨٠٧[٢٠٢] على اتفاق فانكنستين Finckenstein غير أنه في الوقت الذي تم فيه التوقيع على الاتفاقية بالذات حصل تقارب فرنسي — روسي وضع المفاوضات موضع تساؤل، ذلك أن نابليون لم يعد بمقدوره الحفاظ على تحالفه مع بلاد فارس ضد روسيا، كما أنه لم يكن قادراً، من جهة أخرى على وقف التفاوض بأي شكل من الأشكال مع بلاد فارس، خشية أن يفقد مشاريعه السياسية في الشرق. لذلك، كان لا بد لفرنسا من

---

(٢٠٢) – Lorimer, cf. Bible., P. 1881.

أن تظل على علاقات طيبة مع فارس، ولهذا فقد أرسل الفرنسيون الجنرال غاردان Gardanne؛ ليقوم بدور الوسيط بين روسيا وبلاد فارس، لتسوية الخلاف بينهما حول جورجيا بصورة سليمة. وهنا عقدت فرنسا وبلاد فارس اتفاقاً جديداً يستمد من روح الاتفاقية السابقة، وبمقتضاه أوكلت بلاد فارس لفرنسا أمر جزيرة خرج[٢٠٣].

ولكن، بما أن الحرب استمرت بين بلاد فارس وروسيا، فقد ظن أن مشكلة جورجيا لا يمكن حلها بهذه السهولة. وفي سنة ١٨٠٨ كان الجنرال غاردان قد أكد للشاه أن الروس لن يبدأوا بالعمليات الحربية. ورغم الجهود التي بذلها الفرنسيون لدى الروس إلا أن مخاطر الهجمات الروسية كانت تتزايد، مما أدى إلى ضعف النفوذ الفرنسي في بلاد فارس بصورة كبيرة.

وفي سنة ١٨٠٩ وصل الوفد الانجليزي إلى بلاد فارس، بعد طول انتظار وحظي باستقبال حار، مما أثار احتجاجات عنيفة من جانب غاردان، الذي قرر أن يغادر بلاد فارس بعد أن ذهبت احتجاجاته أدراج الرياح. لقد احتفظ الشاه دائماً ببعض الشكوك تجاه سياسة بونابرت. ذلك أن الاتفاقات الفارسية الفرنسية لم تكن من الممكن أن تنسجم مع الاتفاقات الفرنسية الروسية، وكانت بلاد فارس تفضل أساساً التعامل مع بريطانيا، التي توفر لها ضمانات أفضل بالنظر إلى تفوقها البحري.

---

(٢٠٣) - Azizollah, cf. Bible., P. 36.

الفصل الثاني

فرنسا وعمان
التنافس الفرنسي ـ البريطاني
(١٧٨٩ ـ ١٨١٠)

مع قيام الثورة الفرنسية اشتعلت المنافسة مجدداً بين فرنسا وبريطانيا، وتحملت عمان عواقب ذلك، بأن أصبحت ساحة المواجهة بين الدولتين، بسبب موقعها. وبما أن لجنة الشؤون الخارجية الفرنسية تبنت جانباً من آراء قنصل فرنسا في بغداد السيد روسو، فقد اقترحت إقامة قنصلية فرنسية في مسقط[٢٠٤] تكون ذات فائدة لتجارتنا في الخليج العربي، « ولمراقبة الهند » ورشحت « المواطن بوشان » بالأفضلية أمام لجنة الخلاص الحكومي، التي أقرت الترشيح[٢٠٥]. ولكن بدلاً من إرسال بوشان مباشرة إلى هذا المركز، حيث كان يمكنه أن يقدم خدمات كبرى، تم تكليفه باستكشاف مختلف طرق آسيا الصغرى أولاً. وقد التقاه بونابرت في مصر، حيث جاءت به إلى هناك ألف مغامرة ومغامرة،

(٢٠٤) Auzoux A., "la France et Mascate aux XVLLe et XIXe siècles, P. 234, Revue d'histoire diplomatique, vol XXIII-XXIV, Paris, 1909.

(٢٠٥) A.M.A.E., Mascate, Vol. I, P. 230

وبدل إرسال هذا المعتمد الرسمي، ليعقد صلات وثيقة مع الوهابيين وإمام عمان الذي كان يبحث عن الاتصال به، فإن الجنرال الفرنسي اختار سبيلاً آخر لتوجيه رسالة ودية لسلطان مسقط[٢٠٦].

وفي ذلك الوقت، كانت بريطانيا غير مهتمة كثيراً بعمان، رغم المصالح التجارية التي كانت لها في مسقط. كان نفوذها في هذه الفترة ضعيفاً وهذا ما يلاحظه أحد السماسرة الهنود الذي كتب يقول: « كان الإمام يقدر الفرنسيين تقديراً أعلى بكثير من تقديره للإنكليز »[٢٠٧].

ومع مجيء بونابرت إلى مصر تبدلت السياسة البريطانية التي كانت ما تزال ضعيفة في منطقة الخليج. وبالفعل فقد بدأت بريطانيا بممارسة نشاط في هذه المنطقة، يعكس قلقها من احتمال قيام هجوم فرنسي في الهند عن طريق الخليج العربي. وفي ١٢ أكتوبر ١٧٩٨ افتتحت العلاقات بين عمان وبريطانيا باتفاقية بين شركة الهند الشرقية وحاكم عمان السلطان بن أحمد وبمقتضى بنود هذه الإتفاقية كان ينبغي إبعاد الهولنديين والفرنسيين خاصة عن أراضي عمان، ما دامت الحرب مشتعلة[٢٠٨].

وفي سنة ١٧٩٨ اختار المقيم البريطاني في « أبو شهر » الإيراني على ميرزا مهدي على خان ليكون موفداً لحكومته في عمان، وقد كان لمهمته عدة أهداف؛ إذ كان يتوجب عليه أن يتحرى منذ وصوله إلى مسقط عن مشاعر السلطان تجاه الفرنسيين، ويحاول إقناعه بعدم تقديم أي عون لهم، ومن أي شكل كان. وكما كان عليه أن يعرف مدى كفاءة المعتمد المكلف بالمصالح البريطانية في مسقط، الذي

---

(٢٠٦) Correspendance de Napoléon, 15 ventôse, An VIV (3 mars 1799) Tome 5, P. 278.

(٢٠٧) Auzoux A., cf., Bill., P. 237.

(٢٠٨) (أنظر النص في الملحق رقم « ٥ ») Aitchison W.T. VIII, PP. 73-87.

لم يكن يبدو أنه يخدم هذه المصالح بطريقة مرضية. ومن جهة أخرى كان ينبغي لعلي ميرزا أن يحاول الحصول من السلطان على فتح مكتب بريطاني دائم، كما كان عليه أخيراً أن يضمن للسلطان إرسال طبيب إنكليزي فوراً إلى مسقط، إذا وعده السلطان بمنع الفرنسيين من دخول عمان مقابل ذلك.

وخلال عشرة أيام حصل ميرزا على الجزء الأعظم من مطالبه، مما ضمن له نجاح المهمة، وفي ١٢ أكتوبر ١٧٩٨ وقع على أول اتفاقية تستجيب للمطالب البريطانية الآتية؛ لأنه ضمن للإنكليز وقف كل تجارة بين عمان من جهة، وكل من فرنسا وهولندا من جهة ثانية، ما دامت الحرب قد استمرت بين بريطانيا وهاتين الدولتين الأوروبيتين كما أن السلطان سمح للإنكليز بإقامة قاعدة عسكرية وتجارية في بندر عباس[٢٠٩]، ومن جانبه، فإن السلطان احتفظ بامتيازاته التجارية مع المستعمرات الإنكليزية في الهند[٢١٠]. كل هذه المعلومات لم تكن

---

(٢٠٩) Lorimer, cf. Biblc., PP. 426-427.

(٢١٠) يقول لوريمر (Lorimer) في كتابه المذكور أعلاه: « ومنذ اليوم الثاني (بعد التوقيع على الإتفاقية) حصلت شكوك جدية لدى الإنكليز بنوايا السلطان، تجاههم، بناء على معلومات تلقوها، مفادها أن السلطان احتفظ لنفسه بالمستخدمين الفرنسيين، وظل على دعمه لفرنسا. كما أن الحاكم العماني لزنجبار عامل قائد الأسطول البريطاني العميد البحري « بلانكيت » بأسوأ استقبال. وكان بلانكيت قد رسا بأسطوله في زنجبار؛ لتزويد الأسطول بالمؤن.

ثم إن الفرنسيين أسروا سفينة بريطانية يملكها السيد « مانستي » في عرض الخليج، واقتادوها إلى مسقط، بعد أن استولوا عليها. فلما علم السلطان بالحادث سارع إلى مطالبة الفرنسيين بإعادة السفينة، إلا أن السلطان بدلاً من أن يسلم السفينة لأصحابها الشرعيين احتفظ بها. وتجدد لجوء الفرنسيين إلى أعمال القرصنة، عندما صعدوا إلى سفينة الشحن الإنكليزية « بيرل »، واستولوا على حمولتها من الذرة الصفراء، وعلب الكبريت، وقد أرسل السلطان أ حد مراكبه لأخذ حصته من الغنيمة، بينما باع الفرنسيون باقي الحمولة في سوق مسقط على مرأى ومسمع الجميع. وفي ١٠ نوفمبر ١٧٩٩ استقبل السلطان موفداً فرنسياً؛ جاء ليتباحث معه باسم=

مؤكدة في الواقع، إلى أن وقع حادث مهم، فأكد شكوك الإنكليز. فقد تمكن ضابط في البحرية البريطانية من وضع اليد على رسالتين من بونابرت؛ واحدة موجهة إلى سلطان « ميسور » في الهند، والأخرى موجهة إلى سلطان عمان، وهما صادرتان من القاهرة بتاريخ ٢٥ يناير ١٧٩٩. وفي هاتين الرسالتين المهمتين يعلن بونابرت عن نجاحه في فتح مصر، وعن شكره لسلطان عمان، على تعاونه الودي والثمين. وبموجب الرسالتين، فإن بونابرت يتعهد بحماية سفن التجارة الخاصة بالسلطان، التي تمر في السويس، كما أنه يرجو سلطان عمان أن ينقل إلى سلطان « ميسور » المدعو « تيبو صاحب » رسالة يؤكد له فيها على تقديم كامل العون الفرنسي إلى السلطان في الكفاح ضد الإنكليز.

إن من الصعب الحكم على موقف حاكم عمان تجاه الفرنسيين قبل التوقيع على الإتفاقية مع الإنكليز وبعده. فهل كانت له اتصالات مع الفرنسيين، وماذا كانت طبيعة هذه الاتصالات ؟ على أية حال كانت حكومة الهند الانكليزية تلتزم جانب الحذر تجاه هذه العلاقات الفرنسية ــ العمانية دون أن نعرف ما إذا كانت العلاقات ترجع إلى ما قبل الإتفاقية العمانية ــ الإنكليزية أو ما بعدها. وكإجراء احتياطي سحب الإنكليز من العمانيين الامتياز الذي كانوا قد منحوهم إياه سابقاً (استيراد الخشب، والملح من الهند)[٢١١].

في هذا الجو وصل الكابتن جون مالكوم، مكلفاً من حاكم الهند، بتوضيح شكوك الإنكليز تجاه عاهل عمان، وبتوكيد بنود إتفاقية ١٧٩٨. وتكللت مهمته بالنجاح عندما تم التوقيع في ١٨ يناير ١٨٠٠ على اتفاق يقر بأن بنود الاتفاقية المذكورة ما تزال سارية المفعول، وأنه

= حكومته، بشأن مفاوضات بين الطرفين ». IBID. PP. 424-428.

(٢١١) Lorimer, cf.IBID, P. 427-428.

لا يمكن تبديلها بأي حال من الأحوال[٢١٢]. ومن جهة ثانية فإن الإتفاق كان يشير إلى أن يتم تكليف موفد بريطاني في عمان، بالقيام بدور ضابط ارتباط بين عمان وبريطانيا، بعد أن يفتح مكتباً له هناك. ومن المرجح أن يكون سلطان بن أحمد (سلطان عمان) قد وقع على هذا الإتفاق، تحت وطأة الخوف من حصول سوء تفاهم، أو متاعب مع حاكم الهند الإنكليزي[٢١٣].

وبمقتضى البند الذي يخول معتمداً رسمياً لشركة الهند الشرقية بالإقامة بصورة دائمة في مسقط[٢١٤]، قام مالكولم مباشرة باعتماد جراح شاب من المحيطين به، ويدعى « بوجل »؛ ليقوم بمهام المعتمد الرسمي على أمل أن تضفي صفته كطبيب مزيداً من الهيبة على الوظيفة المناطة به.

وأما بالنسبة لفرنسا، التي طالما نشطت لأن تقيم مكتباً في عمان، فقد حاولت المراوغة، إلا أنها خسرت الفرصة، وتغلبت منافستها بريطانيا عليها[٢١٥]. ولكن فرنسا لم تفقد الأمل بالتوصل إلى إتفاقية مع عمان، واستعادة نفوذها هناك، وهكذا فقد بدأت تنته سياسة حاذقة تجاه سلطان بن أحمد بوساطة حاكم « جزيرة فرنسا »، المدعو « ماغالون »، فبعد أن استولى قراصنة فرنسيون على ثلاثة سفن تابعة لمسقط أرسل ماغالون بالسفن المصادرة إلى عمان رافضاً الإقرار بشرعية المصادرة، كما أرسل قوة حماية لتصاحب السفن. ورد سلطان بن أحمد بأن كتب يشكر ماغالون قائلاً: « إننا عاجزون عن وصف الفرح الذي حصل لنا عند وصول السفن، وخاصة وصول القوات التي تكرمتم بإرسالها لنا[٢١٦].

---

(٢١٢) راجع نص هذا الإتفاق في الملحق رقم (٥).

(٢١٣) Wilson, cf. Bible., P. 232.

(٢١٤) Aitchison, Tome VIII, P. 87 et suivantes.

(٢١٥) Auzoux A., cf. Bible., P. 239.

(٢١٦) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، مسقط، مجلة رقم ١، ص ١٠٥.

وفي هذه الأثناء كانت بريطانيا تلعب بلا حياء على الحبلين؛ لأنها كانت تحاول كسب ود أمير الوهابيين، الذين قد دخلوا في حرب ضد سلطان عمان. ولا نعرف ما إذا كان سلطان بن أحمد قد شعر بهذه السياسة البريطانية الملتوية، إلا أنه مال إلى فرنسا على أية حال[٢١٧]؛ وبالفعل فقد أرسل إلى ماغالون في جزيرة فرنسا موفداً هو الشيخ علي، وكلفه بتوضيح الأحداث السابقة، وبالعمل على إعادة صلات الصداقة[٢١٨]، مع الفرنسيين، غير أن ماغالون الذي كان يتصرف في سياسته هذه من تلقاء نفسه، اضطر لأن يرجع إلى تعليمات الحكومة الفرنسية بهذا الشأن. لقد كان بونابرت الراغب بتحطيم قوة بريطانيا في الهند يولي أهمية كبرى لعمان، وللدور الذي يمكن لهذا البلد، أن يلعبه في المستقبل. وكان يحتاج معطيات دقيقة عن هذا البلد، وهذا ما قام به « تاليران »، الذي كتب يقول: « إن مسقط نقطة مهمة.. والإمام الذي يحكمها، والذي تمتد سلطته إلى أعماق الداخل، أمير مستقل من أي زاوية أتيته[٢١٩]واقترح تاليران على بونابرت أن يرسل بعثة إلى عمان، حدد له هوية هذه البعثة كما يلي: « أن من المهم أن تكون للوكيل المعتمد، صفة سياسية » ووقع اختيار الوزير كافانياك CAVAIGNAC، الذي توجه إلى مسقط على متن سفينة تابعة للدولة الفرنسية، « حتى تترك انطباعاً يساعد على توفير النجاح لمهمته »[٢٢٠]؛

وحاول الوكيل الفرنسي أن يقيم علاقات طيبة مع عمان، وأن يجمع معلومات دقيقة خاصة عن إمامة مسقط. وبموازاة هذه البعثة إلى شبه الجزيرة العربية، أرسلت فرنسا إلى الهند وكيلاً مكلفاً بالقيام بمهمة

---

(٢١٧) Auzoux A , cf. Bible., P. 242.

(٢١٨) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، ص ٣١٠.

(٢١٩) أرشيف وزارة الخارجية الفرسية، مرجع سابق، ص ١٠٢.

(٢٢٠) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، مرجع سابق، ص ١٠٧.

مشابهة لمهمة الوكيل المعتمد في عمان. وهكذا فقد كانت مهمة الوكيل الجديد « ديكان » DECAEN الإشراف على المكاتب التجارية الفرنسية في الهند، كما كان عليه أن يدرس وسائل تخريب قوة بريطانيا. وهذا السعي للهجوم الكبير على الهند كان واضح المعالم، ولم تكن بريطانيا لتسمح لهذا المشروع بأن ينجح بسهولة.

ونشبت الحرب بين بريطانيا وفرنسا قبل أن يصل « كافانياك » إلى مسقط، حيث لم يكن من الممكن له أن ينزل على أية حال؛ لأن الإنكليز كانوا قد سيطروا عليها. وأصر « ديكان » المعين مسؤولاً عاماً عن الممتلكات الفرنسية في المحيط الهندي على أن يرسل « كافانياك » إلى مسقط، مهما تكن الأحوال خاصة أن هذه المنطقة كانت ضمن الدائرة المرسومة له. وأوضح ديكان لـ « كافانياك » أنه سبق لحكومة عمان أن طلبت من ماغالون إيفاد وكيل رسمي فرنسي إلى عمان، مما يسهم في جعل مهمته أفضل بكثير؛ لأنه سيحظى باستقبال طيب دون شك.

وكان لهذه البعثة هدفان رئيسان:

أ ــ تأكيد صداقة فرنسا وعونها للعاهل العربي.

ب ــ جمع معلومات دقيقة عن الإمام[٢٢].

وركب كافانياك البحر في ١٤ سبتمبر، فوصل إلى مسقط في ٣ أكتوبر ١٨٠٣ غير أنه لم يحصل على إذن بالدخول إلى المدينة؛ لأن سلطان بن أحمد كان غائباً، ولم يعط أي تفويض بهذا الشأن، مما

---

(٢٢١) Archives de la colonie (Île de France), vol. 102, Decaen a' Cavaignace, 19 Fructidor, Am XII (16 september 1803).

في هذا الوقت كان سلطان بن أحمد هو الذي يحكم مسقط، وكان الإمام سعيد موجوداً في الداخل، بينما سلطان يحكم الساحل.

جعل الوضع أكثر صعوبة تجاه الفرنسيين بالنظر للنزاع الفرنسي — الإنكليزي المعروف.

وهكذا بقي الفرنسيون على متن بارجتهم لاتلانت L'Atlante بانتظار قرار حاكم عمان، الذي كان يلاحظ نمو الخطر الوهابي من جهة، وألاعيب الإنكليز لدى الوهابيين من جهة ثانية. وكان من الخطر على الحاكم أن يدير ظهره لبريطانيا مؤيداً فرنسا، التي لم تكن لها السيطرة في البحار. وهذا يعني أن تفضيل فرنسا كان سيؤدي خلال أزمة حاسمة إلى الإسراع بتحالف بريطانيا مع خصوم عمان من العرب، ومن هنا نفهم تردد سلطان بن أحمد ورفضه النهائي.

وبعد بضعة أيام وصل الشيخ علي إلى السفينة لاتلانت مصحوباً بابن الحاكم السابق خلفان، وأبلغ الفرنسيين بأن « معظم تجار مسقط وحاكمها الحالي نفسه مخلصون للإنكليز »[٢٢٢] ومع ذلك، فإن سلطان بن أحمد سيسره أن يرى العلم الفرنسي في مسقط.

ولكن في ١٣ أكتوبر ١٨٠٣ قال الفتى خلفان للفرنسيين، خلال اللقاء الثاني: « لقد كان من الأفضل لو أنكم جئتم في أثناء السلم إذا لكان السلطان خصكم باستقبال حار »[٢٢٣]. لقد كان الخوف من الإنكليز هو الأقوى وكان الإخفاق كاملاً، فتبخرت الأوهام الفرنسية الخاصة بمسقط، وتبخرت معها المكاسب الحقيقية التي كانت مأمولة من ورائها.

وأدرك ديكان بسرعة طبيعة السياسة العربية وأسبابها، فقرر أن لا يوقف الاتصالات، وعاد إلى سياسة من سبقوه؛ انتظار ظروف أفضل للتدخل، مع اعتماد سياسة معتدلة، وبصورة ملحة؛ ليتم قبول النفوذ الفرنسي.

---

(٢٢٢) Auzoux A., cf. Bible., P. 251.

(٢٢٣) Ibid. 1.P. 252.

وفي سنة ١٨٠٦ وقع حادث خطير بسبب الحماية الاستشارية التي كانت بريطانيا تمارسها تجاه عُمان، مما سمح لفرنسا بإعادة العلاقات مع سعيد بن سلطان. فقد هاجم الإنكليز سفينة فرنسية تدعى « لوفيجيلان » كانت مصابة بعطل في مسقط، وأمر حاكم المدينة السفينة بالابتعاد خلال ٢٤ ساعة، وبسبب خوف العرب من الإنكليز، أكثر من حرصهم على مصالحهم الخاصة، أعادوا إلى السفينة الفرنسية كل ما كان قد أفرغ منها، وقادوها بالقوة إلى عرض البحر، حيث كانت البارجة البريطانية (التي سبق لها أن هاجمتها في ميناء مسقط) تنتظرها، وقامت بتفتيشها. وأثارت هذه الحادثة موجة من الغضب لدى الفرنسيين، بينما أثارت عند العرب شعوراً بالندم والقلق من عواقب العمل الذي أقدموا عليه[٢٢٤].

ورد الفرنسيون فعلاً بأن أسروا قوارب عربية، كانت تنقل البضائع في المحيط الهندي، واستفاد ديكان مباشرة من الفرصة؛ ليحاول إعادة شيء من النفوذ الفرنسي إلى مسقط، فرد على رسالة الاعتذار التي بعثها إليه سعيد بن سلطان برسالة معتدلة اللهجة، ولكنها حازمة؛ لأنها تتضمن إنذاراً: استعادة « لوفيجيلان » وطاقمه، ومعاقبة قتلة القبطان، وإرسال ممثلين كاملي الصلاحية من عُمان إلى مقر الحاكم الفرنسي في جزيرة فرنسا؛ لتحديد التعويضات التي يحق لفرنسا الحصول عليها[٢٢٥].

وفي ٢٠ مايو ١٨٠٧ وصل موفد لسعيد بن سلطان إلى ميناء نابليون في جزيرة فرنسا مع سفينتين. وبعد المقابلات حصل ديكان من الموفد على تعهد باستقبال الفرنسيين ما إن تضع الحرب أوزارها.

---

(٢٢٤) Kajarc Firouz, cf. Bible., P. 85

(٢٢٥) Guillain, cf. Bible., Vol. 2, P. 202.

وفي السنة نفسها وقع نابليون مع بلاد فارس على معاهدة « فانكنشتين » في ٤ مارس ١٨٠٧ كما سبق، وكلف الجنرال غاردان بتمثيله في طهران. وقد اتصل « غاردان » « بديكان » الذي كان يضاعف من جهوده؛ لإدخال مسقط في شبكة التحالفات التي بدأت مع التفاهم الفرنسي ـــ الفارسي في آسيا، وقد عد الفرنسيون سعيد بن سلطان، لسوء فهم، تابعا لشاه بلاد فارس، الذي كان بدوره حليفاً لبونابرت بفضل المعاهدة الأخيرة، وبذلك لم يتبق سوى التفاهم مع الباشا سليمان، حاكم بغداد، لمنع الإنكليز من دخول الخليج العربي. ولكن باريس لم تتفهم تكتيك ديكان، وأعاقت السياسة التي انتهجها في المنطقة.

وبينما كانت فرنسا تواصل المراوغة كانت بريطانيا تتحرك، فأرسلت سفيراً إلى بلاد فارس، حيث حظي باستقبال طيب في طهران. ثم لم يلبث الإنكليز أن أحرزوا كسباً جديداً، عندما تدخلوا بصورة حاسمة في النزاع بين عمان والوهابيين. وأخيراً، فقد وقعت فرنسا تحت وطأة خسارة حاسمة عندما اضطر ديكان في ٣ ديسمبر ١٨١٠ للاستسلام أمام القوة البحرية البريطانية، وبسقوط « جزيرة فرنسا » انتهى النفوذ السياسي الفرنسي من شواطئ الخليج العربي؛ إذ لم تعد فرنسا تحصل في المنطقة على أكثر من معاهدات حماية للمكاتب التجارية الصغيرة الموجودة في الخليج، ولم تأخذ فرنسا بنصائح ممثليها في الخليج العربي وهكذا تركت فرنسا خصمها (بريطانيا) لتسبقها في كل مرة كانت الفرصة خلالها تتاح للفرنسيين ليسجلوا نقطة لصالحهم. ومع ذلك فإن روسو وماغالون وديكان كانوا قد فهموا واستوعبوا أسباب السياسة العربية ونتائجها.

ومن الآن فصاعداً راحت بريطانيا تمارس نشاطها في مسقط مع حرص شديد على منع أي عودة للنفوذ الفرنسي. ولكن النجاح الذي حصلت عليه بريطانيا بفض المعاهدتين اللتين وقعتهما مع عمان لم

يدفع الفرنسيين إلى اليأس، فضاعفوا من جهودهم في صراعهم مع بريطانيا من أجل السيطرة على منطقة الخليج الاستراتيجية، والدليل على ذلك إيفاد مبعوثين عسكريين ودبلوماسيين فرنسيين إلى عمان؛ للتشديد على حقوق فرنسا، ورفع شأن نفوذها. وقد عاد كافينياك ــ كما رأينا ــ واحدة من هذه البعثات الدبلوماسية، وضعت فيها الحكومة الفرنسية أكبر الآمال، ولكن الظروف شاءت لهذه البعثة أن تخفق.

ويفسر « غويان » (GUILLAIN) في كتابه أسباب هذا الإخفاق[٢٢٦] فيقول: « صرفت الحركة السياسية التي حصلت في أوروبا، ابتداء من ذلك العهد، وخلال المرحلة الثورية في فرنسا، أنظار حكامنا عن شؤون الهند، ولم يعد البحث في أمر إقامة وكالة فرنسية في مسقط إلا مع « حكم القناصل »، وقد نزل المواطن كافينياك، الذي اختير لهذه المهمة في أغسطس ١٨٠٣ في « جزيرة فرنسا » وتوجه من هناك إلى مسقط على متن البارجة لاتلانت. ولكنه عندما حاذى شاطئ المدينة في الأيام الأولى من شهر أكتوبر، كانت تغييرات كبيرة قد حصلت في الطاقم الحاكم في عمان. فقد كان الإمام سعيد بن أحمد قد تعرض للعزل عن العرش على يد أخيه سيد سلطان، وذلك قبل سنوات عدة. والوزير خلفان الذي لعب دوراً نشيطاً جداً في إقامة علاقات طيبة بين سعيد بن أحمد وقنصل فرنسا في بغداد كان قد فقد حظوته مع مجيء الغاصب (سيد سلطان)، الذي أبعده عن شؤون الحكم. وبكلمة، فإن استعداد سلطان بن أحمد للتجاوب مع الفرنسيين لم يكن بمستوى استعداد من سبقوه في منصبه.

وبدأ النفوذ الإنكليزي يحل محل نفوذنا في بحر الهند، ولم يكن من شأن انتصارات جيوشنا في أوروبا ــ وهي انتصارات لم تترك

---

(٢٢٦) Guillain, cf. Biblc., PP. 202-209.

صدى مناسباً لدى ملوك الشرق ـــ أن توازن في أذهان هؤلاء الأثر الذي تركه عندهم إخلاء مصر أمام القوات المشتركة لبريطانيا والباب العالي العثماني. وفوق ذلك، فخلال السنوات الأخيرة المنصرمة، كانت قوة الإنكليز قد سجلت نقاط تقدم سريعة على حسابنا وحساب حلفائنا؛ فمنذ ١٧٩٥ استولى الإنكليز بالتتابع على سيلان « وملقة » وممتلكاتنا في « مالابار »، وعلى مستعمرة رأس الرجاء الصالح. وكانوا قد قطعوا أوصال امبراطورية « تيبو صاحب »، واحتلوا « الكرناتيك »، وأخضعوا ملك المغول الأكبر لهم. وهذه الحالة كانت تهدد الأمراء الصغار كافة المجاورين، من الذين يمكن أن يقوموا باجراءات تخدم المصالح الفرنسية بوصف فرنسا المنافس الوحيد لبريطانيا في بحار الهند. وأدرك عاهل عمان، مثله مثل بقية الحكام، أنه لا بد له من التزام جانب المراعاة تجاه الإنكليز، حفاظاً على موقعه... ».

وبعد موت سلطان بن أحمد خلفه ابن عمه بدر بن سيف سنة ١٨٠٤، ولكن لفترة قصيرة، ففي سنة ١٨٠٦ اغتيل على يد خليفته سعيد بن سلطان الذي بذل كل ما لديه من جهد لزج بلاده في لعبة الأمم، وللمشاركة بصورة فعالة في عمليات التنافس الدولي، الذي كانت عمان احدى ساحاته من بداية عهده حتى تاريخ استيلاء الإنكليز على جزيرة « موريس »، أو « جزيرة فرنسا » سنة ١٨١٠ ولا شك أن سقوط هذا المعقل للنفوذ الفرنسي في المنطقة كان السبب الأساسي لتحول سعيد بن سلطان نحو الإنكليز.

« إن العلاقات السابقة بين فرنسا وعُمان تسوغ أساساً للسلطان سعيد بن سلطان (١٨٠٦) أن يفكر بالبحث عن صداقة هذه القوة الكبرى. كما أن سعيداً كان واحداً من كبار المعجبين ببونابرت، صاحب الأمجاد في مصر، والتي روجها العرب من كل حدب وصوب في تلك الآونة، وتركت صداها في أرجاء العالم الإسلامي. كذلك فإن سعيداً كان

يخشى طموح بريطانيا، التي كانت قد ركزت أقدامها عند أبواب عمان تقريباً، وكان يعلم أنها راغبة في توسيع امبراطوريتها[٢٢٧].

وبعد يوليو ١٨٠٦ (عندما حصلت عملية تفتيش السفينة «فيجيلان») أرسل سعيد بعثة إلى حاكم جزيرة فرنسا، الجنرال ديكان، مهمتها إبلاغ الحاكم بوصول سعيد إلى العرش، وتسليمه رسالة صداقة إلى بونابرت، يقول فيها: إننا نتشوق عبر هذه الرسائل للتمتع بالصداقة القديمة، التي ربطت بين آبائنا وبين الأمة الفرنسية، ونحن نرجو من سعادتكم التكرم باعتبار بلادنا تابعة له ومستعدة أبداً لطاعته، كلما شاء تشريفنا بأوامره[٢٢٨]. ولم تنطلِ هذه الوعود الغامضة والواردة في رسالة التزلف المذكورة على ديكان الذي طلب من سعيد بن سلطان إرسال مندوب كامل الصلاحية للبحث في التعويضات المستحقة لفرنسا. وقد وصل المندوب في ٢٠ مايو ١٨٠٧، ووصل معه ديكان في ١٦ يونيو ١٨٠٧، على نقاط كثيرة واستهدف في هذا الميثاق المسهب أربع نقاط أساسية[٢٢٩]:

١ ـــ تحديد القواعد المفروضة على السفن العربية لاحترام الحياد في النزاع الذي كان قائماً في ذلك الوقت بين فرنسا وبريطانيا.

٢ ـــ يحدد بصورة عامة جداً البضائع التي يمكن اعتبارها مواد حربية مهربة.

٣ ـــ يسمح للمواطنين العمانيين الذهاب إلى موانئ الخصم البريطاني، ومنها إلى ميناء محايد.

٤ ـــ اشترط التزام عمان باستقبال مندوب لفرنسا[٢٣٠].

---

(٢٢٧) Kajare, P. 85.

(٢٢٨) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، مسقط، المجلد الأول، ص ٣١٨.

(٢٢٩) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، مسقط، ص ٣١٠.

(٢٣٠) أنظر نص هذا الميثاق في الملحق، رقم ٧.

وهذه الاتفاقية كانت في حكم النافذة بانتظار تصديق الأمبراطور (بونابرت) عليها، ولكن الحكومة الأمبراطورية لم تصدق عليها بحجة أنها تخالف التشريع البحري، الذي انبنى على أساس المرسومين ١٨٠٦ و ١٨٠٧ حول الحصار القاري (١٨٠٨). ولسوء الحظ أن باريس نصحت ديكان بانتهاج سياسة الانتظار. وبعد سنتين (ديسمبر ١٨١٠) سقطت « جزيرة فرنسا » بيد الإنكليز. ومنذ ٣٠ مايو ١٨١٤ عادت فرنسا للتجول في المحيط الهندي من خلال استعادة « جزيرة بوربون »[٢٣١] بمقتضى معاهدة باريس. وفي السنة التالية حاولت فرنسا الحصول على موطئ قدم لها في مدغشقر.

وابتداء من ١٨٣٣ أصبح انبعاث النفوذ الفرنسي من عُمان قوياً ولكن فرنسا فضلت التحرك بحذر[٢٣٢] وروية، خشية وقوع إشكالات دبلوماسية مع بريطانيا، التي كان نفوذها ما يزال الأقوى في المحيط الهندي. وفي سنة ١٨٣٤ وقع سعيد بن سلطان على اتفاق مع البحارة الفرنسيين كان سيسمح للفرنسيين بالتمركز في عمان، واستغلال ثرواتها الزراعية مقابل التزام الفرنسيين بالدفاع عن عمان ضد هجمات أعدائها. ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن السلطان استشار السلطات البريطانية، التي يقال إنها لم تقدم أي اعتراض على تنفيذ هذا المشروع. وأخيراً ففي السنة نفسها تبدلت الأمور؛ لأن الفرنسيين في جزيرة « بوربون » لم يقبلوا ببند من الاتفاق يجعلهم تابعين سياسياً وقضائياً لسلطات السلطنة. وفوق ذلك، فإن كون السلطان قد طلب منذ البداية رأي الإنكليز إنما يحمل على الاعتقاد منطقياً أنه كان يريد جر الإنكليز إلى أن يعرضوا تقديم العون له، وبذلك لا يعود التحالف المحتمل مع فرنسا وارداً بالنسبة له. وهذا الميل الواضح من جانب عمان لبريطانيا

---

(٢٣١) أصبحت جزيرة « بوربون » معروفة منذ ١٨٤٨ تحت اسم (الادينيون).

(٢٣٢) العقاد وقاسم: « زنجبار »، ص ١٠٦.

تجسد سنة ١٨٣٩ بالتوقيع على معاهدة مشتركة بينما كانت فرنسا تواصل سياستها التوسعية في المحيط الهندي، مما أذكى حدة عداء سلطان عمان لها. ويمكن القول إن كابتن الأسطول الفرنسي في جزيرة بوربون كان العنصر المحرك لسياسة فرنسا التوسعية. فباحتلاله لإحدى جزر القمر أراد أن ينشط تجارة فرنسا مع الساحل الشرقي لأفريقيا(٢٣٣)؛ وعبر منافستها لتجارة عمان في زنجبار كانت فرنسا تفكر بفتح أسواق أفريقيا على العالم الغربي(٢٣٤).

وفي سنة ١٨٣٩ فكرت فرنسا بتعيين قنصل لها في زنجبار فأرسلت « غويان » على رأس بعثة للاستطلاع السياسي إلى الساحل الأفريقي. ورافق البعثة « دي نويل » الذي كان مكلفاً بالقيام بدور القنصل، ومزوداً بتعليمات بأن يقدم للسلطان مطالب الحكومة الفرنسية، إلا أن السلطان استقبل البعثة الدبلوماسية بكثير من التحفظ(٢٣٥).

ومن غير المحتمل أن يكون السلطان على علم بتحركات البعثة الفرنسية فوق أراضي أفريقيا الشرقية، ولكن من المؤكد أنه رفض القبول بوجود قنصل فرنسي في أراضيه، بحجة أن الوثائق التي قدمها « دي نويل » لا تحمل توقيع ملك فرنسا. ووسط ذهول الفرنسيين اقترح السلطان أن يقوم القنصل الإنكليزي بفحص الأوراق الرسمية؛ لتحديد مدى صلاحيتها، فرد غويان ساخراً: « هل نحن الفرنسيين من حرم العرب من حصتهم العائدة لهم من التجارة ؟ هل نحن من دعم متمردي مومباسا ؟(٢٣٦) ورد السلطان بالقول: « نحن على علاقات طيبة جداً مع

---

(٢٣٣) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، مذكرة تاريخية، رقم ٢٩٧: « علاقات فرنسا مع إمام مسقط بين ١٨٣٠ ـــ ١٨٥٠ ».

(٢٣٤) Guillain, vol. 2., PP. 29-48.

(٢٣٥) العقاد وقاسم: « زنجبار »، ص ١٠٨.

(٢٣٦) كان يقصد الإنكليز.

الإنكليز في الهند؛ لأن أسطولهم قوي جداً. وسياستنا تتطلب الصداقة معهم[٢٣٧].

ومن الممكن أن يكون الدافع الرئيسي لرفض السلطان للعرض الفرنسي الرغبة أولاً في عقد معاهدة صداقة بين عمان وفرنسا تكون مشابهة لتلك المعقودة مع بريطانيا. والحاصل هو أن البعثة الفرنسية لقيت الاخفاق ولكن الحاجة لليد العاملة في جزيرة بوريون كانت ملحة لدرجة أن حاكم الجزيرة الأميرال بازوش، ورغم العلاقات الدبلوماسية المتوترة بين عمان وفرنسا، بادر إلى إرسال ضابط فرنسي ليبحث مع السلطان في ترتيبات إرسال « العمال الأحرار »[*] إلى المستعمرات الفرنسية. وبلغت الحاجة الكبيرة إلى اليد العاملة جداً جعل بريطانيا تمنع هجرة الهنود إلى المستعمرات سنة ١٨٤١. وبعد عدة زيارات إلى سعيد بن سلطان تم التوصل إلى مشروع اتفاق في ٢٠ أبريل ١٨٤٣ مع ممثل جزيرة بوربون لوكيردوال[٢٣٨]. والواقع أن هذا الاتفاق الذي يشترط إرسال « العمال الأحرار » إلى جزيرة بوربون كان بعيداً عن أن يثير حماس السلطان؛ لأن الاتفاق يلزمه بالتنازل عن أخذ الفدية[٢٣٩] من هؤلاء العمال. ولما لم يجد السلطان أي مصلحة شخصية له في هذه المسألة فقد تذرع باحتمال حصول تدهور في علاقاته مع الإنكليز؛ ليؤجل تنفيذ بنود الاتفاق. وأخيراً فإن السلطان كان يرى أن من الأفضل تنمية العلاقات التجارية مع فرنسا وفق الشروط المطبقة نفسها مع الدول الأخرى.

ولذلك، وكتكملة للاتفاقية المعقودة مع لوكيردوال حصل السلطان

---

(٢٣٧) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، زنجبار، مجلة رقم ١، أول فبراير ١٨٤١.

(*) الرقيق بالمفهوم الفرنسي.

(٢٣٨) المرجع نفسه، ص ١١٢.

(٢٣٩) الفدية هي الضريبة المستوفاة عن العبد الواحد (الرقيق).

على وعد بأن ترسل فرنسا مبعوثاً إلى السلطنة، لتطبيع العلاقات بين البلدين. وذهب السلطان إلى حد الإعلان عن استعداده لرفع الحظر على دخول الفرنسيين إلى بعض « المناطق الخاصة » في عُمان، فيما لو حصل على موافقة من بريطانيا. وهكذا تم التوقيع في ١٧ نوفمبر ١٨٤٤ على إتفاقية تعاون وتجارة مع فرنسا.

اتفاقية ١٨٤٤

هذه الاتفاقية[٢٤٠] المكونة من ١٩ بنداً وقعها عن ملك فرنسا لويس فيليب البحري « رومان دي فوسيه » قائد القواعد البحرية في جزيرة بوريون ومدغشقر كما وقعها السلطان بنفسه[٢٤١]. وقد اطلع ملك فرنسا على الوثيقة في ٢٢ يوليو ١٨٤٦ وأقرها في قصر « نويي » (في باريس) بوصفها نصراً سياسياً فرنسياً كبيراً؛ لأنها تسمح بتطوير العلاقات بين البلدين ولا تكتفي بمنح الفرنسيين حرية البيع والشراء في عمان، بل كانت تمنحهم أيضاً حق استئجار الأراضي في الدول التي تتكون منها سلطنة عمان. وفوق ذلك، فإن الوثيقة تعطي الرعايا الفرنسيين المقيمين في عمان امتيازات قانونية؛ لأن رعايا البلدين يحق لهم التمتع بالمكاسب والامتيازات كافة، التي منحت أو يمكن أن تمنح لرعايا الأمم ذات الحق بالمعاملة الأفضل. ولنشر البنود الأكثر أهمية في هذه الاتفاقية البند رقم ٤ : إن رعايا سمو سلطان مسقط[٢٤٢] الذين سيكونون في خدمة الفرنسيين، تحق لهم الحماية نفسها الموفرة للفرنسيين أنفسهم، ولكن إذا ثبت ارتكاب رعايا السلطان لأي جريمة أو مخالفة يعاقب عليها

(٢٤٠) De clercq: Recueil des traites de la France, "Tome 5, (1843-1849), Paris 1880, PP. 259-264;
(٢٤١) أنظر النص في الملحق رقم ٨.
(٢٤٢) إنه سلطان عمان « سعيد بن سلطان ».

القانون، فسوف يتم تسريحهم من جانب مخدوميهم من الفرنسيين، ويسلموا للسلطات المحلية.

ونظراً لعلم العرب بالمكاسب التي يمكن أن يوفرها لهم هذا البند فقد رفع الكثيرون منهم العلم الفرنسي فوق مراكبهم، مما كان يجعل هذه المراكب في حكم التابعة لإحدى الشركات الفرنسية في جزيرة « مايوت »، أو غيرها من الجزر التي كانت مستعمرات فرنسية. وقد أحدثت هذه الحيل الكثير من المتاعب لبريطانيا، التي كانت منهمكة بتفتيش السفن لوضع حد لتجارة الرقيق.

« البند ١٧: يحق للفرنسيين أن يقيموا مستودعات أو متاجر تموين من أي نوع كان وذلك في زنجبار، أو في أي بقعة من دول سمو سلطان مسقط ».

وعند الإعلان عن هذه الترتيبات رد الإنكليز بقوة، وسارعوا إلى لفت نظر السلطان إلى التأويلات المختلفة، التي تحتملها مفردات مثل « مستودع أو محل تجاري... » بما في ذلك تأويلها على أساس « قواعد عسكرية ». وطلبت بريطانيا إضافة بند توضيحي مانع بالنسبة لهذه النقطة، وإلا فسيكون على السلطان القبول بمنح الإنكليز الإمتياز الذي منحه للفرنسيين. ومن جهة ثانية أبلغ الإنكليز الحكومة الفرنسية استياءهم ومطالبهم فسارع رئيس الوزراء الفرنسي « كيزو » إلى تطمينهم وأكد لهم أن فرنسا ليست لديها النية مطلقاً؛ لأن تقيم قواعد عسكرية لها في هذه المنطقة.

كان سعيد بن سلطان يظن أنه بهذه الاتفاقات يكون قد أقام علاقات طبيعية لبلاده مع الدول الأجنبية مع أن الفرنسيين لم يتوقفوا عن خداعه وتأليب الخصوم عليه. كما أن الإنكليز استمروا يتدخلون جهاراً في الشؤون الداخلية لعمان. ففي سنة ١٨٤٦ اتصل غويان بحاكمي « براوا » و « لامو » عارضاً عليهما الدعم في حال تمردهما على سيادة السلطان.

ولكن غويان لم يحصل على ما كان يرجوه، وقوبل بالرفض الفوري[٢٤٣] قبل أن يدينه السلطان أخلاقياً ويشتكيه إلى كيزو GUIZOT.

وجاءت تجارة الرقيق السرية تحت ستار « العمال الأحرار » المزعومين؛ لتشكل سبباً لتدهور العلاقات بين البلدين. ففي ١٨٤٩ أمر سعيد بتفتيش سفينة في « كلوي » بحجة أن طاقمها يمارس تجارة الرقيق خلافاً للاتفاقات المعقودة[٢٤٤]؛ وعلى أثر هذا التدخل من جانب السلطان أرسلت الحكومة الفرنسية سنة ١٨٥٣ طراداً بقيادة الأميرال « لاغوير »؛ ليقوم بعرض للقوة العسكرية الفرنسية في المنطقة. ولما شعر السلطان بخطر إلغاء الاتفاقات (وهذا يضر أكثر مما يضر بفرنسا). اضطر لأن يغض النظر عن التجارة غير المشروعة بالعبيد[٢٤٥]. وبالفعل سعى السلطان حتى موته سنة ١٨٥٦ للحفاظ على التعاون بين البلدين، بوساطة الاتفاقات أو العقود.

(٢٤٣) العقاد وقاسم: زنجبار، ص ١١٤.

(٢٤٤) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، زنجبار، مجلد رقم ١، ص ٣١ (سعيد إلى غويزو، ١٨ أغسطس ١٨٤٧).

(٢٤٥) وزارة الخارجية الفرنسية، زنجبار، المجلد رقم ١، ص ٦٧.

الفصل الثالث

بريطانيا وعمان

يرجع المؤرخون ببداية العلاقات بين بريطانيا والخليج العربي إلى الرحلة التي قام بها أربعة مغامرين إنكليز سنة ١٥٨٣، التي انتهت بهم إلى السجون البرتغالية في « غوا »[٢٤٦]؛ ولم تبدأ العلاقات بالفعل بين الجانبين إلا بعد انتصار بريطانيا على أسبانيا، وتدمير الأسطول الأسباني (الأرمادا) سنة ١٥٨٨. وفي سنة ١٦٠٠ أصبحت شركة الهند الشرقية وبمرسوم ملكي « شركة تجار لندن الذين يتاجرون مع جزر الهند الشرقية ». وابتداء من هذا التاريخ أقيمت علاقات تجارية ودبلوماسية جدية مع الخليج. وعلى مدى قرن بكامله من الزمن أظهر الإنكليز براعة عسكرية ودبلوماسية لا نظير لها في محاولتهم لإبعاد منافسيهم البرتغاليين والهولنديين، وخلال مرحلة أولية ظلت تجارة الإنكليز ضعيفة جداً، إن لم نقل خاسرة، ولكن مثابرتهم جعلتهم قوى كبرى لا منافس لها في خليج عمان.

أ ــ التنافس الإنكليزي الهولندي:

بعد أن اختفت البرتغال من خليج عمان سنة ١٦٥٠ ظهرت فيه

(٢٤٦) Lorimer,, cf. Bible., vol. I, P.8.

قوة أوروبية أخرى هي هولندا. وأول من غامر من هولندا على دخول البحار الشرقية كانت عند نهاية القرن السادس عشر على يد « جان هوغن فان لنشوتن » الذي وصل إلى الهند سنة ١٥٨٣، ونشر نتائج استقصاءاته سنة ١٥٩٢. وبعد عودة لنشوتن كلف تجار أمستردام (عاصمة هولندا) تاجراً منهم يدعى « كورنليس هوتمان » أن يذهب إلى برشلونة ليستكمل معلوماتهم عن التجارة مع الهند.

وفي سنة ١٥٩٧ توجه أسطولان هولنديان بقيادة هوتمان إلى الهند وفي السنة التالية عاد هوتمان بعد أن وقع مع ملك « بنتام » على إتفاقية فتحت أرخبيل الهند الشرقية أمام التجارة مع هولندا. وبين ١٥٩٨ و ١٦٠١ دارت ١٥ سفينة هولندية حول رأس الرجاء الصالح، واستولت على عدد من المستعمرات البرتغالية في الهند. وفي سنة ١٦٢٣ ظهر الهولنديون في الخليج ليتحالفوا بعد سنتين مع الإنكليز لإنزال الهزيمة بالأسطول البرتغالي.

وبوفاة شاه عباس في بلاد فارس خسر الإنكليز حليفاً لهم. والمعروف أنه عندما يموت أحد الشاهات في بلاد فارس يتم إلغاء كل العقود التي أبرمها في حياته، ما لم يقم خليفته بإقرارها وتثبيتها. وهكذا انتهز الهولنديون الفرصة المناسبة، وتوصلوا إلى طرد الإنكليز من بلاد فارس، بعد أن قاموا برشوة الشاه الجديد مقابل السماح لهم بإقامة وكالة[٢٤٧] لهم في بندر عباس في مكان غير بعيد عن جزيرة هرمز.

وبين سنة ١٦٣٩ و ١٦٤١ احتل الهولنديون المركز الأول في منطقة الخليج. وبعد أربع سنوات شنت مفرزة حربية هولندية كبيرة هجوماً على قلعة « قشم ». كان الهولنديون يريدون إظهار قوتهم لاجبار الفرس على منحهم امتيازات تجارية. وبعد هذا الهجوم العسكري رضي الشاه

(٢٤٧) الوكالة تعني في ذلك الوقت قاعدة عسكرية، وسياسية، وتجارية.

صافي بأن تحصل هولندا على ما تريده من منسوجات الحرير في أي وقت أو مكان ترغب فيه، وتصدر هذه المنسوجات دون أية عوائق جمركية. ومن هنا نفهم لماذا رسا الأسطول الهولندي سنة ١٦٥٠ في بندر عباس وكان يضم عشرة سفن حربية. وفي سنة ١٦٥٢ اندلعت الحرب بين الهولنديين والإنكليز في أوروبا وفي المستعمرات. ومنذ البداية ظهر أسطول هولندي في البحار الشرقية، قام بأسر سفينتين بريطانيتين. وفي سنة ١٦٥٤ نشبت معركة في عرض ميناء بندر عباس أتاحت للهولنديين الفرصة لإغراق السفينتين البريطانيتين « لانديفود »، و « فالكون ». وبخسارة هاتين السفينتين لم يعد الإنكليز قادرين على الإشراف على الخليج، فحل الهولنديون محلهم.

وبين سنة ١٦٦٥ و ١٦٧٨ تعرضت هولندا لسلسلة من الحروب في أوروبا، خرجت ضعيفة[٢٤٨]. ثم تحالفت بريطانيا وهولندا سنة ١٦٨٨ ضد فرنسا، ومنذ ذلك الحين أصبحت مصالح هولندا تابعة للمصالح الإنكليزية. ولم يلبث التفوق الإنكليزي أن فرض نفسه في البحار الشرقية، وخاصة في الخليج، ومنذ ذلك الوقت أصبحت بريطانيا تحتل المركز الأول هناك.

وبعد أن تم إبعاد نفوذ البرتغال وهولندا احتفظت بريطانيا وفرنسا وحدهما بعلاقات مستمرة مع منطقة الخليج. وقد حاولت دول أخرى، مثل روسيا وألمانيا الحصول على موطئ قدم لها هناك، ولكن محاولاتهما جاءت متأخرة جداً برأينا، واصطدمت بقوة بريطانيا التي حاولت حتى النصف الثاني من القرن العشرين (عملياً حتى سنة ١٩٧٠) أن تحول الخليج إلى منطقة نفوذ مغلقة في وجه المصالح الأوروبية الأخرى. ومن خلال محاولات فرنسا التحالف مع روسيا استطاع الفرنسيون ممارسة بعض الضغط على بريطانيا من أجل اقتسام النفوذ في المنطقة،

---

(٢٤٨) Arnold, T. Wilson, cf. Bible., PP. 155-168.

ولكن الدبلوماسية الإنكليزية نجحت دائماً في إخفاق التحالف الفرنسي الروسي، وفي إبعاد ألمانيا عن فرنسا وروسيا معاً.

الأسبقية البريطانية في المحيط الهندي وخليج عمان:

شكلت سنة ١٧٠٨ منعطفاً حقيقياً في الشؤون الهندية مع تشكيل « الشركة المتحدة للتجار الإنكليز في الهند الشرقية » ذلك أن هذه الشركة كانت تستند رسمياً إلى الحكومة الإنكليزية[٢٤٩].

وبينما كانت الهيمنة البريطانية تتوطد في القرن الثامن عشر اختارت الشركة بومباي مركزاً إدارياً لها، ومنذ ذلك تولى ميناء بومباي الشؤون السياسية والتجارية لبريطانيا العظمى في كل المنطقة العربية من المحيط الهندي بما في ذلك منطقة الخليج والبحر الأحمر.

وبعد أن انتهت حرب السنوات السبع بين فرنسا وبريطانيا (١٧٥٦ ــ ١٧٦٣) أقامت بريطانيا مكتباً « تجارياً » لها في البصرة. ونعرف أن تلك الحرب لم تقتصر على أوروبا لأن الأساطيل الفرنسية والإنكليزية تصادمت فيما بينها في المستعمرات أيضاً. وبمقتضى إتفاقية السلام الموقعة في باريس في فبراير ١٧٦٣ تخلت فرنسا لبريطانيا عن ممتلكاتها كافة في شبه القارة الهندية مما سمح لبريطانيا بأن ترسي الأسس لنفوذها في المناطق المجاورة للمحيط الهندي، وخاصة في منطقة الخليج. وأول عمل قامت به حكومة بومباي[٢٥٠] للإمساك بالخليج كطريق للمواصلات كان الحصول على إذن بإقامة قنصلية في البصرة بوساطة مرسوم عثماني[٢٥١]. وكان هدف الإنكليز في هذه الحقبة هو أن يتمكنوا من

(٢٤٩) ARNOLD, T. WILSON, cf. Bible., P. 170.

(لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع، راجع كتاب لوريمر: (ص ٤٧ ــ ٥٢).

(٢٥٠) كانت حكومة بومباي هي الحكومة الرسمية المعتمدة في كل ما له صلة بالعلاقات مع البحار الشرقية بالنسبة للإنكليز.

(٢٥١) في هذا الوقت كانت تركيا هي البلد المهيمن في المنطقة.

نقل البريد براً، ويمدوا نشاطاتهم إلى الدول المحيطة بالخليج. وفي إبريل ١٧٦٣[٢٥٢] عقدت بريطانيا اتفاقاً مع حاكم بوشهر، تحددت بموجبه الإمتيازات البريطانية بصورة نهائية. ويقضي أحد بنود الإتفاق الأساسية بمنع أي دولة أوروبية (عدا بريطانيا) من إقامة مكتب تجاري لها في بوشهر، ما دام فيها مكتب بريطاني، ويعفي هذا الإتفاق التجارة البريطانية من أية رسوم جمركية، وقد تم تعميمه على المرافئ الفارسية كافة، وهكذا فخلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر أصبحت بريطانيا قوة لا منافس لها على الصعيد التجاري على الأقل.

(٢٥٢) العقاد، « التيارات » مرجع سابق، ص ٤٠.

الفصل الرابع

عمان بين ١٨٠٦ ــ ١٩١٤

عمان : نظام الحكم والصلات مع القوى الإستعمارية الكبرى من عهد سعيد بن سلطان إلى عهد فيصل بن تركي (١٨٠٦ ــ ١٩١٤).

أ ــ عهد سعيد بن سلطان ١٨٠٦ ــ ١٨٥٦)

في سنة ١٨٣٢ كانت أمبراطورية عُمان تتكون من إقليمين : الإقليم الأسيوي، الذي كانت مسقط عاصمة له، والإقليم الافريقي الذي كانت عاصمته زنجبار، وفي هذه السنة أي سنة ١٨٣٢ اتخذ سعيد بن سلطان زنجبار عاصمة لامبراطوريته العمانية.

ومع اتخاذ سعيد بن سلطان زنجبار عاصمة لامبراطوريته إلا أنه ترك لمسقط دورها كمدينة أساسية مع أن كل العلاقات التي تتم بين الامبراطورية العمانية والدول الأجنبية كان مركزها زنجبار.

وقد استلم سعيد بن سلطان الحكم سنة ١٨٠٦ بعد اغتيال ابن عمه بدر، وكان سعيد واحدا من كبار شخصيات عصره[٢٥٣]، وهو الحاكم السادس من أسرة بو سعيد، وقد بقي في الحكم حتى سنة

(٢٥٣) العقاد وقاسم : مرجع سابق، ص ٤٦٩.

١٨٥٦، وكان طويل القامة، ويتمتع بذكاء حاد وحضور فاعل، كما أنه سعى لإدارة بلاده وتوجيهها. ونظرا لعناده الكبير، فقد أثبت مرات عديدة شجاعة ومهارة في ساحات المعركة. وقد لاحظ لوريمر أن شجاعة سعيد كانت أكبر من ذكائه[٢٥٤].

من المفيد أن نرجع هنا إلى وصف لشخصيته سعيد بن سلطان، حاكم عمان من خلال « شابوي » على أثر زيارة له إلى زنجبار سنة ١٨٦٠. ولم تتم الفرصة لزيارة زنجبار إلا لعدد قليل من الرحالة قبل سنة ١٨٦٠، وخاصة من حظي منهم باستقبال سعيد بن سلطان. ومن بين هؤلاء يمكن أن نشير إلى اسم السويسري أ. شابوي، وأصله من مدينة جنيف، فقد ترك شابوي مثل الفرنسي غويان وصفا مسهبا بما فيه الكفاية عن زيارته التي عرفت كيف ترسم للحاكم صورة واضحة وحية معا، وبمقدار كبير[٢٥٥]. وقد فرض السلطان سعيد هذه الشخصية

(٢٥٤) Lorimer, if. Bibl. P. 469.

« وتروي ابنته أنه كان رجلا مثقفا، متواضعا، ومحترما، سهل المعشر، كثير الاهتمام بشؤون شعبه، الذي كان يشاطره الأحزان، ونظرا لتمسكه بمبادئ العدالة فقد كان لا يفرق أبدا بين أولاده وأتباعه المعدمين ».

Voir Ruete, Emily, memoires d'une princesse arabe, Paris, 1905, Pp. 139 - 140.

(٢٥٥) يستفاد من شابوي أن سعيدا كان يحب استقبال الضيوف خارج نطاق البلاط، يقول شابوي : « كنت أتوقع أن أجد الإمام جالسا على بساط، ومتكئا على الطبافس، مشبوك الساقين، كما هي الحال في العادات العربية. ولعظيم دهشته وحده جالسا على كرسي هو وكل من حوله ». وخلال مكوثه في زنجبار لاحظ شابوي أن سعيداً يتمتع بشعبية كبيرة ، وأنه كان بالنسبة لشعبه أبا أكثر من حاكم، وكان بيته مفتوحا لكل الناس، وفي كل وقت. وكان سعيد يحب أن يستفيد من مرور المستكشفين في بلاده؛ ليسألهم عن رحلاتهم ويشجعهم بحماس على العمل عندهم هم والمبشرون. ولما كان نصيرا للعلم والأدب ومثقفا يبحث عن الإتصال بالعالم الخارجي، فقد اتسعت آفاقه إلا أنه بقي خاضعا لتقاليد الشرق والحضارة العربية.
كان قد تزوج مرات عديدة إلا أنه كانت له بالإضافة إلى زوجاته سبعون جارية، وقد أنجب من صلاته النسائية ١١٢ ولدا، لم يبق معظمهم حيا بعده. (يختلف عددهم حسب المصادر). وحسب رواية شابوي فإن سعيدا كان ذا أخلاق بشوشة=

بفضل حدة ذكائه، وحكمة أسئلته واستقبل سعيد ضيفه السويسري استقبال الأصدقاء، وكان يرتدي ثيابا بسيطة ومحاطا بأولاده العديدين (الشرعيين أو غير الشرعيين)، وبالعلماء (رجال الدين). وبدا أن سعيدا مندهش لأن ضيفه الذي زار تركيا استطاع أن يقابل سلطان البيت العالي (أمير المؤمنين)، خلال إقامته في استانبول في أثناء الاحتفالات الفاخرة، التي أقامها على شرف ابنته التي تزوجت محمد علي باشا.

ولما انتقل سعيد إلى الموضوعات الأكثر حساسية سأل شابوي عن تركيا نفسها، وعن الدول المجاورة لها، فاطلع على مساحتها وسكانها وقوتها العسكرية مبينا بذلك أنه مع اهتمامه وتأثره بأمجاد الخلفاء أمراء المؤمنين (من العثمانيين) بصفته مسلما مخلصا إلا أنه بصفته حاكما ينبغي له أن يحصل على معلومات توضح مراكز القوة، والأهمية لهذه الدول التي يمكن أن يرتبط بعلاقات معها ذات يوم، ثم وصل بالطبع إلى سؤال شابوي عن البلد الذي نشأ فيه. فلما علم أن هذا البلد هو سويسرا، اعترته لحظة من الدهشة والحيرة إنه يعرف في أوروبا بلدانا مثل فرنسا وروسيا وألمانيا وبريطانيا وإيطاليا، ولكن ليس سويسرا، وقد ازداد اندهاشا وانزعاجا عندما فوجئ بأن هذا البلد (سويسرا) الصغير ليس له رئيس واحد، بل يخضع لسلطة جماعية يمسك بها أفراد معينون، كما يحدث في القبائل البدوية. وبدبلوماسية بدل شابوي موضوع النقاش الذي عاد إلى التركيز على أوروبا وروسيا، التي كان السلطان يهتم بها كثيرا. ولم يستطع سعيد أن يمنع نفسه من إظهار الريبة عندما

= متواضعة، يستقبل دون بهرجة أو دوي، وكان قصره أقرب إلى الثكنة منه إلى المقر الملكي. وكانت عائلته وأصحابه حتى حرسه الخاص يثيرون انتباه الزوار الأجانب بفضل شعورهم بالكرامة الأصيلة، التي لا حاجة بها لأي أبهة أو زهو (إن الملاحظات الخاصة برواية شابوي مأخوذة من المصدر التالي :

Chappuis E., « visite a l'iman de Mascate a Zanzibar », Extrait du memoire de la société de geographie Geneve, » Geneve 1860, Pp 329 - 332

أعلمه شابوي بمدى اتساع الأراضي الروسية، وكان ضروريا أن يتم إحضار خارطة للكرة الأرضية على عجل؛ لإقناع سعيد بن سلطان الذي سأل شابوي عن مصر، واتفق الرجلان على امتداح مزايا محمد علي باشا، الذي كان يهز مصر ليخرجها من ركودها. وأخيرا أعرب سعيد عند نهاية المقابلة عن رعايته القصوى لإنجاز التحقيقات التجارية التي جاء شابوي من أجلها.

ولازمت حماية سعيد شابوي طيلة مكوثه، وحتى في بعض اللحظات التي لم يكن يرغب فيها بهذه الحماية، كما يدل على ذلك الحادث التالي : ذات يوم رغب شابوي بالتوجه إلى الساحل المقابل لزنجبار مع علمه أن هذا الأمر لا يرضي سعيد بن سلطان فنزل خفية إلى الساحل على متن زورق محلي. ولكنه لم يكد يضع رجله على البر حتى سارعت مجموعة استطلاع أرسلها سعيد إلى النزول إلى جانبه، وأصدرت له أمرا بالعودة إلى الجزيرة بأسرع وقت. ولم يكن أمام شابوي من خيار سوى الإذعان، وقد شعر بمفاجأة مزعجة، عندما علم لدى عودته أن سعيدا كان قد راقب كل تحركاته عبر منظار صغير من أعلى قصره. وهكذا، فلم يتمكن شابوي من العودة إلى الشاطئ المقابل، ولكن حصل على المعلومات من السكان المحليين، الذين كانوا يأتون من الشاطئ المقابل، فحصل على ما يكفي من معطيات لإثراء أبحاثه التجارية.

وفي خاتمة تقريره يعطي شابوي مسيرة خاصة موجزة عن سعيد بن سلطان فيقول : إنه من مواليد ١٧٨٩ في مسقط، وقد وصل إلى الحكم سنة ١٨٠٦ وواجهته على مدى عشرين سنة حروب تكاد أن لا تنقطع، شنها الوهابيون الذين كانوا يهاجمون سواحل عمان. وانتهت هذه الحروب لصالح سعيد الشاب الذي أظهر في هذه المرحلة الحرجة أقصى درجات الذكاء والحكمة، اللذين يتطلبهما منصبه. وبعد أن تمتعت

عمان بالهدوء لبعض الوقت أدرك سعيد أن عليه أن يهتم، دون تأجيل، بالممتلكات العمانية في أفريقيا، وخاصة في زنجبار. والواقع أن القادة الذين كانوا مسؤولين عن هذه الممتلكات كانوا قد بدأوا يتمردون ضد السلطة المركزية في عمان، فرفضوا دفع الخراج، وزادت سلطتهم الشخصية بصورة غير شرعية. ومن جهة أخرى كان هؤلاء يتوقعون نصرا وهابيا كان يمكن أن يخلصهم من سعيد. ولكن وصول سعيد إلى زنجبار سنة ١٨٢٨ وضع حدا فجائيا لطموحات هؤلاء، فاضطروا للخضوع، ودفع الضريبة المقررة عليهم لسيدهم. ولكن ما أن رجع سعيد إلى مسقط حتى تجاهل أولئك الوجهاء التزاماتهم، مما دفع سعيدا للمجيء للاستقرار بصورة نهائية في زنجبار سنة ١٨٣٢. وبفضل إدارته للشؤون الداخلية عاد الهدوء والرخاء إلى الجزيرة. وفي ١٨ ابريل اضطر للتوجه إلى مسقط لتسوية نزاع بينه وبين مجموعة من القادة التابعين للشاه الفارسي، ولكنه عندما أراد العودة مجددا إلى زنجبار في اكتوبر ١٨٥٦ أصيب في الطريق بعارض صحي صاعق، عجل بموته قبل أن يصل إلى الجزيرة(٢٥٦).

ب ــ انفصال زنجبار

قامت حكومة سعيد بن سلطان على أساس السلطة الفردية، وكان من الصعب في هذه الحالة الحفاظ على وحدة بلاده التي كانت تضم، بالإضافة إلى عمان، جزءا من الشرق الافريقي تابعا لزنجبار، وبالإضافة إلى بعد المسافة كان تدخل الدول الأجنبية أحد الأسباب الرئيسية للانقسام، مع أن بعض هذه الدول، وخاصة بريطانيا كانت قد عملت بنشاط من أجل الانقسام حتى عندما كان سعيد بن سلطان ما يزال حيا، غير أنه تمكن طيلة حكمه من الحفاظ على سلطته فوق كامل

---

(٢٥٦) 1. Chappuis E., cf. Bible., P. 305 - 339

أراضي دولته. وعندما نقل عاصمته إلى زنجبار، عندا نهاية حكمه، اكتشف بسرعة أن الأجزاء الآسيوية التابعة له سوف تعاني من هذا الوضع. وأدرك بصورة تامة الخطر الذي كان يتمثل في ازدواجية المركز في دولته، ولكن الخيار كان صعبا بين العاصمتين فإذا بقي في زنجبار فإن مشكلات عمان سوف تتفاقم، إذا عاد فاستقر مجددا في عمان فإن عليه أن يتخلى عن مطامحه التوسعية. ولما رأى الانقسامات الداخلية، التي تمزق عمان، اختار زنجبار، وسعى حتى تاريخ موته لتوطيد سلطته في الجزء الافريقي من بلاده.

وأوكل سعيد، وهو على قيد الحياة، إلى كل من ولديه أمر جزء من بلاده معتقدا أنه بذلك يمنع اغتصاب السلطة لصالح حاكم من خارج أسرته. ولما كان يرغب في أن يتم احترام خططه حتى بعد موته، فإن طلب دعم الحكومة البريطانية، وكتب في رسالة إلى اللورد « أبردين » سنة ١٨٤٤ يقول : « قررت أنه بعد موتي يتم تقسيم بلدي بين ابني « خالد »، الذي سوف يحكم الجزء الأفريقي في ممتلكاتي، وبين ابني « ثويني »، الذي سيكون له الجزء الآسيوي. إنني آمل في أن يكون ولداي في مستوى مهمتهما، وذلك بعون من الحكومة البريطانية[٢٥٧].

كان سعيد مقتنعا اقتناعا راسخا بأنه أنقذ دولته، والواقع أنه لم يفعل أكثر من « تسليم الحمل للذئب »، فخالد الذي كان من المفترض أن يستحق الشطر الأفريقي مات سنة ١٨٥٤، في أيام والده، الذي توفي بدوره، بينما كان يستعد لاختيار خليفة لخالد، وذلك في ٣٠ أكتوبر ١٨٥٦، خلال رحلته من مسقط إلى زنجبار. وهنا جمع أحد أبنائه، ويدعى ماجدا وجهاء زنجبار[٢٥٨]، وطلب إليهم أن يعترفوا به خليفة،

(٢٥٧) 1. Coupland, « Ecploitation of East AFRICA », P. 26

(٢٥٨) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، « زنجبار » مجلد رقم ١، ص ١٠٠.

وهو أمر سهل؛ لأن والده سبق له أن أوكل إليه شؤون الحكم كافة خلال غيابه. وفي ١٠ نوفمبر ١٨٥٦[٢٥٩] أصبح ماجد حاكما لزنجبار وأرسل إلى نابليون الثالث أمبراطور الفرنسيين رسالة يعلمه فيها بموت والده وبتسلمه شخصيا مسؤوليات حاكم زنجبار[٢٦٠]؛ وأستلم ثويني من جانبه الحكم بصورة شرعية في الشطر الآسيوي من أمبراطورية عمان، ولكن ولدا آخر من أولاد سعيد، ويدعى « تركي » انتهز فرصة وفاة السلطان؛ ليعلن نفسه في الوقت نفسه حاكما للمنطقة الشمالية من البلاد.

ج ــ استقلال زنجبار

اصطدم ماجد بن سعيد بسرعة كبيرة بالعديد من المتاعب؛ فقد اضطر أولا للاحتراس من طموحات قبيلة الحارثي، التي كانت تحكم زنجبار قبل أن يستلم الحكم فيها آل بوسعيد. ومن جهة أخرى، فإن أخاه ثويني كان يطالب بدمج عمان وزنجبار تحت ظل سلطته؛ نظرا لأنه كان معاديا لفكرة التقسيم، وكان يعرف أن عائدات زنجبار وثرواتها أكبر من نظيراتها في عمان. وفي سنة ١٨٥٦ ــ ١٨٥٧ عقد الأخوان اتفاقا. فقد خشي ماجد من طموحات أخيه، وما يمكن أن يؤدي إليه من صراعات دامية، فوافق، لتجنب ذلك، على دفع أتاوة لثويني مقدارها أربعون الف كورون سنويا[٢٦١] ولكننا لا نعرف بالضبط ما إذا كان ماجد قد رغب قبل كل شيء بالسلام. وما إذا كان هو الذي فرض شروطه على أخيه أم لا، وما إذا كان الإتفاق فعلا ثمرة تفاهم مشترك[٢٦٢]؛ ومهما تكن طبيعة التفسير الذي نحصل عليه، فإن من

---

(٢٥٩) المرجع نفسه، ص ١٠١.

(٢٦٠) المرجع نفسه : « من ماجد إلى نابليون الثالث »، في ٢٦ نوفمبر ١٨٥٦.

(٢٦١) إن قيمة « الكورون » في ذلك الوقت كانت ٣,٧٥ فرنك فرنسي.

(٢٦٢) Lorimer, cf. Bibl., P. 470/

الصحيح أيضا أن هذا الإتفاق لم يحظ باحترام طويل الأمد.

ورفض ماجد أن يدفع عندما أبلغه ثويني أن أتاوة الأربعين ألف كورون تثبت برأيه تبعية زنجبار لمسقط، وسرعان ما أعلن ثويني الحرب على أخيه، وكسب إلى جانبه شقيقا آخر هو « برغش »، الذي كان يطمع بأن يحل محل حاكم زنجبار، ولذلك فقد أثار القبائل المستاءة على ماجد، ومنها قبيلة الحارثي. كما أنه نجح في الحصول على دعم القوى الأجنبية.

وعلى الرغم من تركيع زنجبار إلا أن عمان بدورها لم تكن في منأى عن الخطر؛ لأن الفرس عرفوا كيف يستفيدون من النزاع بين أولاد سعيد الحاكم الأسبق لعمان؛ ليستعيدوا المناطق التي كانوا قد فقدوها في الخليج. ومن جانبه نجح ماجد في تأليف أخيه تركي على أخيه ثويني، بعد أن سبق لتركي أن أعلن استقلال صحار تحت رايته، وقد توصل ماجد إلى ذلك من خلال تقديم السلاح والمعدات لتركي. وفي الوقت نفسه استمرت الانتفاضات المحدودة في تعكير عهد ثويني، وأسهمت في إضعاف عمان، وهكذا باءت الدولة التي بذل سعيد بن سلطان الكثير من الوقت والعناية لبنائها منقسمة من الآن فصاعدا، وأدت النزاعات بين خلفائه إلى زوالها[٢٦٣].

د ــ عهد ثويني بن سعيد (١٨٥٦ ــ ١٨٦٦):

عرف عهد ثويني بن سعيد، الابن البكر وخليفة والده سعيد بن سلطان في الشطر الآسيوي من أمبراطورية عمان، العديد من الأزمات

---

(٢٦٣) هذا الضعف خدم مصالح فرنسا وبريطانيا على وجه الخصوص، مما سمح لهما ببسط هيمنتهما على هذه المنطقة. وبمقتضى الإعلان البريطاني ــ الفرنسي المشترك في ١٠ مارس ١٨٦٢ تم الإعتراف بزنجبار ومسقط ككيانين مستقلين بعضهما عن بعض.

السياسية. وبينما كان وضع الأمبراطورية يتطلب سهر الحاكم المبدع، لم يكن ثويني قادرا على ذلك، وأظهر أنه عاجز عن حسم الأمور في اللحظة اللازمة مع أنه كان شجاعا دون شك. ولكنه كان يجمع إلى الشجاعة التكبر والإدعاء، وقلة النشاط، (وكان عمره أربعين سنة).

واضطر ثويني تحت وطأة انخفاض العائدات التجارية الناجمة عن المنازعات بين أفراد الأسرة إلى إيكال أمر المناصب الرئيسة في أمبراطوريته إلى أمراء من عائلته (آل بوسعيد)، خوفا من رؤية الآخرين ينقلبون عليه. ويزيد من احتمال هذا الخطر أن المشكلات التي تسببها له زنجبار والوهابيون والفرس كانت تتزايد يوما بعد يوم. ولكنه نجح في السيطرة على مسقط والمناطق الساحلية الاستراتيجية. وبعد أن وصل إلى الحكم وجد ثويني أن مشكلة زنجبار على حدتها ليست هي المشكلة الأهم. وبالفعل، فإن الخطر كان يأتي خصوصا من الوضع السياسي المضطرب، الذي ورثه عمن سبقوه، مما جعل بلاده مهددة من الخارج والداخل معا.

وعلى الصعيد الداخلي كانت توجد إلى جانب المناطق التي كان يسيطر عليها مناطق نفوذ ليس له عليها أية سلطة. ومعروف أنه من الخطر الشديد على أي حاكم أن لا يتمكن من فرض إرادته السياسية في كل مكان من بلاده. ومن جهة ثانية كان ثويني موضع غيرة شديدة من داخل عائلته بالذات من جانب أخيه تركي المقيم في صحار مع أنصاره، ومن جانب سالم الشديد الطموح، وأخيرا من منافسيه المحافظين أمثال عزان بن قيس. ومع ذلك نجح ثويني في الحصول على ولاء القوى القبلية الرئيسة في بلاده، وخاصة قبائل « الهناوية »، التي يتزعمها صالح بن علي، الذي سبق له أن كان من المعادين لثويني.

أما على الصعيد الخارجي، فإن الوهابيين، الأعداء التقليديين لعمان، فقاموا بشن سلسلة من العمليات على الحدود؛ لتوسيع رقعة نفوذهم السياسي. ومن جهة أخرى كانوا الانجليز يتدخلون مباشرة منذ « تحكيم

كانتنغ »[٢٦٤] في الشؤون الداخلية لعمان عبر الإشراف على كمية الضرائب، التي كانت زنجبار تقدمها لمسقط. ولكن ثويني، الذي سبق له أن كان حاكما على عهد أبيه، كان قد اكتسب على الرغم من كل شيء مهارة كبيرة في طريقة إرضاء الجميع، والتعامل معهم. كان يعرف منذ وقت طويل أنه بصفته حاكما عليه أن يتوقع حصول منازعات من أجل الحكم، كما كانت الحال دائما بالنسبة لكل حكام عمان.

ولكن الوضع السياسي ـ الإقتصادي العام بعد ١٨٥٦ كان قد أصبح شديد الاضطراب والخطورة، وأمضى ثويني حياته كلها، وهو يحاول الإمساك بالوضع العام في عمان، دون أن يوفق في ذلك على الإطلاق. ومنذ بداية عهده اضطر لمواجهة انتفاضات قبلية. فمع وصوله للعرض تمردت قبيلة « الظافرية »، ولكنه تمكن من إخماد التمرد[٢٦٥]. وأخطر تمرد هو الذي قاده أخوه الأصغر « تركي »، فلما نجح في اعتقاله استطاع ثويني أن يوسع نفوذه إلى المنطقة الساحلية التي سلمها لابنه سالم، وعينه حاكما[٢٦٦]. وبعد المشكلات مع عائلته بالذات جاء دور مقاطعة « الباطنة » للتمرد، مما خلق لثويني مصدرا جديدا للمتاعب. ثم لما نجح ثويني في حل مشكلاته الداخلية اضطر لمقاتلة عزان بن قيس مدة سنتين من الزمن. وفي سنة ١٨٦٤ أرسل ثويني قوات إلى الرستاق؛ لاحتواء حركة عزان وشلها، فاستنجد هذا الأخير بالوهابيين، وخاصة « بالسديري » قائد قاعدة البريمي العسكرية وسارع فيصل بن تركي[٢٦٧] الذي كان أقوى رجل في المنطقة إلى تلبية طلب عزان، على

---

(٢٦٤) 1. Lord Canning est gourerneur anglais de Enide
(اللورد كانتنغ هو الحاكم الإنكليزي للهند).

(٢٦٥) السالمي نور الدين : مرجع سابق، المجلد الثاني، ص ٢٣٠.

(٢٦٦) Lorimer, cf. Bibl. Vol I, P. 572.

(٢٦٧) فيصل بن تركي زعيم سياسي وديني وهابي.

أساس أن الفرصة باتت سانحة لتوسيع منطقة نفوذه، فأرسل قوات وهابية إلى الرستاق؛ لتحطيم الحصار المفروض على عزان. وتمكن فعلا من فك هذا الحصار، إلا أن ثويني لم يكن قادرا على مواجهة فيصل بن تركي، الذي تمكن من بسط سيطرته على العديد من قبائل جنوب عُمان.

ولكن البريطانيين لم يكونوا ينظرون بعين الرضا لتوجه القوات الوهابية نحو ساحل عمان، فأرسلوا مقيمهم « لويس بللي » إلى الرياض في مارس ١٨٦٥؛ لتسوية الخلافات بين عُمان والوهابيين(٢٦٨)، ولكن من دون نجاح. فقد هاجم الوهابيون صور، وهي ميناء يقع مباشرة على الطريق إلى الهند، مما يجعله بالتالي بالغ الأهمية بالنسبة للإنكليز، الذين وجدوا، في الهجوم الوهابي، تهديدا لوجودهم في منطقة الخليج، فأرسلوا بارجتين لقصف النفوذ الوهابي المطل على الخليج، بينما جاءت بوارج أخرى لترسو في ميناء صور بالذات. وقام ثويني بتسوية هذه المشكلة، بأن دفع مبلغا للوهابيين، واشترى بذلك السلام منه.

وكان لعرض القوة العسكرية البريطانية نتائج سياسية مهمة، فقبل على أثرها ثويني مقترحات لويس، الهادفة الى حمايته من الوهابيين. لقد كان ثويني ينوي غزو البريمي، قاعدة التحركات الوهابية، الواقعة في الجنوب ــ الشرقي من شبه الجزيرة العربية، إلا أن قلة المال منعته من تحقيق هدفه. فقد رفض ماجد تقديم الضرائب المتفق عليها مع ثويني، الذي حاول الحصول على الوسائل اللازمة للتحرك عن طريق مصادرة ممتلكات ماجد في عُمان، ولكن دون نتيجة تذكر. وأخيرا حصل على الأسلحة من الإنكليز، وخاصة مدفعان، وأجبر الإنكليز ماجدا على أن يفي بما عليه من مستحقات(٢٦٩) وزيادة على ذلك، فإن ثويني

(٢٦٨) Lorimer, cf. Bibl. Vol I, P. 474.

(٢٦٩) India records, (I) playfair to wood, dispatch no 24, Zanzibar vol. XLII.

بعد أن أسر أخاه تركي نجح في جذب كل القبائل المعادية للوهابيين؛ لمهاجمة البريمي. وعند بداية ١٨٦٦ توجه ثويني إلى صحار على رأس قواته، بعد أن بلغ ذروة قوته، وأصبح رئيس بلد متحد ضد الخطر الوهابي[٢٧٠] ولكن بينما كان ينام في قلعة صحار في فبراير قتله ابنه سالم، بدعم من الوهابيين. وهكذا انتهت حملة ثويني بسرعة، وانهارت الوحدة الوطنية.

وفي الفترة نفسها مات فيصل بن تركي، ورفض الخليفتان الدخول في نزاع مباشر؛ ليكسب الوقت اللازم لتدعيم الموقع الشخصي لكل منهما.

هـ ــ سالم بن ثويني (١٨٦٦ ــ ١٨٦٨)

ورث سالم، خليفة ثويني، وابنه البكر، وضعا صعبا عن أبيه. وعلى الرغم من النجاحات في السياسة الداخلية، فقد أظهر عجزه عن حل المشكلات السياسية الخارجية، ولذلك تمت إقالته بعد سنتين من الحكم.

وأول مهمة له كانت أن يحصل على اعتراف بريطانيا العظمى به، ولكن هذه الأخيرة رفضت في البداية الاعتراف به، بسبب اغتيال ثويني، ولكن سالما نجح في الحصول على اعتراف ممثل ملك بريطانيا في الهند « سير جون لورنس »، الذي رأى أن السلطان ليس منشغلا إلا بمصالح عُمان، وكان يخشى من أن يوجه سالم أنظاره صوب فرنسا. وهكذا طلبت بريطانيا في نهاية ١٨٦٦ من لويس بيللي أن يتوجه إلى مسقط؛ للاعتراف بحكم سالم، بناء على أمر من ملك بريطانيا. وفي يناير ١٨٦٧ أعاد الكابتن آتكنسون التمثيل الدبلوماسي الإنجليزي إلى مسقط[٢٧١]، ولكن ماذا كان يجري في زنجبار ؟

---

(٢٧٠) السالمي (نور الأب) : « التحفة »، مرجع سابق، مجلد رقم ٢، ص ٢٣٤.

(٢٧١) Lorimer, cf. Bibl., P. 478

عندما علم ماجد حاكم زنجبار بمصرع أخيه قرر وقف دفع الضرائب لحاكم عمان الجديد. لم يقر الإنكليز هذا العمل ولكنهم رضوا مع ذلك بلعب دور الوسطاء بين الحاكمين، فعاد ماجد عن موقفه سنة ١٨٦٨[٢٧٢] وأضيفت مشكلات أخرى إلى المتاعب التي يعاني منها سالم؛ لأن العائدات الجمركية كانت مستمرة في الهبوط بسبب تدهور المبادلات التجارية[٢٧٣]، كما أن التوتر كان يتصاعد بين سالم وبلاد فارس، ومع ذلك فقد تمكن سالم في بداية ١٨٦٨ من حل مشكلاته الخارجية، ولكنه واجه في الوقت نفسه متاعب جديدة بسبب مشكلات نشبت بين أنصاره. فقد كان كل واحد منهم يتحدى الآخر. والطريقة التي أراد بها أن يتخلص من هؤلاء، جعلت قنصل بريطانيا في مسقط، ويدعى الكابتن « آتكنسن »، يكتب في أحد تقاريره ما يلي : « إن الخطر المحدق بسالم يأتي من أنصاره بالذات أكثر مما يأتي من أعدائه »[٢٧٤].

وقد أدى هذا النزاع الداخلي لفقد سيطرته على الحكم، مما جعله يهرب إلى مسقط في ١٢ أكتوبر ١٨٦٨.

و ـــ نجاح الثورة : المناداة بعزان بن قيس إماما.

لم تكن أحداث ١٨٦٨ مجرد تبديل بسيط في الحكم، بل كانت حصيلة ثورة قامت بها عمان بأسرها، وكانت أول ثورة تبدل مجرى تاريخ عمان بصورة جذرية منذ حكم اليعاربة، الذين أرسوا أسس ممارسة السلطة في عمان في القرن السابع عشر.

ولا تختلف الثورة العمانية سنة ١٨٦٨ كثيرا بتوجهها عن الثورات

---

(٢٧٢) India Recoıd -3- No, 33, Residency, Vol. I., « pelley to ATKinson », ter mass 1868.

(٢٧٣) Ibid, « ATKinson to Gonne », 17 september 1968.

(٢٧٤) Ibıd - -2- Masqat No. 420 Vol. I « ATKinson to eonne », 22 September 1868.

التي وقعت عند ظهور الإسلام. فأيديولوجية الثورة العمانية استوحت من مبادئ الإسلام بالذات، وهو الدين الذي شكل أساس هذا المجتمع اللاهوتي المفترض أن يكون المجتمع العماني صورة عنه. وقد تصدى المسؤولون عن الثورة للوضع والمفهوم الديني واعتبروه وضعا ومفهوما ارتداديا. ولما كان هؤلاء متعصبين متمسكين بمواقعهم الإجتماعية، فقد اعتبروا أن كل من لا يتبعهم كافر، ولذلك نظر إليهم بعض المؤرخين على إنهم من الغلاة، خلافا للمعتدلين من أسرة آل بوسعيد الحاكمة، وبسبب تعصب هؤلاء وقعوا في دائرة الفشل. وبعد هرب السلطان سالم دعا قادة الثورة علماء الدين إلى اجتماع عام؛ لتوضيح أسس « الدولة الإسلامية المثلى »، انطلاقا من المبادئ « الأباضية ». وكانت أول نقطة على جدول الأعمال هي اختيار إمام، فرشح بعض القادة عزان بن قيس، الذي تم انتخابه.

وما إن تشكل هذا النظام حتى شرع عزان بسلسلة من الأعمال، لتوطيد سلطته على عُمان، ونجح خلال السنوات الأولى من فرض إرادته السياسية على كامل الأراضي العمانية. وفي الخريف من سنة ١٨٦٩ بلغ تأثير إمامة عمان ذروته، فكان الحكم في هذه الفترة أقوى حكم عرفته عمان في تاريخها، إلا أن هذا النظام المركزي كان يحمل من داخله بذور ضعفه وسقوطه. فالواقع أن النجاحات التي أحرزها الإمام عزان كانت ترجع إلى التضامن، الذي أظهرته له قبيلة « الهناوية ». بينما لم تكن قبيلة « الغافرية » متحمسة أبدا لهذا الإمام، دون أن تتمرد مع ذلك عليه، بل بقيت في حالة ترقب[٢٧٥]، مما جعل الإمامة بين ١٨٦٨ — ١٨٧١ تشهد هيمنة من جانب « الهناوية »، لم يكن قائما

(٢٧٥) إنها لواقعة تاريخية في عمان أن أية حكومة لا يمكن أن ترسخ أقدامها من دون تفاهم مسبق بين الهباوية والغافرية.

على أكثر من تفاهم قام بين القبيلتين. وهذه الهيمنة، مضافا إليها المتاعب المالية والتعصب الديني الرجعي، أدت إلى سقوط الإمامة في ١٨٧١. فقد عجز الحكم عن حل المشكلات الاقتصادية التي كانت البلاد تشكو منها، بل إن قراراته ومبادراته على العكس زادت من تفاقم المشكلات[٢٧٦].

وأدى الشلل في المبادلات التجارية، وهروب رؤوس الأموال إلى الخارج إلى حرمان الحكومة من التأييد الشعبي، وخاصة في المنطقة الساحلية التي تقطنها غالبية من الوسط التجاري، كما هو معروف.

ز ــ سقوط الإمامة :

كانت سنة ١٨٧١ هي سنة الأزمة إذن، وكان العمانيون يتوقعون على مدى الخريف غزوا وهابيا. وفي الصيف تمردت بضعة قبائل من البدو الرحل عند الحدود، إضافة إلى قبائل الغافرية القاطنين في « رؤوس الجبال » على الإمام الذي اضطر إلى أن يرسل جيشه لإعادة فرض النظام. وكان بمقدور الإمام عزان أن يتجاوز كل هذه المتاعب، لو لم يقف في وجهه تركي بن سعيد، المنافس الرهيب لعزان، وذلك بتحريض من الخارج. واستعد تركي الذي حظي بدعم مالي من أخيه ماجد حاكم زنجبار؛ لمهاجة عزان. وبدعم من القبائل المعادية لعزان هاجم تركي عزان وأنصاره في « مطرح »، عند نهاية يناير ١٨٧١ مستفيدا من الموقف السلبي الذي التزمته القبائل الموالية للحكومة[٢٧٧]. وهكذا تم قتل الإمام، ودخل تركي إلى مسقط ظافرا. لقد دامت الإمامة

---

(٢٧٦) مثل موقفها في تطبيق المبادئ الدينية، كمنع الكحول والموسيقا، مما أفقد البلاد عدة مصادر للدخل، وانعكس الأمر سلبا على التجارة. وأصبح البحارة الأجانب يتجنبون التوقف في ميناء مسقط، وتقلصت المبادلات التجارية كثيرا عند نهاية ١٨٦٩.

(٢٧٧) كانت قبائل الهناوية قد تخلت في هذه الأثناء عن دعمها لعزان.

أكثر من سنتين بقليل[٢٧٨]، وبعد سقوطها عرفت عمان نظام جديد مشابها لنظام حكم السنوات الواقعة بين ١٨٥٦ ــ ١٨٦٨.

ح ــ تركي بن سعيد :

أصبح تركي حاكما لعمان[٢٧٩]، وهو في الثلاثين، وكان في حياة والده حاكما على صحار، وبقي في منصبه حتى طرده منه أخوه ثويني واعتقله سنة ١٨٦١.

ومع صعود سالم بن ثويني إلى الحكم سنة ١٨٦٦ نفي تركي إلى الهند (١٨٦٧)، مما أتاح له الفرصة لدراسة الإدارة الإنكليزية لهذا البلد، ولتعرف مدى قوة الإنكليز. ونظرا لأنه وصل إلى الحكم بدعم من بريطانيا، فقد ظل محتفظا بالثقة والاحترام تجاه الحكومة صاحبة الجلالة البريطانية طيلة السنوات السبعة عشرة من حكمه. وقد عرف كيف يحكم بلاده، بأفضل طريقة ممكنة، وبالتالي فإن بريطانيا منحته دعمها[٢٨٠].

كان هدف تركي أن يتجنب الأزمات، حتى يبقى في الحكم أطول

---

(٢٧٨) يرجع أحد أسباب التعجيل بسقوط الإمامة إلى الكابوس الذي كان المسؤولون يغذونه باستمرار، وهو إقامة دولة في القرن التاسع عشر انطلاقا من مفهوم الدولة في القرن السابع الميلادي. هذا النظام كان ممكنا لداخل عمان، وليس للمنطقة الساحلية فيها. وهناك سبب آخر يرجع إلى أن المسؤولين أرادوا فرض حكمهم على كامل عمان. ونضيف أن عزان كان يدير الشؤون المالية والإقتصادية بصورة بالغة السوء في المنطقة الساحلية وأن سياسته العامة كانت رديئة، كما أن خصومات عديدة تمزق الحرب الديني الحاكم.

(٢٧٩) كانت عُمان قد أصبحت مملكة بحرية تقليدية ذات طابع تجاري « معتدل »، وخلافا للإمامة التي تستمد سلطتها من المفاهيم الدينية والقيم الإسلامية فإن نظام السلطنة يرتبط بإمكانيات الحاكم وقيمته الشخصية، ومواهبه السياسية.

(٢٨٠) India recores -2- Vol. II, « Ross to Kimberley », 9 november 1885. Despatch No. 36/9 Residancy.

مدة ممكنة. وهكذا فقد انشغل كثيرا بالمنازعات بين القبائل التي أخذت كثيرا من وقته، وأن يعتمد على جهازه الإداري على الرغم من أنه كان مخترقا من جانب الحكومة البريطانية صحيح أن سلطته كانت نظريا بلا حدود، إلا أنها كانت تتوقف عمليا مع ذلك عند الحدود الجغرافية لعمان، هذا البلد الذي تركت فيه البنية السياسية ـــ الاجتماعية والعقيدة الأباضية أثرهما الطاغي.

ووفق التقاليد، فإنه قبل البدء بتعديل أجهزة الحكم وزع تركي مناصب الحكومة المؤقتة على الشخصيات الأساسية في أسرة بوسعيد، التي كان الحاكم هو زعيمها في الوقت نفسه. وكانت تشارك في حكم البلد شخصيات تنتمي إلى أسر أخرى إضافة إلى ممثلي قبائل عمان والأوساط التجارية في مسقط. ولم تكن الطبقات الشعبية تحتل مراكز مهمة إلا نادرا جدا.

احترم تركي هذا التقليد على الرغم من أنه لم يعتمد على عائلته[٢٨١]. فكان يستشير القنصل البريطاني الكولونيل « ميلس »، والسير أدوار روس[٢٨٢] رئيسه بصورة منتظمة، وكانت له معهما علاقات ودية، ولما كان ينقص المستشارون المجربون داخل عمان، فقد ترك الإنكليز يوطدون دعائم نفوذهم دون منازع. وعلى الرغم من جهوده لتحسين علاقاته مع أفراد أسرته إلا أنه كان بالغ القلق من الانشقاقات مع أخيه عبد العزيز بن سعيد، والحاكم الأسبق سالم بن ثويني. وفي سنة ١٨٧٦ نفى تركي أبناء ثويني، الذين كان يتهمهم بالتآمر عليه بالتعاون مع أخيه عبد العزيز، وعين أبناءه حكاما على المناطق الأساسية، وعين فيصلا وليا للعهد. ومن الناحية النظرية كان رئيس الوزراء عبارة عن المستشار

(٢٨١) Lorimer, cf. Bibl. Vol s,P. 512/ (Ross Sir Edward Charles)

(٢٨٢) روس سير أدوار شارلز هو أحد أنشط المقيمين الإنكليز في الخليج العربي في الفترة ما بين ١٨٧٢، ـــ ١٨٩٢.

والمساعد الأول للحاكم. وأول من استلم هذا المركز ثويني بن محمد، خلال عهد تركي بعد أن أبعده سالم عن الحكم، ولم يبد ثويني بن محمد، الذي كان قد شارك في اغتيال حاكم مسقط، سوى قدر ضئيل من الحنكة في تنفيذ مهامه، وعند بداية ۱۸۷۳ تم إبعاده عن منصبه فخلفه عبد العزيز بن سعيد سنة ١٨٧٤، ولكن نزعته الفردية وحبه للسلطة جعلا تركي يضيق ذرعاً بهذه الحال، فأقاله من منصبه. وإلى جانب رئيس الوزراء كان للسلطان مستشارون خاصون، مثل قادة الجيش وسكرتيره الخاص، بينما كان باقي الحاشية مكونا من الوزراء وكبار الموظفين؛ أي رجال الدرجة الثانية. وفي أسفل الهرم الحكومي الموفدون الذين كان تركي يضعهم على رأس هذه المنطقة، أو تلك، الذين كانوا ملزمين بتنفيذ أوامره. وأظهر تركي دبلوماسية مشهودة في حل المشكلات القبلية[٢٨٣]؛ وفي بداية عهده وزع ماله على رؤساء القبائل دون نجاح يذكر[٢٨٤]؛ ولكن منذ ١٨٧٥ استخلص دروس هذا الاخفاق. ولعلمه أن الحل السلمي لخلافاتهم يكلف أقل بكثير من الحملات العسكرية، فقد طاب أن تعرض المنازعات كافة عليه. وكانت سياسته تقوم على أساس إرسال كامل الصلاحيات، فإذا أخفق فرض تركي، عندئذ هدنة على الأطراف المتنازعة مما يتيح له الوقت لدراسة أفضل للوضع ولإرسال وفد يدعو الأطراف إلى لقاء، يمكن أن تنجم عنه مصالحة. فإذا لم تفلح هذه الوسائل فإن السلطان يترك المتنافسين يتقاتلون وإذا ظهر

---

(٢٨٣) لينجح أي حاكم في عُمان يلزمه دعم مختلف القبائل، وهذا غير ممكن إلا إذا كانت للحاكم شخصية قوية خاصة، أن العلاقات بين الحاكم ومختلف قادة القبائل، تقوم على أساس شخصية بحتة : العطاءات التي يوزعها الحاكم وتدخلاته في الخلافات بين القبائل، هي مظاهر قوة أكثر منها سمة من سمات الحكم.

(India records -2- Vol. II, Mascot, No 225, Miles to Ross, 15 september 1884)

(٢٨٤) India records -2- Vol XIVI, Governement of India to India Kimberley 1er Fevrier 1886, No. 36 Calcutta.

أنه خاسر، فإنه كان يدعو الإنكليز[٢٨٥] أما قبائل الداخل، فكان تركي يكتفي بتأييدها الشفوي بعد تقديم المكافآت لها.

وفي السياسة الخارجية كان تركي يرغب في الحفاظ على علاقاته المميزة مع بريطانيا، وكان المنتدبون البريطانيون بالهند يقدرونه بالغ التقدير. ولكن على الرغم من أن الإنكليز اعترفوا بسلطاته في أغسطس ١٨٧١، إلا أنه لم يبدأ بتلقي الإعانات منهم إلا سنة ١٨٧٣. ولم يتخل الإنكليز عن تركي إلا مرة واحدة (١٨٧٤ ـــ ١٨٧٥) إلا أن هذا لم يمنعه من وصفه حليفهم الأساسي، ثم إنه لم يلبث أن أوكل إليهم أمر سياسته الخارجية، فكانوا هم من قاموا بتسوية مشكلاته مع العثمانيين. وباسمه أجرى الإنكليز الإتصالات مع الدول الغربية مثل هولندا، التي وقعت على معاهدة تجارية مع عمان سنة ١٨٧٧[٢٨٦]، بفضل تدخل الإنكليز أنفسهم. لقد كان الدعم الخارجي ضروريا للدولة، ومن هذه الزاوية، فإن عهد تركي سمح بحصول انعطاف ملحوظ في النشاط السياسي لعمان. صحيح أن بعض الحكام السابقين كانت لهم صلات طيبة مع بريطانيا، ولكن تركي كان يعتقد أن استمرار حكمه مرتبط بدعم بريطانيا له، وبمشيئتها. وهذه القناعة جعلته يترك الهيمنة البريطانية غير المباشرة على عُمان تتعزز، لدرجة أنه في ١٣ يونيو ١٨٧٦ أعلنت حكومة الهند رسميا أنها المسؤولة عن استقلال عُمان. هنا منح الإنكليز وساما لتركي[٢٨٧]، مما كان يعبر بصورة جلية عن ولاء تركي للإنكليز، وعن المكانة المهمة التي كان يتمتع بها في نظرهم. وهكذا فعندما مات تركي سنة ١٨٨٨ وجد ابنه فيصل نفسه على رأس مملكة حسنة التنظيم.

---

(٢٨٥) India records 1-2- Masqat, Vol VI, Miles to Ross, No. 107, 15 avril 1884.

(٢٨٦) Lorimer, cf. Bibl, P. 525.

(٢٨٧) Lorimer, cf. Bibl, P. 519.

ط ـ عهد فيصل بن تركي (١٨٨٨ ـ ١٩١٣) :

دام هذا العهد ٢٥ سنة، وقد عرف نهجين سياسيين متعاقبين. الأول من ١٨٨٨ إلى ١٨٩١، وتمثل في سياسة استقلالية تجاه بريطانيا. والثاني استمر حتى سنة ١٩٠٤ تخلله التحاق فيصل بالسياسة البريطانية، والجزء الأكبر منه يخرج عن نطاق بحثنا. إن فيصل بن تركي عمليا هو الحاكم الوحيد الذي صعد إلى الحكم في جو من السلام. كان عمره ٢٤ سنة، وكان لا يقر سياسة والده التابعة بصورة كبيرة لبريطانيا العظمى. ورفض أيضا انتهاج هذه السياسة في العديد من المجالات، وخاصة فيما يتعلق بالصلات الشخصية بين الحاكم والقادة السياسيين. وأخيرا فإنه كان يأمل في تحويل عمان إلى بلد موحد وحر من أي نفوذ خارجي.

ومنذ بداية عهده أعرب عن استيائه تجاه التدخل الإنكليزي في الشؤون الداخلية للبلاد، وقام بتسريح رئيس الوزراء، الذي خدم والده طويلا، وكان مواليا للإنكليز. وفي سعيه ليكون الرئيس المعترف به لكل العمانيين حاول عقد صلات وطيدة مع القبائل التي كانت معادية تقليديا للحكومة المركزية، وتعرف بالطريقة نفسها مع القبائل الموالية للإمامة، ومع وجهاء عمان. وحتى ينجح في تدعيم الجبهة الداخلية اضطر لإبعاد أنصار التقارب مع بريطانيا. ولكن هذه المحاولات كانت تعبر عن نقص فادح في الخبرة؛ لأن سياسته المعادية للإنكليز تسببت له بالعديد من المتاعب. وفي سنة ١٨٩١ فرضت عليه بريطانيا تعهدا بأن لا يتخلى عن أي جزء من أراضي عمان لأحد سواها. ثم في سنة ١٨٩٩ تعرض فيصل لعملية إذلال كبيرة على يد الإنكليز[٢٨٨] وقد تأثرت هيبته كثيرا بهذا « التنبيه » البريطاني، فاضطر لإقرار الواقع. وكان من المستحيل له أن

---

(٢٨٨) راجع الفصل التالي.

ينتهج سياسة معادية للمصالح الإنكليزية. وهكذا بدل رأيه فجأة، وعاد للسير على سياسة والده، وكرس السنوات العشر الأخيرة من حكمه لتوطيد دعائم سلطته، وللتفاهم الجديد مع بريطانيا بصورة جلية توازي في وضوحها درجة عدائه لها في بداية عهده. وينبغي أن نشير إلى أنه على أثر سياسته المعادية للإنكليز في بدايات حكمه كانت بريطانيا العظمى[٢٨٩] قد أخرت الاعتراف بصعوده إلى الحكم حتى أبريل ١٨٩٠، دون أن تتوقف مع ذلك عن دفع الإعلانات المالية الواردة من زنجبار إليه. وهذه الإجراءات أقدم عليها الإنكليز لتسهيل المفاوضات التي أدت إلى المعاهدة التجارية الأنكلو ـــ عمانية، وإلى اتفاق ٢٠ مارس ١٨٩١، الذي لم يعد يحق لفيصل بمقتضاه أن يؤجر أو يتخلى عن أي جزء من أراضي عمان، دون موافقة بريطانيا العظمى[٢٩٠].

(٢٨٩) Adim Rpt, 1889 1890, P. 5.

(٢٩٠) أنظر نص هذا التعهد في الملحق، رقم ١٣/.

الفصل الخامس

دور بريطانيا وفرنسا في الصراعات الداخلية في أسرة بو سعيد

قبل أن نحلل التأثير الأنكلو ــ فرنسي في تطور عمان نشير إلى نتائج الإعلان المشترك الصادر عن هاتين القوتين الكبيرتين سنة ١٨٦٢، وإلى نتائج المواجهة بين حضارتين ذواتي أفقين مختلفين اختلافا كاملا.

وعلى الرغم من أن بريطانيا هي التي تقدمت بإعلان ١٨٦٢ إلا أن من الصحيح أيضا أن الإعلان المذكور كان نصرا للسياسة الفرنسية؛ لأنه ساوى بين بريطانيا وفرنسا في علاقاتهما الدولية وعلاقاتهما مع مسقط، ومنع بريطانيا من بسط هيمنتها وحدها على عمان. ولكن في مارس ١٨٩١ تعهد السلطان لبريطانيا وحدها بأن لا يعقد اتفاقا، لا هو، ولا ذريته قبل أن يشاور الإنكليز. وحاولت بريطانيا كثيرا التدخل في الشؤون الداخلية لعمان قدر المستطاع، إلا أن الخوف من ردود الفعل الفرنسية التي يسوغها إعلان ١٨٦٢ كان يلجمها.

وكان أحد جوانب هذا الاعلان الاعتراف الرسمي بعمان، وبالسلطان، الذي تمكن من ممارسة كامل سلطته بتشجيع من فرنسا. وفوق ذلك

فإن الإعلان المشترك كان يشدد على توازن القوى بين فرنسا وبريطانيا وعمان. وهذا الوضع كان يمكن أن يسمح بدخول قوى أخرى على قدر من المهارة السياسية، بشكل يجعلها تستفيد من حالة التوازن في العلاقات الثلاثية العمانية ـــ الفرنسية ـــ البريطانية. ويبدو أن السلطان كان أقل الأطراف الثلاثة إحاطة بالوضع خاصة، وأن كلا من بريطانيا وفرنسا كانتا توليان أهمية كبرى لهذه المنطقة بسبب موقعها الجغرافي البالغ الأهمية، بالنسبة للمصالح الاستعمارية بين أوروبا وآسيا.

وهذه المقدمة للعلاقات تساعدنا على فهم أفضل لسير الأحداث السياسية بين البلدان الثلاثة المعنية. وحتى نحصل على أفضل استعراض لتلك الأحداث من الأفضل أن نلقي نظرة سريعة على تطور الوضع السياسي الداخلي في عُمان. وبعد ذلك نتطرق في فصل آخر إلى علاقات عمان مع بريطانيا وفرنسا.

لقد رأينا كيف بسطت عُمان نفوذها من زنجبار، في أفريقيا الشرقية، إلى « رؤوس الجبال » في شمال ـــ شرق شبه الجزيرة العربية، وذلك في ظل رجل واحد هو السلطان سعيد بن سلطان، قبل أن تفقد هذه الأمبراطورية وحدتها عند موته بوصفه الوحيد الذي أثبت مقدرة على الحفاظ على وحدة عُمان. وفي عهد سعيد كانت الحضارة الغربية قد ظهرت في عُمان، وعند موته أصبحت منتشرة ومزدهرة، ونمت نمط المواصلات الجديدة بسرعة. ولكن هذه القيم والأخلاق الجديدة اصطدم بالنزعة التقليدية الموغلة في القدم، كما أحدثت المخترعات العلمية قلاقل في المجتمع؛ إذ كيف يمكن إقناع أبناء هذا المجتمع بأن القوارب تسير وحدها (بالمحركات) في مياه راكدة، بعد أن اعتادوا على رؤية المراكب تسير بوساطة دفع الرياح لها لقد كان نمو التكنولوجيا الحديثة سببا في تدهور حالة النشاط البحري والتجاري التقليدي؛ لأنه نسف الأسس الإقتصادية التي كانت تقوم عليها عُمان.

كان هدف الحكومة الإنكليزية في خليج عمان توفير الشروط الملائمة للملاحة والتجارة مع الهند. وكان من شأن النزاع الذي نشب بين ثويني وماجد سنة ١٨٥٦ أن يهدد بنتائجه الملاحة البحرية في مياه الأمبراطورية العمانية بصورة خطيرة. ولذلك فإن الإنكليز تدخلوا بصورة نشيطة في الخصومات بين الأسر الحاكمة وأرسلوا اللورد ألفنستون إلى الهند مزودا بأمر لمنع ثويني من القيام بحملة عسكرية على زنجبار[٢٩١]. وبالفعل، فإن ثويني اضطر أن يعود أدراجه أمام الأسطول البريطاني، وأدرك مدى الدمار الذي كان سيحل به في مواجهته مع حلفاء أخيه (الإنكليز)، فقدم الإعتذار لحكومة صاحبة الجلالة. غير أنه سعى من جهة أخرى للتحالف مع فرنسا التي كانت ترغب في تعزيز نفوذها على الشاطئ الأفريقي. ويبدو أن مباحثات تمت بين ثويني وبرغش والقنصل الفرنسي في زنجبار، وتؤكد مصادر إنكليزية أن بعض الشخصيات الفرنسية كانت مستعدة للتدخل لصالح الأخوين ضد ماجد، على أن تحصل فرنسا بالمقابل على ميناء « مومباسا »[٢٩٢].

وفي سعي ثويني للتقارب مع فرنسا أرسل إلى القنصل الفرنسي في زنجبار « لادرلو كوشيه » الرسالة التالية، المؤرخة بتاريخ ٢٢ رجب ١٢٧٣ هـ (١٨٥٦ ـــ ١٨٥٧) : « بعد التحية ... أود أن أعلمكم أن قبطان المركب « كارلين » الذي يتجه نحو زنجبار، يحمل إليكم رسالة لتشهد لكم على الصداقة والاحترام اللذين نكنهما تجاهكم، وتجاه حكومتكم. أرجو أيها السيد القنصل أن تتواصل المراسلة بيننا ... »[٢٩٣]. وفي ٢٨ رجب من السنة نفسها (١٨٥٦ ـــ ١٨٥٧) أرسل إليه رسالة جديدة تؤكد على الصداقة التي يكنها لفرنسا، وتشرح له الوضع. ثم إن موفد ثويني لدى قنصل فرنسا حمد بن سالم سلم

(٢٩١) Lorimer, cf. Bibl, P. 470.

(٢٩٢) Coupland, R. : « exploitation of East AFRICA », P. 20.

(٢٩٣) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، زنجبار، المجلد الأول، ص ١٣٥.

القنصل رسالة تقول من بين أشياء أخرى : « إلى السيد لاردلو كوشيه، قنصل فرنسا في زنجبار. أبعث إليكم هذه الرسالة لأسألكم عن أحوالكم. وبفضل الله فإنني ولله الحمد بحالة جيدة، وأرغب إن شاء الله، كصديق لكم أن تكونوا بحال طيبة أنتم أيضا. إن كل شيء على ما يرام عندنا، وقلوبنا سعيدة، وأتمنى أن يكون الوضع في زنجبار مشابها بعون الله. ربما تناهى إلى أسماعكم شيء عن مشروعاتنا. لقد حالت عقبات كبيرة بيني وبين تنفيذها، وربما كان ما حصل خيرا لنا. إننا نضع فيكم آمالا لا نضعها في أي شخص آخر، ونأمل أن لا تنصرف أنظاركم عن مصالحنا، وأن تكون في جانبنا. إننا أصدقاء للأمبراطورية الفرنسية عن طيب خاطر، كما تعلمون، وهذه الصداقة ستزداد باستمرار ..»[٢٩٤]
وكان برغش من جانبه قد اتصل بالفرنسيين حتى قبل وفاة أبيه. ويروي « الفريد رابو »[٢٩٥] أنه خلال إقامته في زنجبار سنة ١٨٥٤ ــ ١٨٥٥ التقى برغش، ومع أن رابو لا يتحدث عن طبيعة هذه الاتصالات، فإن من المؤكد أنه أقام علاقات وطيدة مع بعض الفرنسيين[٢٩٦]. ويمكن أن نعرف بسهولة أهمية هذه الاتصالات عندما نعرف أن والد رابو، (وهو رئيس غرفة تجارة مرسيليا)، لعب دورا مهما جدا في توطيد العلاقات بين فرنسا ومسقط. ومن المرجح أن يكون رابو وبرغش قد تفاهما معا على أن يساعد « رابو » برغشا على الاستيلاء على الحكم، مقابل امتيازات جديدة، ومكاسب لم تكن معاهدة ١٨٤٤ تمنحها للفرنسيين. ومن المحتمل أن تكون هذه العلاقات بين برغش وثويني من جهة والفرنسيين من جهة أخرى، قد دفعت بريطانيا إلى الوقوف في الجانب الآخر، خاصة أنها نجحت في اعتراض رسالة من برغش

---

(٢٩٤) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية زنجبار، المجلد الثاني، ص ٢٥٩.

(٢٩٥) ابن رئيس غرفة تجارة مرسيليا.

(٢٩٦) Rabaud ALFred, « Zanzibar, la côte orientale d'afrique equatoriale, (Baulletin de la societe geographique de Marseille), Marseille, 1881, P. 2'

إلى كوشيه صاغها كما يلي : « انكفأت[٢٩٧] إلى الريف؛ لأنه لم يعد بمقدوري أن أبقى في المدينة بسبب الخلاف الذي أحدثه « رغبي»[٢٩٨] (Rigby) بيني وبين أخي. لا أريد أن تحدث اضطرابات في البلد، إلا أنني سوف أرد أي هجوم يشن ضدي. لقد رغبت دائما في الحفاظ على السلام، وسلكت كل السبل لإعادته. لقد أعرب أخي سيد ماجد مرارا، وأمام الجميع في « بوريا » حيث يقيم، عن عزمه على تسليم البلاد لبريطانيا. إننا لن نرض بذلك أبدا، وأننا نفضل أن نموت على أن نسلم بلدنا لبريطانيا أو لفرنسا أو لأمريكا، أو أية أمة أخرى ... إذا كان لمواطنيكم (الفرنسيين) مصالحٌ في الريف العماني، فسوف تكون محفوظة. صديقكم برغش بن سعيد بن سلطان ».

ولم توافق الحكومة الفرنسية على سياسة التدخل التي اتبعها قنصلها في الشؤون الداخلية للسلطنة، ولذلك اكتفت بإبداء الاحتجاج على التدخل الإنكليزي. ولكن كوشيه لم يكن يخفي كون برغش تحت الحماية الفرنسية، وكان يبدي إدانة مفتوحة للدعم الذي يقدمه الإنكليز لماجد[٢٩٩]. وكان يمكن لفرنسا أن تلعب دور الوسيط بين مسقط وزنجبار في ذروة النزاع بين الطرفين، إلا أنها لم تفعل شيئا فخسرت بذلك فرصة ثمينة لتوطيد وجودها في هذه المناطق، وبسبب ترددها تركت الساحة لبريطانيا من جديد.

أ ــ تدخل الحكومة البريطانية ووساطة « كاننغ » سنة ١٨٦١.

لم يؤثر احتجاج القنصل الفرنسي في زنجبار في شيء على سياسة بريطانيا التي كانت تريد الحفاظ على « الأمر الواقع » قبل كل شيء.

(٢٩٧) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، زنجبار، المجلد الأول، ص ٢٨٨.
(٢٩٨) القنصل الإنكليزي في زنجبار.
(٢٩٩) Coupand, R., cf. Bibl, P. 21/.

ووفق هذا التوجه، فإن تقسيم سلطنة عمان كان لا بد أن يخدمها، ويضمن هيمنتها المستقبلية على المنطقة. ولم يكن الدعم المعنوي الذي كانت تقدمه لماجد في صراعه مع ثويني يذهب دون تأثير في ثويني لأن بريطانيا كانت تحظى عنده بقدر من الهيبة يزيد منه كون مسقط كانت تقع ضمن دائرة النفوذ البريطانية. وقد عرفت بريطانيا كيف تستغل هذه الأوراق في سعيها؛ للحفاظ على جو من السلام اللازم لعلاقاتها التجارية مع الهند.

وأرسل اللورد كاننغ، حاكم الهند، المقيم البريطاني السياسي في عدن الجنرال كوغلان؛ ليدرس الوضع، ويتخذ موقفا من إدعاءات كل من الطرفين. وفي أول مارس ١٨٦٠ تم اتخاذ القرار بشأن هذه الإدعاءات، وكان في الوفد البريطاني مستشرق متخصص في شؤون المنطقة، هو الأب بادجر، وممثل بريطانيا في مسقط.

توجه الجنرال كوغلان أولا في ١٢ يونيو ١٨٦٠ إلى مسقط، حيث بسط ثويني أمامه شفويا حججه قبل أن توجه في ٢٩ سبتمبر ١٨٦٠ إلى زنجبار، حيث قام ماجد بدوره تعرض حججه، والدفاع عنها(٣٠٠)؛ وعند نهاية ١٨٦٠ أعد كوغلان تقريرا قدمه إلى الحاكم اللورد كاننغ. ويمكن الإشارة في هذا التقرير إلى عدة نقاط منها :

١) أن كوغلان أظهر ميلا إلى ماجد؛ لأنه يقر بدور القوى الأجنبية الكبرى، التي سبق لها أن سهلت اختياره حاكما لزنجبار.

٢) يؤكد كوغلان أن فصل مسقط وعمان عمل جيد على كل حال.

وكخلاصة عامة يبرر كوغلان موقفه انطلاقا من الاعتبارات التالية :

أ) كان ينبغي توفير الأمن والسلام للسلطنة. ذلك أنه رغم سلطة وهيبة السلطان سعيد فإنه لم يتمكن من تجنب حركات التمرد

(٣٠٠) Kajure Firous. « Le sultan d'Oman ». Paris, 1914, P. 119/

والاضطرابات الداخلية. فعندما كان يتوجه إلى زنجبار كانت الأحداث تنفجر في عمان. وعندما كان يقيم في عمان كانت زنجبار بدورها تصبح مسرحا للصراعات، ومن هنا أصبح من المستحيل على خلفائه أن يتمكنوا من حفظ النظام والهدوء في السلطنة.

ب) لم تكن المستعمرات العربية في أفريقيا من بداية حكم سعيد أكثر من أراضي للعبيد ... ولكنها أصبحت في عهد ماجد وثويني أراض منتجة، جديرة بالاهتمام، وأصبحت هذه الأراضي من الآن وصاعدا لها أهمية مشابهة لمدن عمان.

جـ) كان لا بد من تسهيل مراقبة تجارة العبيد.

وبعد قراءة هذا التقرير أرسل اللورد كاننغ في ٢ أبريل ١٨٦١ رسالتين إلى كل من ثويني وماجد تحملان المضمون نفسه.

صديقي العزيز الجليل. أكتب لسموكم بخصوص الخلافات المؤسفة التي نشبت بينك وبين سمو الأخ حاكم زنجبار (أو إمام مسقط)، التي تعهد سموكم لتسويتها بقبول تحكيم نائب ــ الملك الحاكم العام للهند. وتقديرا للعلاقات التي قامت باستمرار بين حكومة صاحبة الجلالة الملكة وحكومتي زنجبار وعُمان، وبما أنني أرغب في تجنب قيام حرب بين الأهل قبلت مهمة التحكيم. وحتى أحصل على أفضل معرفة بكل نقاط الخلاف، أمرت حكومة بومباي أن ترسل ضابطا إلى مسقط وزنجبار؛ ليقوم بالتحقيقات الضرورية. ولهذا الغرض وقع اختيارنا على الميجور جنرال كوغلان، وهو ضابط يوحي رأيه وذكاؤه ونزاهته لحكومة الهند بالثقة التامة.

لقد سلم الجنرال كوغلان تقريرا واضحا وشاملا عن القضايا كافة المطلوب تسويتها بين سموكم وأخيكم، وقد تفحصت كل واحدة من هذه المسائل بانتباه شديد وقد توصلت إلى قرارين :

١) أن يتم الاعتراف بسمو سيد ماجد حاكما شرعيا على زنجبار والممتلكات الإفريقية، التي تخص المرحوم الأمير سيد سعيد.
٢) أن يدفع حاكم زنجبار سنويا لحاكم مسقط إعانة مقدارها أربعون ألف كورون.

إنني سعيد لأن تكون هذه البنود عادلة ومشرفة للطرفين، وبما أنكم رضيتم بطيب خاطر، وبملأ إرادتكم بأن أقوم بدور التحكيم، فإنني أتوقع أن تقبلوا هذه البنود برضا وإخلاص، وأن يتم تنفيذها دون أية إضاعة للوقت. ولا ينبغي النظر إلى دفع الإعانة المالية السنوية على أنه اعتراف بتبعية زنجبار تجاه مسقط، كما أنه يجب أن لا يأخذ طابعاً فردياً يخص شخص سموكم وشخص أخيكم سيد ثويني، بل ينبغي أن يمتد إلى من يخلفونكم بالتتابع وينزل منزلة التسوية النهائية الدائمة، التي تشكل تعويضا لسلطان مسقط عن تخليه عن مطالبه كافة بالسيادة على زنجبار، مما يخفف من عدم المساواة بين التركتين اللتين خلفهما والدكما المرحوم عظمة السلطان سيد سعيد الصديق الموقر للحكومة البريطانية. هذان الميراثان ينبغي وصفهما من الآن متميزين بعضهما عن بعض ومفصولين.

إنني لسموكم الصديق المخلص، الذي يتمنى لكم أفضل الأماني.

كانِنغ[٣٠١]. نسخة طبق الأصل. حرر في ٢ أبريل ١٨٦١ في « قلعة وليم » س يو آنيشيزون، الوكيل المساعد لحكومة الهند.

لقد اتخذ التحكيم شكل اتفاقية سلام بين مسقط وزنجبار، وأقر بقيام سلطنتين تابعتين لبريطانيا العظمى.

---

(٣٠١) Kajare, Firouz, op. cit Pp. 121 - 123.

ب ـــ الإعلان المشترك الفرنسي البريطاني لعام ١٨٦٢

أجلت الحكومة الفرنسية الاحتجاج على تحكيم كاننغ، وما نجم عنه من قرارات على الرغم من أنها شعرت بالقلق تجاه ذلك؛ لأن الوضع كان يتطور في صالح بريطانيا. والواقع أن فرنسا كانت تتمتع بنفوذ كبير لدى ماجد، الذي دعمته دائما ضد خصومه، ولذلك فقد طلبت من بريطانيا إصدار قرار مشترك يعترف باستقلال زنجبار، وهكذا، ففي ١٠ مارس ١٨٦٢ توصل البلدان إلى تفاهم مشترك للإعلان عن أن « جانب صاحب الجلالة أمبراطور الفرنسيين وصاحبة الجلالة ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا قد وجدا أن من المناسب التعهد المتبادل باحترام استقلال سلطان مسقط من جهة، وسلطان زنجبار من جهة أخرى، آخذين بالإعتبار مدى الأهمية المتعلقة بالحفاظ على استقلال هذين الأميرين.

إن الموقعين أدناه، وزير خارجية صاحب الجلالة أمبراطور الفرنسيين، والقنصل البريطاني فوق العادة، لصاحبة الجلالة البريطانية لدى البلاط الفرنسي المخولين بالصلاحيات اللازمة يعلنان بالتالي عبر هذا القرار المشترك أن صاحب وصاحبة الجلالة المذكورين أعلاه، قد اتخذا بصورة متبادلة قرار التعهد المذكور أعلاه.

وإثباتا لذلك وقع الموقعون أدناه توقيعهم معا على هذا الإعلان.

حرر في باريس، في ١٠ مارس ١٨٦٢[٣٠٢]: توقيع : أي ثوفنل وكولي.

---

(٣٠٢) « Boutres Mascatais Fransais Memoire present par le gouvernement de la re'publique Fransaise P. 59 (imprimerie nationale), Paris, 1907.

الفصل السادس

التنافس الفرنسي ــ الإنكليزي
منذ الاتفاقية السرية في ٢٠ مارس ١٨٩١
حتى الإعلان الودي لسنة ١٩٠٤

أ ــ الوضع قبل أزمة مسقط

بقي الوجود البريطاني الذي توطد عند بداية القرن التاسع عشر بلا أي منافس له على الرغم من أن القوى الكبرى لم تعترف رسميا بهذا الوجود، وظلت فرنسا تحاول اللعب لحسابها الخاص. وضمن نطاق توسعها الاستعماري كانت فرنسا قد احتلت بين ١٨٨٥ و ١٨٩٥ كلا من مدغشقر والصومال الفرنسي، وأمنت لنفسها في أثيوبيا نفوذا كبيرا تخطى هذه البلاد إلى مناطق الهند الصينية. وفي البداية كانت فرنسا قد وقعت على إعلان ١٨٦٢ المشترك مع بريطانيا، الذي يضمن استقلال زنجبار وعمان.

وفي سنة ١٨٩٤ أقامت فرنسا قنصلية لها في مسقط للدفاع عن مصالحها ضد بريطانيا العظمى، التي كانت تحاول السيطرة بصورة كاملة على منطقة الخليج. وللإحاطة بمدى صلابة المواقع البريطانية يجب

أن نعيد إلى الأذهان أبرز الأحداث التي شهدها نهاية القرن التاسع عشر. كانت بريطانيا تشرف على السياسة الخارجية للإمارات العربية دون أن نذكر كذلك التأثير البريطاني المباشر في السياسة الداخلية لهذه الامارات، أو أن نشير إلى استثناء بريطانيا لنفسها بوسائل النقل. كانت القوات البريطانية والموظفون البريطانيون، منتشرين في مجموع دول المنطقة. ومع ذلك لم يكن من المستحيل أن يتم وضع حد لهذه الهيمنة البريطانية، بسبب الخلافات التي كانت تنشب بين الحكومة المركزية (في لندن) وحكومة الهند.

وكان من الممكن أيضا في حال تبدل العلاقات بين القوى الكبرى، أو حصول خطر يهدد أمن الهند، أن تقبل حكومتا بريطانيا والهند تقديم تنازلات في الخليج. وقد تبلور هذان الاحتمالان بصورة جلية أمام بريطانيا، عند نهاية القرن التاسع عشر، عندما أوكلت شؤون المنطقة لفريق جديد من المسؤولين أقل خبرة من الفريق السابق. في هذه الحقبة كان الخليج محط أطماع القوى العظمى الفرنسية والروسية والألمانية، وكانت الهيمنة البريطانية قد بدأت بالتمزق، وفي بداية القرن العشرين وجد المسؤولون البريطانيون أن من الضروري إعادة تنظيم الجهاز الإداري الذي أورثه لهم « السير أدوار روس »، فقررت حكومة لندن الإمساك مباشرة بالمصالح البريطانية في منطقة الخليج العربي.

وبالفعل، فمنذ بداية القرن التاسع عشر بدأت تتقلص امتيازات حكام الخليج لصالح المقيم البريطاني في الهند، ومعاونيه المباشرين، الذين كانوا يديرون أمر سياسة الخليج التي تقررها السلطات البريطانية رسميا من لندن، أو من الهند، وكان هدفهم الأساسي حماية المصالح البريطانية من أي خطر خارجي.

وتبدل الوضع عند نهاية القرن التاسع عشر على إثر وصول أشخاص غير قادرين على القيام بأعباء مهامهم إلى الحكم. واحتفظت حكومة

الهند لنفسها في هذه الأثناء بحق الإشراف على سياسة كامل المنطقة. ومنذ ١٨٧٠ سبق لحكومة لندن أن تابعت عن كثب تطور الأحداث في آسيا. ومع ذلك، فقد ظلت حكومة الهند حتى نهاية القرن التاسع عشر الجهة المنوطة التي تهتم بشؤون الخليج، انطلاقا من الوضع السياسي في آسيا وحده بينما كانت لندن بالمقابل تلتفت أيضا إلى الأحداث السياسية التي لا دخل لآسيا بها، على الرغم من أهمية هذه الأحداث(٣٠٣).

وعند نهاية القرن التاسع عشر جرت مناقشات داخل حكومة الهند حول فكرة تعيين مسؤول عن الشؤون الأوروبية داخل حكومة الهند ذاتها. ورأى اللورد « الجين » (نائب ملك الهند بين ١٨٩٤ و ١٨٩٩) أن هذه الفكرة لا جدوى منها؛ لأنه كان يرى أن ذلك المسؤول لن يمكنه حسم أي موضوع بين الهند والدول الأوروبية من دون المصادقة المسبقة من جانب حكومة لندن(٣٠٤). كما أن عجز الجهاز الإداري كان يلقي بظله على الوضع، بالنظر لتزايد مسؤوليات هذا الجهاز(٣٠٥)، ومن جانب آخر مكتب شؤون الهند في لندن كانت تنقصه المعلومات والعناصر البشرية اللازمة لفهم الأحداث الخارجية، ولتنسيق المواقف السياسية بين المركز (لندن) والهند. فقد كان تباطؤ هذا الجهاز وقلة سلطته، يعطيان فعالية محدودة للقرارات التي كان يخرج بها(٣٠٦).

وبالنظر لانصراف حكومة لندن المتزايد إلى الشؤون الأوروبية والنزاعات بين القوى الكبرى اضطرت وزارة الخارجية البريطانية لأن

(٣٠٣) OXFORD, « History of India », 4eme edition, pp. 694 - 752 - 753.

(٣٠٤) India (3), Elgin to Hamilton, 20 octobre 1895, No 43.

(٣٠٥) India (2), Vol, I, Curzon to Hamilton, 4 Juin 1899.

(٣٠٦) India (1), Vol. V, Hamilton to Curzon, 13 Fevrier 1903.

تلعب دورا مهما جدا في توجيه السياسة الخارجية لحكومة الهند. وفرض هذا التدخل المباشر نفسه مع مجيء كورزون إلى الهند سنة ١٨٩٩. لقد كان توجيه السياسة الإنكليزية في الهند موضع مناقشات عديدة، فاللورد سالزبوري اشتكى في التسعينات من النزعة الاستقلالية التي تبديها حكومة الهند في قراراتها الخاصة بالسياسة الخارجية، وأرسل العديد من رسائل الاحتجاج إلى هذه الحكومة، واصفا إياها بأنها تتبع سياسة استفزازية في آسيا[٣٠٧].

وبعد شهرين من قدوم كورزون قفزت أزمة مسقط إلى الواجهة من جديد، ولم يشعر لورد سالزبوري بالرضا للطريقة التي عالج بها كورزون ومعاونوه هذه المسألة. وبعد أن أدان اللورد سالزبوري ما أسماه « بالسياسة العدوانية »[٣٠٨] (لحكومة الهند) وصل إلى حد التفاوض مع فرنسا[٣٠٩]؛ ومع أن كورزون كان معارضا لسالزبوري دائما فقد اضطر للقبول بموقفه[٣١٠]؛ وابتداء من سنة ١٨٩٩ أصبح كل قرار (تتخذه حكومة الهند) يخضع لقبول حكومة لندن أو رفضها. وهكذا فإن كورزون تذمر سنة ١٩٠٣ من الهيمنة التي تمارسها وزارة الخارجية البريطانية على السياسة الخارجية للهند[٣١١]، دون أن يعني ذلك أن حكومة الهند لم يعد لديها كلمة تقولها في شؤون الخليج، وخاصة منذ أن نجح كورزون في تحسين الوضع. إلا أن حكومة الهند فقدت مع ذلك مركز المقرر الأول في الشؤون الخليجية. وهكذا فمنذ ١٨٩٩ أصبحت حكومة الهند تابعة للندن في سياستها الخارجية، وخاصة تلك

---

(٣٠٧) Landen, « Oman Since 1956 », P. 258.

(٣٠٨) Ibid, P. 178.

(٣٠٩) India, vol. I, Hamilton to Curzon, 10 Fevriei et 10 et 15 mars 1899.

(٣١٠) India (2) vol. II, Curzon to Hamilton, 5 September (1900).

(٣١١) Chirol, « the middle eastern question », P. 4 (voir « Budger of lord curzon », 25 mars 1904).

التي لها علاقة بالخليج، وحدث أن لندن اتخذت قرارات دون أن تشاور كورزون بالمرة. وقد ثارت ثائرة كورزون عندما أحيلت مشكلة الأعلام الفرنسية إلى محكمة العدل الدولية في لاهاي(٣١٢).

ومع خروجه من الهند باتت السياسة الخارجية لهذا البلد تحت الإشراف الكامل للإنكليز في لندن. ومع أن بريطانيا كانت تتمتع في عمان بموقع متميز، فإن عمان لم تكن ترتبط إلا بمعاهدات ثانوية، لا تخضعها للندن، كما أن الإعلان البريطاني ـــ الفرنسي المشترك لسنة ١٨٦٢ كان يضع بريطانيا وفرنسا على قدم المساواة تجاه عمان، قبل أن تتحول مسألة القنصلية الفرنسية في مسقط إلى شرارة تشعل نار الخصومة بين القوتين الاستعماريتين(٣١٣).

وفي نوفمبر ١٨٩٢ أعلن النائب الفرنسي « دي لونكل » أمام الجمعية الوطنية الفرنسية (البرلمان) أن « شرف فرنسا يتطلب أن يكون لها قنصل في مسقط؛ لتسجيل المواطنين الذين هم تحت الحماية الفرنسية »، وأضاف النائب قائلا : « إذا نجحت فرنسا في التمركز في الخليج(٣١٤)، فستصبح في موقع يسمح لها بالتفاوض مع روسيا، وبتأمين وجودها كحليف قوي جدا ». وخلال مناقشة الموازنة الفرنسية سنة ١٨٩٣ ألح « دي لونكل » مجددا على هذه النقطة، وطلب تخصيص مبلغ سبعة آلاف فرنك فرنسي لتغطية نفقات فتح قنصلية فرنسية بالنيابة في

---

(٣١٢) India, (2) vol. VI, curzon to Hamilton, 28 mai 1904.

(٣١٣) استمرت المنافسة بين القوى الكبرى على أشدها في نهاية القرن التاسع عشر وبعد أن كانت فرنسا تركز على قناة السويس، أصبحت تهتم كثيرا بعمان، منذ أن حاول « جول فيري » إقامة خط بحري بين فرنسا والخليج، في الفترة ما بين ١٨٦٩ ـــ ١٨٨٥. لقد رأينا التدخل الفرنسي في زنجبار وعدن، ثم في مسقط، وكان القناصل الفرنسيون يشاركون في نصب علم بلادهم على المراكب الآتية من صور ومن غيرها من الموانئ العمانية.

(٣١٤) Landen, op. cit, cf. P. 246.

مسقط. وقد وعد وزير الخارجية « دنيفل » بتلبية هذا الطلب[٣١٥].

وفي ٨ نوفمبر ١٨٩٤ وصل الدبلوماسي الفرنسي « أوتافي » إلى مسقط، وكان يتكلم العربية بطلاقة، وسبق له أن عمل في زنجبار، وشغل مراكز أخرى في المحيط الهندي. وأصبح أوتافي نائب قنصل فرنسا في مسقط، وبفضل براعته في الدبلوماسية أصبح منافسا خطرا بالنسبة للممثلين البريطانيين في المنطقة في نهاية القرن التاسع عشر[٣١٦]. استقبل فيصل بن تركي سلطان عمان أوتافي بحذر؛ لأنه كان يخشى من فرض حماية فرنسية للقوارب الشراعية العمانية التي تحمل العلم الفرنسي، كما أنه كان يخشى من اقتطاع فرنسا لميناء صور وانتزاعه من سلطنة عمان. وبعد بضعة شهور على وصول أوتافي تبدل سلوك السلطان فيصل، وخاصة بعد أن رفضت بريطانيا العظمى إعانته في أخماد تمرد خصومه العمانيين في فبراير ــ مارس ١٨٩٥. فمن جهة، تدهورت العلاقات بين عمان وبريطانيا، عندما طالب الإنكليز بتعويضات من حكومة مسقط للتجار الهنود، الذين كانوا قد تعرضوا لخسائر في أثناء الهجوم على مسقط. وخلافا للموقف الإنكليزي فإن أوتافي عرض على السلطان معونة عسكرية فرنسية في النزاعات التي يدخل فيها. وبالفعل تم استدعاء السفينة الحربية الفرنسية « ترود »؛ لنجدة السلطان، إلا أنها وصلت متأخرة جدا، وكانت المعونة الفرنسية قليلة الفعالية. غير أن السلطان لم يعد يشك بحسن نوايا الحكومة الفرنسية تجاهه، ولا بالعون المادي الذي يمكن أن يحصل عليه منها، وذلك بفضل نشاط القنصل « أوتافي »[٣١٧].

---

(٣١٥) Precis Maskat, P. 45, Lorimer, cf. Bibl, Vol. I, PP. 456 - 547.

(٣١٦) Annuaire diplomatique et consulaire de France, 1899, P Paris, 1899.

(٣١٧) Documents diplomatiques Francais. Hanotauz a coigoond 24 Fevrier 1985, No. 379, Première serie vol. CI.

وفي بداية ١٨٩٦ حاول الإنكليز تحسين علاقاتهم مع عُمان، ووضع حد لنمو العلاقات الفرنسية ـــ العمانية، فعرضوا على السلطان أسلحة وعونا ماليا، بحجة ضرورة وجود حماية لعمان، سرعان ما تخلوا بأنفسهم عنها(٣١٨)، وخلال كل مقابلة لأوتافي مع السلطان كان الدبلوماسي الفرنسي يحرص على تذكيره بأنه حر في قراراته في السياسة الخارجية، وبأنه مسؤول كامل المسؤولية عن شؤون عُمان الداخلية(٣١٩)، وبهذه الطريقة كان أوتافي يدفع السلطان إلى تأكيد استقلاله تجاه بريطانيا العظمى. إن نجاح أوتافي « الذي عرقل الصلات الإنكليزية العمانية » يرجع من جهة إلى الأخطاء التي ارتكبها الإنكليز، ومن جهة أخرى إلى التأثير الكبير الذي عرف كيف يمارسه على السلطان وحاشيته(٣٢٠).

وزاد قلق الإنكليز عندما تم تعيين عزيز، وهو سكرتير سابق لأوتافي، أمين سر للسلطان شخصيا؛ إذ كان عزيز يدعم بصورة جلية العمانيين المعارضين للإنكليز(٣٢١)، وكان يسهر على تنمية المصالح الفرنسية في عمان. وبهذا التعيين كان السلطان يحاول تحقيق توازن بين المصالح البريطانية والفرنسية في بلاده؛ ليضمن لها أفضل استقلال. وفي ٩ مارس ١٨٩٨ حقق أوتافي نجاحا كبيرا، عندما منحه السلطان امتياز إنشاء مستودع للفحم في بندر « جصة » على بعد ٧ كيلومترات من مسقط(٣٢٢). وفي شهر أكتوبر من السنة نفسها وصلت السفينة الحربية الفرنسية « سكوربيون » إلى مسقط، تبودلت الهدايا بهذه المناسبة بين السلطان والفرنسيين، وقدم كابتن السفينة للسلطان مدفعا على سبيل الهدية. وحصلت لقاءات سرية بين الطرفين تمت على أثرها إقالة رئيس

---

(٣١٨) Wilson, cf. Bigl. P. 239. Precis Maskat, pp. 16-22. Lorimer of, Bibl. pp 550-552.

(٣١٩) A.M.A.E. « Ottavi a Hantaux », 23 Fevrier 1897, Mascat Tome 2, PP. 10-16.

(٣٢٠) India (1), vol, I, Hamilton to curzon, 6 Juillet 1899.

(٣٢١) Precis Maskat, P. 77, Lorimer, vol. I, P. 556.

(٣٢٢) A.M.A.E. note cf. Bibl. No. Depot de charpon a Mascate 1898-1900.

الوزراء العماني الموالي للإنكليز. وفي هذه الأثناء قام أوتافي مصحوبا بجزء من طاقم « سكوربيون » بجولة تفتيشية في بندر جصة[٣٢٣]. وبدا في هذه اللحظة أن فرنسا قد نجحت في إبعاد عُمان عن الهيمنة البريطانية، بينما كانت المنطقة تعد حكرا على الإنكليز.

وفي بداية ١٨٩٨[٣٢٤] تزايدت مخاطر الصدام البريطاني ــ الفرنسي في منطقة الخليج وبلغ الخطر ذروته[٣٢٥] مع حصول فرنسا على امتياز تخزين الفحم. وكان الإنكليز مصممين على الرد في نقطتين معا : مستودع الفحم، وأزمة « فاشودا »، واضطرت فرنسا المنهمكة بمشكلاتها الداخلية لإظهار نزعة اللين في سياستها الخارجية.

وبين ١٨٩٨ و ١٩٠٤، كما سنرى لاحقا، حاولت فرنسا تسوية خلافاتها مع بريطانيا، وبذل وزير الخارجية الفرنسي « تيوفيل دلكاسيه » كل ما بوسعه من جهود، من سنة ١٨٩٨ إلى سنة ١٩٠٥؛ ليمنع وقوع حرب بين بلاده وبريطانيا. فقد كان يرى أن واجب فرنسا توفير الحماية لأوروبا في وجه القوة الألمانية، وكان يرى في تحسن العلاقات الفرنسية ــ الإنكليزية عنصرا ضروريا لهذه الحماية[٣٢٦].

ب ــ أزمة مسقط

في ٢٠ نوفمبر أبرزت الصحف الباريسية نبأ منح مسقط لفرنسا حق إقامة مستودع للفحم في « جصة ». وهذا النبأ عجل فيما دعي لاحقا « أزمة مسقط » حيث تواجهت فرنسا وبريطانيا[٣٢٧]. وطلب

---

(٣٢٣) Lorimer, cf. Bibl, vol. I, P. 556

(٣٢٤) A.M.A.E. note cf. Bibl. No 83, Annexe No. 1.

(٣٢٥) راجع نص هذا التعهد، في الملحق رقم ١٦.

(٣٢٦) Langer, « Diplomacy of imperialism », pp. 796-797.

(٣٢٧) « Journal des de'bats », Paris, 20 november 1898.

السفير الإنكليزي في باريس « السير إي مونسون » توضيحات من وزير الخارجية الفرنسية، الذي زعم أنه لا يعلم شيئا عن الموضوع، ومن الواضح أن « دلكاسيه » كان يخشى من حصول تعقبدات تهدد سياسة التقارب مع بريطانيا(٣٢٨). ومن جانبه تبنى اللورد سالزبوري في لندن موقفا مرنا يمكن أن يسمح لدلكاسيه بإيجاد مخرج؛ لأن اللورد كان مهتما مثل الوزير الفرنسي بتحسين العلاقات الفرنسية ــ البريطانية(٣٢٩). وبالمقابل فإن سلوك اللورد كورزون، نائب ملك الهند منذ يناير ١٨٨٩، كان يمكن أن يفاقم الأمور بين لندن وباريس. وفي سنة ١٨٩٢ كان كورزون يلح، قبل أن يصبح نائبا للملك، لدى حكومته لتتفهم ضرورة تقوية دفاعات الهند. ورأى كورزون أن الخليج وبلاد فارس مناطق ضعيفة، ينبغي حمايتها من أطماع القوى الكبرى(٣٣٠). وهكذا فما أن وصل إلى الهند حتى راح يهاجم كل ما يعيق الوجود الإنكليزي، سواء في بلاد فارس، أم في الخليج. وما أن علم بموضوع مستودع الفحم حتى قرر تحطيم هذا الاتفاق، حتى بالقوة إذا لزم الأمر، وحتى دون انتظار الأوامر من لندن طلب كورزون من المقيم البريطاني في الخليج تسوية كل المشكلات البريطانية العالقة. وبهذا التصرف تسبب كورزون بالعديد من التعقيدات التي انعكست على المفاوضات بين سالزبوري ودلكاسيه.

وفي ١٧ يناير ١٨٩٩، وبناء على طلب من كورزون، استدعى المقيم البريطاني في مسقط « فاغان » السلطان فيصل، الذي اعترف بمنح الفرنسيين امتياز الفحم، فاحتج فاغان على هذا الإجراء، الذي

(٣٢٨) Public record office Mss; Fo : 27/3489, Mouson to salisbury, 2 december 1898, No. 663.

(٣٢٩) Documents diplomatiques Francais, 1er serie, vol, XIV, Courcela Hanotaux, 26 mars 1897.

(٣٣٠) Curzon, « Persia and the persian question », vol. II. 462, Londres 1892.

وصف أنه يشكل انتهاكا للتعهد الذي قطعه السلطان على نفسه تجاه بريطانيا. وفي ٢٠ يناير ١٨٩٩ رفض السلطان فيصل هذا الاحتجاج، بحجة أنه سبق أن أعطى وعده للفرنسيين دون أن تكون لديه أية نية لسحب هذا الوعد، وما على الإنكليز إلا أن يقوموا بحل مشكلاتهم مباشرة مع الفرنسيين. عند ذلك أعطى كورزون أمرا برفع العلم البريطاني في بندر جصة ما إن تظهر أول سفينة فرنسية[٣٣١] وقرر أيضا وقف دفع الإعانات المالية للسلطان، كما أمر الكولونيل « ميد » ممثله في مسقط أن يسلم تحذيرا في ٩ فبراير ١٨٩٩[٣٣٢] يتضمن إعطاء السلطان فيصل بن تركي مهلة ٤٨ ساعة لسحب الامتياز الممنوح للفرنسيين[٣٣٣].

وطلب كورزون في الوقت نفسه من حكومة لندن إقرار هذا التحذير، واضعا هذه الحكومة أمام الأمر الواقع. وفي ١٣ فبراير خضع فيصل لمطالب كورزون، طالبا حماية إنكليزية ضد أي هجوم فرنسي، إلا أن ذلك لم يكن كافيا لإرضاء طموحات « ميد » و « كورزون ». ففي ٢٤ فبراير ظهر الأميرال دوغلاس قائد الوحدات البحرية الهندية أمام مسقط على رأس أسطول بريطاني، وطلب من السلطان أن يلغي رسميا الاتفاق مع فرنسا. وقد أراد كورزون بهذا التدخل تخويف السلطان وفرنسا معا. وفي ٢٦ فبراير استدعى دوغلاس السلطان إلى سفينته؛ لأنه لم يتلق جوابا من السلطان بينما كانت وحدات الأسطول البريطاني ترسو على مسافة قريبة من القصر، ومن الوحدات العمانية. كان الأسطول مستعدا لقصف مسقط، وأمام هذا الضغط اضطر السلطان للرضوخ لمطالب كورزون، وتوجه إلى السفينة « أميرال » ومن سخرية القدر

---

(٣٣١) Curzon, of. cit. P. 70, Hamilton to Curzon, 20 Janvier 1899 (telegramme).

(٣٣٢) Lorimer, cf. Bibl, Vol. I, P. 1558.

(٣٣٣) راجع النص في الملحق رقم ١٧.

أن القطع البحرية الإنكليزية أطلقت ٢١ طلقة مدفع احتفاء بالسلطان، وعلى شرفه[٣٣٤].

وعلى إثر هذا الحادث تحسنت العلاقات بين السلطان والإنكليز لدرجة أنه قام بزيارة في مارس من السنة نفسها إلى أشد من كان يكرهه : الميجور فاغان. وما أن حل « برسي كوكس » محل فاغان حتى عادت الأمور إلى نصابها الطبيعي بين عمان وبريطانيا العظمى[٣٣٥]. لقد دلت أزمة مسقط على أن كورزون مستعد لأن يضرب باستقلال عمان الرمزي بعرض الحائط؛ لحماية مصالح بريطانيا. وأدرك فيصل من جانبه أنه ليبقى سلطانا لا بد له من مباركة الإنكليز، وأن أي تحد للإنكليز قد ينتهي به إلى خسارة عرشه.

ولم يرتح الفرنسيون أبدا لهذا التدخل الإنكليزي، وفي ٢٢ فبراير احتجت باريس على سلوك الأميرال دوغلاس[٣٣٦]، وأعرب دلكاسيه عن قلقه من بعض الإنكليز الذين يرغبون في حرب مع فرنسا، والذين لا يتورعون عن الاستفزازات التي يمكن أن تدفع بريطانيا على طريق الحرب[٣٣٧]، وكان لأزمة مسقط انعكاسات داخل فرنسا، وعاد دلكاسيه عن موقفه لإعطاء فرصة لاستمرار المفاوضات مع سالزبوري[٣٣٨]، الذي شعر بالقلق من الشائعات التي صاحبت الأزمة وأعقبتها، فرأى أن سلوك كورزون كان عبارة عن « خطأ فادح »[٣٣٩]. لقد كان يخشى من

(٣٣٤) Precis Maskat, Pp 70-76.

(٣٣٥) India (1), vol II, « Hamilton to Curzon », 5 Janvier 1900.

(٣٣٦) Public records office, Fo 27/3530, Cambon to Foreign office », 22 Fevrier 1899.

(٣٣٧) Ibid, 27/3455, « Monson to salisbury », 13 Janvier 1899.

(٣٣٨) Journal officiel, « de'bats de la chambre des deputes », 7 mars 1899 India (1), vol. I, « Hamilton to curzon », 3 mars 1899.

(٣٣٩) G. Goochet H temberley, « British documention the origin of the war, vol. I, Londres 1902-1938, Pp 209-210.

الانعكاسات المفاجئة، التي يمكن أن تنجم عن النزاع، وهو ما من شأنه أن يفسد الحل الإجمالي للمشكلات الافريقية، وهو الحل الذي كان يبحث عنه مع دلكاسيه، وإذا كان سالزبوري يعارض أي تنازل تقدمه حكومات الخليج لقوى عظمى غير بريطانيا، فإنه كان يوافق مع ذلك على فكرة أن تحصل فرنسا على تسهيلات في مسقط، بما في ذلك تخزين الفحم الفرنسي[٣٤٠]، ولما كان كورزون يرى أن موقف سالزبوري رخو جدا فقد دافع عن صحة تدخله على الرغم من إقراره بأن فرنسا كانت تحتاج ميناء لهم في عُمان. وبشكل عام فإن كورزون كان يصف أن منح الفرنسيين ميناء لهم في هذه المنطقة، سوف يتيح لفرنسا فرصة تهديد أمن الهند[٣٤١]؛

وأخيرا نجح سالزبوري في بداية مارس ١٨٩٩ في تجاوز الأزمة، بتقديم عرض للحكومة الفرنسية، باستخدام مستودعات الفحم البريطانية الموجودة في ميناء مسقط. ولكن الفرنسيين استمروا مع ذلك في البحث عن أماكن أخرى للتخزين خارج مسقط؛ لأن العناد الإنكليزي لم يمنحهم سوى النصف. وأخيرا تم التوصل في مايو ١٩٠٠ إلى اتفاق بين بريطانيا وفرنسا، تقسم بموجبه الدولتان خليج المكلا[٣٤٢].

وعلى أثر هذه الترتيبات، المتفق عليها، فقد أوتافي ثقة السلطان، واضطر ابتداء من ١٨٩٩ لاستخدام تكتيك جديد؛ لتوطيد دعائم الوجود الفرنسي في الخليج. ثم إن الوفاق الإنكليزي الفرنسي نفسه لم يدم طويلا؛ إذ إن فرنسا بدأت منذ ١٨٦٠ تسمح بحمل علمها من جانب أصحاب القوارب الشراعية العمانية، مما أدى إلى بروز أزمة جديدة عرفت باسم « أزمة العلم الفرنسي » بين فرنسا وبريطانيا.

---

(٣٤٠) London, cf, Bibl. P. 254.

(٣٤١) India (2), vol. II, « curzon to Hamilton », 5 september 1900.

(٣٤٢) Lorimer, cf. Bibl. vol I, P. 561.

ج ــ مسألة العلم الفرنسي

سبق لفرنسا وبريطانيا أن تعهدتا، عبر إعلان مارس ١٨٦٢، باحترام استقلال سلطان مسقط وسلطان زنجبار، ولكن حكومة الجمهورية الفرنسية التي كانت تريد الحفاظ على السلام في صلاتها مع بريطانيا فضلت أن تغض النظر مرات عديدة عن عدد من الخروقات، التي قامت بها بريطانيا لمبادئ الإعلان المذكور. ولكن، ابتداء من سنة ١٨٩٧ بدأ بعض الموظفين الإنكليز، وخصوصا مسؤولي حكومة الهند البريطانية، ينتهجون في مسقط سياسة غير ودية تجاه فرنسا.

كانت فرنسا تمنح أصحاب المراكب الشراعية من أبناء صور ومسقط حمايتها، وكانت تعطيهم حق رفع العلم الفرنسي فوق مراكبهم. وتحركت بريطانيا بسرعة ضد تسليم وثائق فرنسية لقباطنة المراكب الشراعية المحلية، واصفة أن هذا الاجراء يشكل خرقا لحقوق واستغلال سلطان مسقط. وفي البداية تنازعت بريطانيا والسلطان حول الشكليات القانونية، ثم تنازعت فرنسا معه حول الشكليات نفسها قبل أن تتواجه الدولتان الأوروبيتان مباشرة، وتقرران رفع القضية إلى المحكمة الدائمة للتحكيم في لاهاي. وكان على هذه المحكمة أن تحدد ما إذا كان منح علم وطني (علم فرنسا) لأصحاب المراكب الشراعية، الذين لمعظمهم مسكن في إحدى المستعمرات الفرنسية، يشكل خرقا لتعهد ١٠ مارس ١٨٦٢. ولم يصدر حكم محكمة لاهاي إلا في ٨ أغسطس ١٩٠٥.

١ ــ فرنسة القوارب الشراعية المحلية : جذور المسألة

منذ استعمار الفرنسيين لجزر « ونوسي بي » « مايوت » سنة ١٨٤١ وسنة ١٨٤٣ اهتم بوضع هؤلاء وتنظيم وضع أصحاب المراكب الشراعية، وممارسة رقابة شديدة عليهم وأكثر فعالية لارتباطهم بتجارة الرقيق،

ومكافحتها، وهكذا تم إنشاء مكتب بحري في مايوت، مكلف بمراقبة ذهاب هذه المراكب وإيابها وأعطي بعض الصلاحيات. ولم يمض وقت طويل حتى كثرت المراكب التي تحمل الأعلام الفرنسية ومنذ ذلك الحين تم تسليم أذونات الملاحة الأولى. وأقدم إذن يرجع تاريخه إلى سنة ١٨٤٥.

ولما كانت الحماية الفرنسية تقدم بعض المكاسب لطواقم المراكب وعائلاتهم، فقد كثرت عمليات منح الأذونات الفرنسية، وتم إنشاء نظام حقيقي، كانت بنوده لا تزال سارية المفعول في سنة ١٨٧٠. لقد كتب الضابط الفرنسي البحري جيزولم يقول في تقرير بعث به إلى وزارة البحرية. إن « الفرنسة لا تمنح لأي مركب شراعي إلا عندما يقدم المالك الدليل على أنه يقيم في المستعمرة وأن له فيها مصالحا أي باختصار عندما يثبت أن صناعته التجارية تتم فوق أراضينا ». وفي نوسي بي كان على مالكي القوارب الشراعية أن تكون أسماؤها مدرجة كصناعيين، في كشف الوثائق المعتمدة. وفي هذه الحالة فإنهم يحصلون على ما يلي :

١ ــحكم مصدق يثبت أن المركب فرنسي.
٢ ــكشف بالطاقم.
٣ ــتصريح صالح لمدة سنة فقط.

وبالعودة إلى جيزولم، فإنه يضيف : (قبل الإبحار يتوجب على المراكب المفرنسة أن تحصل مثل المراكب الأجنبية على إذن بالخروج، لا يصلح إلا لسنة واحدة، فإذا لم يتجدد هذا الإذن، فإن المراكب تصبح غير شرعية، وفي هذه الحالة فإن أصحابها يفقدون كل الامتيازات التي تترتب على الفرنسة). ويختتم هذا الضابط البحري قائلا : « طالما أنه يتم احترام هذه القواعد بصورة دقيقة يصبح من الصعب توفير ضمانات حماية بمستوى الحماية التي يوفرها علمنا ».

وفي سنتي ١٨٧٥ و ١٨٨٨ تم تعزيز الضمانات الناجمة عن حقوق الحماية الفرنسية، ولم يعد يتم منح هذه الحقوق إلا بعد دراسة دقيقة للسلوك الأخلاقي، وتاريخ حياة طالب الحقوق المذكورة. والواقع إنه كان يوجد ثلاثة أنواع من أصحاب المراكب الشراعية؛ النوع الأول هم من أبناء المستعمرات الفرنسية، أو الدول الخاضعة للحماية الفرنسية، والثاني يشمل بحارة من سلطنة زنجبار، والثالث يشمل أصحاب المراكب العمانية.

أزمة المراكب

ولم تكن « أزمة المراكب »، التي سرعان ما اتخذت شكل نزاع بين فرنسا وبريطانيا تنطبق على أصحاب المراكب العمانية فقط، الذين يطالب السلطان مباشرة، بوصفهم من أتابعه، إلا أنه لم يمكن اثبات أي شيء بسبب عدم توفر الوثائق المحددة، التي تحدد الوضع الشخصي لهؤلاء. أما عدد مالكي المراكب المعنيين بهذا النظام، فلم يكونوا يتجاوزون الثلاثين.

٢ ــ معارضة السلطان

لنفرض أن فرنسا قد أساءت استعمال منح حمايتها، وحق رفع علمها في عمان، إن مسألة كهذه لا دخل لبريطانيا بها. فالعلاقات بين فرنسا ومسقط كانت تستند إلى معاهدة ١٨٤٤ التي كان يمكن للسلطان أن يرجع إليها في حال حدوث نزاع. وفي عهد فيصل، إن أيا ممن سبقوه في الحكم، لم يقدم على خطوة كهذه، وقد لزم أن تضغط بريطانيا لحمل فيصل على الاحتجاج لدى قنصلية فرنسا في مسقط. وقد بدأت بريطانيا بتذكير السلطان بمعاهدة ١٨٧٣، التي تلزمه بالمساهمة بكل ما لديه من سلطة في قمع تجارة الرقيق الأسود. ثم بحجة أن

هذه التجارة تتم في السفن التي ترفع العلم الفرنسي فقط؛ حسب ما لدى بريطانيا من معلومات أجبرت بريطانيا السلطان على اتخاذ إجراءات قاسية بحق المراكب الفرنسية. وهكذا رضخ السلطان أمام الإلحاح الإنكليزي، وسلم في ٢٧ مايو ١٨٩٧ لقنصل فرنسا في مسقط احتجاجا ضد منح العلم الفرنسي للمراكب العمانية، موضحا، مع ذلك، أنه إنما يحتج تحت طائلة الخوف من الحكومة الانكلو ــ هندية.

نوضح هنا أن فيصل رضخ تحت وطأة الضرورة ؟ لأنه كان في وضعية من التبعية الشبه الكاملة لبريطانيا من الناحية المالية. فالضريبة التي كانت تقدمها زنجبار بإشراف الحكومة الانكلو ــ هندية، كانت تعطي هذه الحكومة إمكانية تضييق الخناق على سلطان عُمان، حتى فرض المجاعة عليه إذا شاءت.فالدخل السنوي الإجمالي لسلطان مسقط كان ٣٠٠ ألف روبية تقريبا، مما كان يجعل موارده تنفذ بسرعة، لو لم تكن أموال « ضريبة زنجبار » تصل إليه باسم حكومة الهند، بوساطة القنصل الإنكليزي في مسقط. لقد كانت بريطانيا وحدها هي التي تقرر ما إذا كانت ضريبة زنجبار ينبغي أن تدفع لسلطان مسقط أم لا، مع أن القانون الدولي يدين هذه الممارسة بوضوح بوصفها عملا غير شرعي، لأن الضريبة المذكورة في حصيلة تعهدات متبادلة أقر بها طرفان عبر معاهدة أبرمت بعد تحكيم اللورد كاننغ سنة ١٨٦١. لقد كانت بريطانيا هي التي تدفع ضريبة زنجبار مباشرة، وابتداء من ١٨٦٨ فقط أصبحت هذه الضريبة تدفع لسلطان مسقط بوساطة الحكومة الهندية. وعلى أية حال، فإن فرنسا لم تعبأ باحتجاج السلطان المتعلق بمنح حق رفع العلم الفرنسي، خاصة نه لم يسبق لأي سلطان، لا في مسقط ولا في زنجبار أن فكر حتى ذلك الحين في الاعتراض على هذا الوضع.

وفي مذكرة لها بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٨٩٧ ألحت بريطانيا مجددا

لدى السلطان محتجة بصورة مباشرة هذه المرة على الحماية الفرنسية الممنوحة لأصحاب المراكب، وقام السلطان بمسعى جديد لدى القنصل الفرنسي دون أن يحالفه النجاح. وقد تكرر المشهد نفسه في يناير ١٨٩٨، ثم في فبراير ١٨٩٩، ولكن النتيجة لم تتغير. وبعد أن ضاقت بريطانيا ذرعا بهذه المسألة التي طال أمدها قررت في ديسمبر ١٨٩٨ تجميد دفع إعانتها المالية السنوية للسلطان، مهددة بجعل هذه العقوبة نهاية ما لم يرضخ فيصل للطلب البريطاني. وبعد أن صمد السلطان سنة بكاملها اضطر للتراجع، وتوجه في ٧ يونيو ١٩٠٠ مصحوبا بالقنصل الإنكليزي إلى صور على متن بارجة إنكليزية لممارسة ضغط تهديدي على أصحاب المراكب من أبناء صور، الذين يبحرون في النواحي القريبة. وبالفعل فقد سلم ثلاثة من هؤلاء أوراقهم الموقعة من السلطات الفرنسية، بينما عاند الآخرون، غير أنهم اضطروا للتوقيع على تعهد جماعي بالتخلي عن الحماية الفرنسية، واعدين بتسليم أذونات الملاحة التي بحوزتهم إلى السلطات التي منحتهم إياها. وفوق ذلك، فإن السلطان أعطى تعليماته بإلصاق أمر كتابي على جدران صور يعلن فيه أنه لم يعد يعترف بالوثائق والأعلام الأجنبية، ولا يسمح من الآن فصاعدا لرعاياه أن يتسلموا شيئا منها دون تفويض كتابي مسبق.

وأحدث هذا الإجراء الصارخ ردة فعل قوية داخل القنصلية الفرنسية، التي تدخلت بكل طاقتها، فأقر السلطان عند ذلك بأخطائه، واعدا بعدم إزعاج المشمولين بالحماية الفرنسية في المستقبل. لقد وقع هذا الأمر في نوفمبر ١٩٠٠، ومع ذلك، فإن السلطان فيصل عاد يفكر في السنة التالية بتدخل من النوع نفسه ضد أصحاب المراكب الفرنسية في صور. وبسبب معارضة قنصل فرنسا تخلى السلطان عن هذه المحاولة القمعية، ولكنه اتخذ إجراءات أخرى، فأعطى أوامره بإلغاء الحماية الفرنسية الممنوحة لأصحاب المراكب، ولكن تهديداته بقيت حبرا على ورق. ولما رأت بريطانيا أخيرا أنها لن تحصل على شيء عبر السلطان قررت

أن تتحرك بنفسها، وبصورة مباشرة لدى الحكومة المركزية الفرنسية؛ لتسوية مشكلة الأشخاص المشمولين بالحماية الفرنسية. كانت بريطانيا تكن أشد العداء للملاحة الأوروبية في الخليج العربي، ولذلك حرصت على أن تحفظ هيمنتها باحتكار الطرق البحرية المؤدية إلى الهند، أو بالإشراف عليها على الأقل، وكانت تعد أن من الحيوي لها إبعاد المراكب التي ترفع العلم الإنكليزي عن مياه عمان؛ أي مراكب العرب، وذلك لتشجيع التجارة التي لا ترفع العلم الإنكليزي « البونيان »، وهم رعايا هنود، كانوا يقيمون بأعداد كبيرة في عمان. فهؤلاء الذين كانوا يمسكون بمعظم تجارة عمان، وكانوا يدافعون في الواقع عن مصالح الشركات البريطانية، وهذا السبب يتمشى مع رغبة بريطانيا في ترك الدور المهيمن لهم في مسقط.

لقد كانت الحجة بتجارة الرقيق قد فقدت قيمتها منذ أن فرضت المحكمة الفرنسية في « لارينيون » عقوبات شديدة على أصحاب المركبين الفرنسيين « سولوما » و « سؤاد »، بعد التيقن من نقلهما للرقيق. هنا أوحت بريطانيا للسلطان فيصل بحجة جديدة للاستياء، عندما حاولت إقناعه بأن استقلاله بالذات هو الذي يتعرض للخرق من خلال فرنسة المراكب التابعة لرعاياه، وبأن هذه الفرنسة تخالف الإعلان الإنكليزي الفرنسي الصادر سنة ١٨٦٢. هذه المقولة الجديدة سرعان ما تبنتها حكومة لندن لحسابها الخاص، وقد ظهرت في المذكرة التي قدمها القائم بالأعمال الإنكليزي في باريس إلى دلكاسيه، في ٥ أغسطس ١٨٩٩، بناء على أمر من الحكومة البريطانية. فعمليات منح العلم الفرنسي لمراكب من صور لم تكن مقبولة أبدا من جانب الحكومة البريطانية « بالنظر لأن هذه العمليات لا تنسجم مع التعهدات التي قطعتها الحكومة الفرنسية على نفسها باحترام استقلال سلطان مسقط والحفاظ عليه ». ولما كانت الحكومة البريطانية منهمكة مباشرة بمشكلات سياسية في الهند، فقد تركت جانبا، وبصورة مؤقتة، مسألة المراكب. ومع ذلك

فقد شعرت بالقلق مجددا على إثر تصرفات أهل صور الذين كانوا يبدون ميلا متزايدا نحو فرنسا، متجاهلين أوامر السلطان فيصل بصورة تامة. وفي الفترة بين ١٩٠٢ و ١٩٠٣ توالت الحوادث التي كان الوكيل البريطاني في مسقط ميجور كوكس يبالغ في الحديث عنها على هواه. وفي سنة ١٩٠٣ أظهر حادث « شيوافا » واحدة من الخروقات الأشد سطوعا لحقوق فرنسا. فقد تم احتجاز خمسة مراكب شراعية تخص أشخاصا من صور، بينها ثلاثة مراكب، تقع تحت الحماية الفرنسية في العاشر من أبريل، وذلك في المياه الإقليمية لعمان، بينما كانت ترفع العلم العماني. واقتيد البحارة إلى القنصلية الإنكليزية حيث تم احتجازهم بناء على أمر من الميجور كوكس، وأصدر السلطان أحكاما بحقهم في النهاية في ١٥ أبريل، بينما كان من المفترض أن يتم تسليم الأشخاص المشمولين بالحماية الفرنسية للسلطات الفرنسية دون سواها، وأن تتولى العدالة المحلية أمر البحارة الصوريين الباقين. وأرسلت القنصلية الفرنسية طرادا إلى المياه العمانية لطلب توضيحات من عمان حول الحادث، ولكن السلطان رفض تقديم أي توضيح بإيحاء من الميجور كوكس قبل أن يعود كوكس، فيضطر إلى إطلاق سراح المحتجزين، بناء على أوامر من بريطانيا. ومع أن البحارة المحتجزين طلبوا التوجه إلى القنصلية الفرنسية فإن كوكس أجبرهم على الإبحار إلى صور.

وعلى أثر هذا الحادث قررت حكومتا باريس ولندن تسوية مسألة المحميين الفرنسيين في عمان بصورة نهائية. وفي ٢٥ مايو ١٩٠٣ تم التوقيع من قبل بريطانيا وفرنسا على اتفاقية، أهم بنودها أنه : « من أجل تجنب أي إشكال، فإن أي مسألة ترغب إحدى الحكومتين بإثارتها، وتتعلق بمدى وطبيعة الامتيازات والتعويضات، التي تحق لمالكي الوثائق الفرنسية والأعلام الفرنسية، ينبغي أن تحال فورا إلى التحكيم، وفقا لأحكام إتفاقية التسوية السلمية للنزاعات الدولية الموقعة في لاهاي في ٢٩ يوليو ١٨٩٩ ».

هـ ـ تحكيم لاهاي :

بعد التوصل إلى معاهدة ٢٥ مايو ١٩٠٣ توصلت الحكومتان الفرنسية والبريطانية إلى تسوية بتاريخ ١٣ أكتوبر ١٩٠٤، قرر بموجبه دعوة المحكمة للتحكيم في لاهاي للبت « بالمصاعب الناشئة، التي تتعلق بمدلول أحكام ١٠ مارس ١٨٦٢ »، والخاصة بمسألة المراكب والرعايا المتمتعين بالحماية الفرنسية. وفي ٢٥ يوليو ١٩٠٥ التأم شمل المحكمة في جلسة عامة، في فندق محكمة التحكيم الدائمة في لاهاي، وتم اعتماد اللغة الفرنسية للمناقشات والمحاضر الرسمية للحكم الصادر، مع إلحاق ترجمة إنكليزية مصدقة. .وفي ٨ أغسطس ١٩٠٥ أعلنت المحكمة عن قرار الحكم الصادر عنها.

الحكم الصادر :

إن محكمة التحكيم المشكلة بمقتضى التسوية المعقودة في لندن في ١٣ أكتوبر ١٩٠٤ بين فرنسا وبريطانيا العظمى ترى أنه :

بالنظر لأن الحكومة الفرنسية، وحكومة صاحبة الجلالة البريطانية رأتا من المناسب التعهد المتبادل باحترام استقلال عظمة سلطان مسقط عبر إعلان ١٠ مارس ١٨٦٢، وبالنظر، لأن صعوبات برزت بالنسبة لمدلول هذا الاعلان، فيما يخص منح الجمهورية الفرنسية لبعض رعايا عظمة سلطان مسقط أوراقا رسمية تخولهم رفع العلم الفرنسي، وفيما يخص طبيعة الامتيازات والتعويضات التي يطالب بها رعايا عظمة السلطان من مالكي أو ربابنة المراكب الشراعية، الذين يحملون أوراقا من ذلك النوع، أو الذين هم من عناصر أطقم المراكب وعائلاتهم، وخاصة فيما يتعلق بانتقاص حق السلطة القضائية لعظمة السلطان على رعاياه المذكورين، لجهة نمط الحصول على هذه الامتيازات والتعويضات.

وبالنظر لأن الحكومتين اتفقتا بمقتضى تسوية ١٣ أكتوبر ١٩٠٤

بينهما على البت في هذه المشكلات عن طريق التحكيم، بناء على المادة رقم ١ من الاتفاقية المعقودة بين الدولتين الكبريين في ١٤ أكتوبر ١٩٠٤.

وبالنظر لأنه تنفيذا للتسوية المذكورة عينت حكومة صاحبة الجلالة البريطانية السيد « ملفيل فوللر »، كبير القضاة في الولايات المتحدة الأمريكية قاضيا للتحكيم مقابل تعيين الحكومة الفرنسية للسيد « جونكهير دي سانورنين لوهمان »، دكتور في الحقوق، ووزير سابق للداخلية، في البلاد الواطئة (هولندا)، وعضو مجلس الشيوخ فيها، قاضيا للتحكيم من طرفها.

وبالنظر لأن قاضيي التحكيم المذكورين أعلاه لم يتفقا خلال شهر من تاريخ تعيينهما على اختيار قاضي تحكيم مرجح، (مما يترك الخيار لملك إيطاليا بمقتضى البند رقم ١ في التسوية)، فإن صاحب الجلالة (ملك إيطاليا) عين لمنصب الحكم المرجح السيد « هنري لماش »، دكتور في القانون، وأستاذ القانون الدولي، في جامعة فيينا وعضو مجلس الأسياد في البرلمان النمساوي.

وبالنظر، لأن المذكرات، والمذكرات المضادة، والخلاصات أحيلت حسب الأحوال إلى المحكمة والأطراف المعنيين، وبالنظر، لأن المحكمة درست بعناية هذه الوثائق والملاحظات الإضافية التي قدمت لها من الطرفين، فقد رأيت ما يلي :

بالنسبة للمسألة الأولى :

انطلاقا من أنه، وبشكل عام، يعود إلى السلطان أن يقرر لمن يمنح حق رفع علمه، ويحدد القواعد التي يخضع لها منح هذا الحق، وانطلاقا من أنه تبعا لذلك، فإن منح العلم الفرنسي لرعايا عظمة سلطان مسقط لا يشكل بحد ذاته أي خرق لاستقلال السلطان.

وانطلاقا من أنه مع ذلك يمكن الحد من صلاحيات السلطة في هذا المجال من خلال الاتفاقيات المبرمة، وانطلاقا من أن المحكمة، بموجب المادة ٤٨ من اتفاقية التسوية السلمية للنزاعات الدولية، الصادرة في ٢٩ يوليو ١٨٩٩، والمادة رقم ٥ من تسوية ١٤ أكتوبر ١٩٠٤ مخولة بتحديد اختصاصها عبر تفسير التسوية، والمعاهدات الأخرى، التي يمكن الركون إليها في هذا المجال، وعبر تطبيقها (المحكمة) لمبادئ القانون الدولي، مما يطرح المسألة بالتالي بصيغة تحديد الشروط، التي بموجبها أصبح للقوى الكبرى التي أقرت الحكم العام الصادر عن مؤتمر بروكسل في ٢ يوليو ١٨٩٠، الخاص بإلغاء تجارة العبيد الأفريقية في المادة ٣٢، من هذا الحكم بوجه التحديد، الحق في السماح لسفن محلية برفع أعلامها.

وانطلاقا من أنه بموجب المادة ٣٢ من هذا الحكم جرى تحديد التحويل الذي يحق للقوى الكبرى الموقعة بموجبه منح علمها لسفن محلية، بهدف إلغاء تجارة العبيد، وانسجاما مع المصالح العامة للبشرية، دون تمييز من أي نوع، فيما إذا كان طالب حق رفع العلم ينتمي إلى دولة موقعة أم لا، وانطلاقا من أن فرنسا ملزمة على أية حال تجاه بريطانيا بعدم منح علمها إلا ضمن الشروط الواردة في هذا الحكم.

وانطلاقا من أن القوى الكبرى الموقعة على الحكم الصادر في بروكسل اتفقت للوصول إلى الهدف المذكور أعلاه، ومن خلال المادة ٣٢ على أن التفويض برفع علم إحدى الدول الموقعة لا يتم منحه مستقبلا إلا للسفن المحلية، التي تجتمع لها الشروط الثلاثة التالية :

١ ــ أن يكون المالكون أو المجهزون من رعايا الدولة الكبرى التي يطلبون رفع علمها، أو من الأشخاص المشمولين بحماية هذه الدولة.

٢ ــ يتم إلزام هؤلاء الأشخاص بتقديم إثباتات على امتلاكهم لعقارات

ضمن نطاق السلطة، التي يوجهون الطلب إليها، أو بتقديم كفالة مالية كضمان عن الغرامات التي يمكن أن تحصل.

٣ ـ المالكون أو المجهزون المذكورون وقبطان السفينة عليهم أن يقدموا إفادات بأنهم يتمتعون بسمعة طيبة، وأن لا يكونوا قد أدينوا مطلقا بتجارة الرقيق.

وانطلاقا من أنه لا يوجد تعريف دقيق لكلمة « محمي » في الحكم العام الصادر عن مؤتمر بروكسل، فإنه ينبغي النظر إلى هذه الكلمة من الزاوية التي تنسجم بصورة أفضل، سواء مع النوايا السامية لهذا المؤتمر، وللحكم النهائي الذي صدر عنه، أو مع مبادئ القانون الدولي، كما عبرت عنها الاتفاقيات السارية المفعول في ذلك العهد في التشريع القومي، المعترف به دوليا، وفي العرف الذي يسير عليه الناس.

وانطلاقا من أن هدف المادة ٣٢ المذكور أعلاه هو عدم السماح بالملاحة في هذه البحار الموبوءة، بتجارة الرقيق، إلا للسفن المحلية الخاضعة لأشد رقابة ممكنة من جانب الدول الكبرى الموقعة، مما يتطلب لتحقيقه ضرورة أن يكون مالكو السفن المحلية، ومجهزوها، وأطقمها، خاضعين تماما لسيادة وقانون الدولة التي يمارسون الملاحة تحت علمها.

وانطلاقا من التحديدات التي تعرضت لها كلمة « محمي »، بمقتضى تشريع الباب العالي العثماني سنة ١٨٦٣، ثم سنة ١٨٦٥ و ١٨٦٩، وخاصة القانون العثماني الصادر في ٢٣ صفر ١٢٨٠ هـ (أغسطس ١٨٦٣ م)، الذي أقرته الدول الكبرى، التي تتمتع بحق الامتيازات ضمنيا، ومنذ الاتفاقية المعقودة بين فرنسا والمغرب سنة ١٨٦٣، التي أقرتها دول كبرى عديدة، وحظيت بإقرار اتفاقية مدريد لها في ٢٠ يوليو ١٨٨٠، فإن كلمة « محمي » لا تشمل، بالنسبة للدول صاحبة الامتيازات، (في الامبراطورية العثمانية)، إلا الفئات التالية :

١ـــالأفراد الذين هم رعايا بلد واقع تحت انتداب الدولة التي يعلنون أنهم في حمايتها.
٢ـــالأفراد الذين تنطبق عليهم أحكام الفئات المذكورة في اتفاقيتي ١٨٦٣ و ١٨٨٠ مع المغرب، المذكورة في القانون العثماني لسنة ١٨٦٣.
٣ـــالأفراد الذين تم الاعتراف بصفتهم أشخاصا مشمولين بحماية دولة أخرى بوساطة معاهدة خاصة، مثل الأفراد المشمولين بالبند رقم ٤ في الاتفاقية الفرنسية ـــ المسقطية لسنة ١٨٤٤.
٤ـــالأفراد الذين يستطيعون الإثبات أنه سبق لهم أن عوملوا أو عدوا « محميين » من جانب الدولة المعنية قبل السنة التي تمت خلالها تسوية أوضاع « المحميين » الجدد؛ أي قبل سنة ١٨٦٣، وهؤلاء الأفراد لا يخسرون الصفة التي سبق لهم أن اكتسبوها بصورة شرعية.

وانطلاقا من أن حق الدول الكبرى في بسط حمايتها على عدد غير محدود من الرعايا الأجانب قد تم التخلي عنه تجاه الدول الشرقية، على الرغم من أن الدول الكبرى لم تتنازل بصريح العبارة عن ممارسة هذا الحق في تركيا والمغرب، وباعتبار أن المقارنة ظلت تعد دائما كوسيلة لاستكمال الأحكام المكتوبة المهنية الخاصة بالامتيازات عندما تكون الظروف متقاربة.

وانطلاقا من أن تنازل تركيا كأمر واقع، وقبولها بتوريث الحق « المحمي » إلى ذريته، الأفراد الذين تمتعوا سنة ١٨٦٣ بحماية قوة مسيحية، لا يمكن أن يشكلا سابقة صالحة للتطبيق في مسقط، بالنظر لاختلاف الظروف بصورة كلية على أساس أن المحميين التابعين للدول المسيحية في تركيا هم من عرق وقومية وديانة مختلفة عن عرق وقومية وديانة أسيادهم العثمانيين، بينما سكان صور وغيرهم من أهل مسقط،

ممن يمكن أن يطلبوا رفع العلم الفرنسي، هم من كل النواحي في الظروف نفسها ظروف بقية رعايا سلطان مسقط.

وانطلاقا من أن أحكام المادة ٤ من المعاهدة الفرنسية ـــ المسقطية لسنة ١٨٤٤ تنطبق فقط على الأشخاص الذين هم فعلا في خدمة الفرنسيين، وليس على الأفراد الذين يطلبون صكوك ملكية السفن، بهدف ممارسة النشاط التجاري.

وانطلاقا من أن منح فرنسا، قبل المصادقة على اتفاقية بروكسل في ٢ يناير ١٨٩٢، أذونات برفع العلم الفرنسي فوق سفن محلية لا تستجيب للشروط الملحوظة في المادة ٣٢ من هذا الحكم، لا يشكل خرقا لأي التزام دولي من جانب فرنسا، وبناء على هذه الحجج تقرر المحكمة وتعلن ما يلي :

١ ـــ قبل الثاني من شهر يناير ١٨٩٢ كان يحق لفرنسا أن تأذن لسفن تنتمي لرعايا عظمة سلطان مسقط برفع العلم الفرنسي، دون أن تكون مقيدة في ذلك، إلا بقوانينها الخاصة وأحكامها الإدارية.

٢ ـــ يحتفظ مالكو المراكب، الذين كانوا مخولين قبل ١٨٩٢ من فرنسا برفع العلم الفرنسي بهذا التفويض، طالما أن فرنسا مستمرة في منحه لمن سبق أن حصل عليه.

٣ ـــ بعد الثاني من شهر يناير ١٨٩٢ لم يعد لفرنسا الحق في أن تسمح للسفن التابعة لرعايا عظمة سلطان مسقط برفع العلم الفرنسي، إلا بشرط أن يكون مالكوها أو مجهزوها قد سبق لهم أن أثبتوا أو أنهم يثبتون بأن فرنسا عدتهم وعاملتهم بصفتهم من ضمن الأفراد المشمولين بحمايتها قبل سنة ١٨٦٣.

وأما بالنسبة للمسألة الثانية فإن المحكمة ترى أنه :

انطلاقا من أن الوضع الشرعي للسفن التي ترفع أعلاما أجنبية، ولمالكي هذه السفن في المياه الإقليمية لاحدى الدول الشرقية تحدده المبادئ العامة للتشريع، وأنظمة الامتيازات أو غيرها من المعاهدات، وما ينجم عن ذلك من ممارسة.

وانطلاقا من أن المفردات المستخدمة في معاهدة الصداقة والتجارة بين فرنسا وسلطان مسقط في ١٧ نوفمبر ١٨٤٤ ذات طابع بالغ العمومية؛ ليكون شاملا للسفن وسواها من الممتلكات، وخاصة بالنسبة للعبارات الواردة في المادة ٣ من المعاهدة : « لا يحق لأي كان، وتحت أي مسوغ أن يدخل إلى البيوت، أو المحلات التجارية، أو غيرها من الممتلكات الخاصة، التي يملكها أو يشغلها فرنسيون، أو من هم في خدمة الفرنسيين، أو أن يزور هذه الممتلكات من دون موافقة المالك، إلا في حال تدخل قنصل فرنسا ».

وانطلاقا من أن الإقرار بحق فرنسا في بعض الظروف بمنح علمها لسفن محلية (غير فرنسية) وبتجنب هذه السفن زيارة سلطات السلطان، أو من يمثلها، مع ما أدى إليه ذلك من تسهيل تجارة الرقيق؛ لأن تجار العبيد أمكنهم إساءة استخدام العلم الفرنسي بسهولة ليتملصوا من إجراءات المراقبة مع الإشارة إلى أن سوء الاستخدام هذا يمكن إلغاؤه بصورة قاطعة من خلال قبول القوى الكبرى كافة بالمادة ٤٢ من الحكم الصادر في بروكسل، لا يمكن له؛ (أي للإقرار بحق فرنسا) أن يؤثر، بأي حال من الأحوال، في الحكم بشأن المسألة، التي نحن بصددها، والتي لا ينبغي لها أن تؤسس إلا على حيثيات قضائية.

وانطلاقا من أنه بمقتضى المواد من ٣١ إلى ٤١ من الحكم الصادر في بروكسل يتم حصر منح العلم للسفن المحلية بسفينة معينة، وبمالكها بالذات، مما يوجب منع أي عملية توريث أو تحويل ملكية لأي شخص آخر، أو لأية سفينة أخرى، حتى لو كانت تخص المالك نفسه.

وانطلاقا من أن المادة رقم ٤ في المعاهدة الفرنسية ـــ المسقطية تضمن لرعايا عظمة سلطان مسقط « الذين يخدمون الفرنسيين الحماية نفسها الممنوحة للفرنسيين أنفسهم، مع الأخذ بعين الاعتبار أن مالكي وقباطنة وبحارة المراكب المخولة برفع العلم الفرنسي لا ينتمون إلى الفئة المذكورة أعلاه من رعايا السلطان لا هم ولا أفراد عائلاتهم بالأحرى.

وانطلاقا من أن واقعة إخراج هؤلاء الأفراد عن نطاق السيادة الخاصة بعظمة سلطان مسقط وتشريعه إنما تشكل خرقا لإعلان ١٠ مارس ١٨٦٢، الذي تعهدت بموجبه بريطانيا وفرنسا بصورة متبادلة باحترام استقلال هذا الأخير.

وبناء على هذه الحجج فإن المحكمة تقرر وتصدر ما يلي :

١ـــ تتمتع مراكب مسقط التي حصلت، كما هو مبين أعلاه، على أذونات برفع العلم الفرنسي بحق الحصانة في المياه الإقليمية لمسقط وفقا للمعاهدة الفرنسية ـــ المسقطية الصادرة في ١٧ نوفمبر ١٨٤٤.

٢ـــ لا يمكن نقل أو تحويل الإذن برفع العلم الفرنسي لأي شخص آخر أو مركب آخر، حتى لو كان هذا المركب يخص المالك نفسه.

٣ـــ أن رعايا سلطان مسقط ممن هم مالكون أو قباطنة مراكب مخولون برفع العلم الفرنسي، أو ممن هم من أفراد أطقم هذه المراكب أو ممن هم من أفراد عائلاتهم، لا يتمتعون اعتمادا على هذه الصفة بأي حق في الحصانة الدولية يمكن أن تخرجهم عن نطاق سيادة عظمة سلطان مسقط وتشريعه بوجه خاص.

أبرم في لاهاي في فندق المحكمة الدائمة للتحكيم، بتاريخ ٨ أغسطس ١٩٠٥.

توقيع :

H. LAMMASCH

MELVILLE W. FULLER

A.F. DE SAVORNIN LOHMAN

وكما سنرى بصورة عامة، فإن حكم محكمة لاهاي يتبنى وجهة النظر البريطانية، ويعلن أن فرنسا هي في جانب الخطأ. فمن جهة كان لا يمكن في الواقع لرعايا السلطان عاد قلة منهم ممن يحملون مستندات تعود لسنة ١٨٦٣ وسنة ١٨٩٢ ــ أن يكتسبوا صفة الأفراد المشمولين بالحماية الفرنسية. ومن جهة أخرى، فإنه رغم تمتع المراكب النادرة من التي يمكن أن ترفع العلم الفرنسي بحق الحصانة فقد خسر مجهزو هذه المراكب وأطقمها الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في السابق.

وعلى الصعيد السياسي لم يكن حكم محكمة لاهاي أقل سوءا بالنسبة لفرنسا التي بعد أن خسرت حقوقها في حماية رعايا عمان « الذين هم في خدمتها » حسب المفهوم القديم للحماية، وجدت أن نفوذها يتقلص ويختفي تماما من عمان بينما تم على العكس من ذلك، كسر التوازن الذي حققه اتفاق ١٨٦٢، الخاص باستقلال السلطنة لصالح بريطانيا هذه المرة[٣٤٣].

(٣٤٣) مصادر هذا الموضوع :

(1) References a Ce Chapitre :

(I) « Mascat Shows Arbitration », Londres, 1905.

(II) Boutres Mascatais Francaises. Memoine presente par la Republique Francaise Imprimerie nationale, Paris, 1905.

(III) Kajare F. Ibid, pp. 234-235/

الخاتمة

لم يكن الخطأ الأكبر للبرتغاليين في المنطقة في الطابع « القاسي لحكمهم، بل في قلة اهتمامهم بحاجات هذه المنطقة، التي لم يفعلوا شيئا لتنشيط التجارة فيها. فعندما احتلوا هرمز سنة ١٥٠٧ كانت منطقة الخليج من أغنى مناطق أمبراطورية الهند التابعة للبرتغال. وقد تبدل الوضع بصورة جذرية ابتداء من سنة ١٥٨٥؛ أي في المرحلة التي شهدت تقلصا حادا في عائداتها، قبل أن يصبح الوضع مأساويا في بدايته، فبالإضافة إلى الحروب الخاطفة، التي كان البرتغاليون يمارسونها في منطقة الخليج، وبالإضافة لإهمالهم لاقتصادها، فإنهم لم يحاولوا إنعاش نمط معيشة سكان هذه المنطقة. ولم ينجحوا أيضا في تأمين الإشراف العام على تجارة الهند، بل اقتصر دورهم على ممارسة دور « السيد الممثل »، تاركين إدارة شؤون المنطقة بين يدي أبنائها، فلم يتدخلوا في التقاليد المحلية، ولا في شؤون أنظمة الحكم القائمة، طالما أن التقاليد وأنظمة الحكم لم تكن تتعارض مع مصالح البرتغاليين البحرية أو التجارية، وعلى محدودية الهيمنة البرتغالية، فقد اصطدمت بمتاعب ضخمة في بداية القرن السابع عشر، وخاصة بعد أن نال الضعف من المواقع البرتغالية عند الساحل الشرقي للخليج. وكان من الصعب جدا فوق ذلك، على بلد محدود الموارد والإمكانيات، مثل البرتغال، أن يفرض إرادته على منطقة باتساع المحيط الهندي.

وفي بداية القرن السابع عشر كانت السفن البريطانية والهولندية تمخر عباب هذا المحيط، مما أدى إلى تنافس بين القوى الثلاث الكبرى، من أجل السيطرة على منطقة الخليج. وبين سنوات ١٦٢٢ و ١٦٥٠ جرى طرد البرتغاليين بصورة نهائية من المنطقة، على يد تحالف من العرب والفرس والإنكليز معا. ولكن في هذه الفترة لم تكن الهيمنة الأوروبية على الخليج قد ترسخت بعد، ولم تكن النشاطات البحرية لعرب الخليج قد توقفت طيلة مدة الاحتلال البرتغالي، ولم تلبث هذه النشاطات أن تطورت ما أن طرد البرتغاليين من هرمز.

ومنذ سنة ١٦٢٤ كان العمانيون من أوائل من حاربوا البرتغاليين وبعد طرد هؤلاء من مسقط سنة ١٦٥٠ قام العمانيون بمطاردتهم حتى الشواطئ الشرقية لأفريقيا حيث أنشأ أهل عُمان بضعة مستعمرات، أصبحت تشكل لاحقا الجزء الأفريقي من أمبراطورية عمان. وفي الستينات من القرن السادس عشر بدأ الإنكليز والهولنديون والفرنسيون بإقامة مكاتب تجارية لهم في كل مكان تقريبا من مواقع الخليج، وكان الهدف الأساسي لنشاطاتهم ذا طابع تجاري أكثر منه سياسيا.

وبعد أن عرفت عمان أيام المجد على إثر رحيل البرتغاليين، عادت فعاشت عقب ذلك أيام بؤس وشقاء وخضوع. فاستقلالها اضطرب بفعل التدخلات الخارجية، بل الاحتلال المباشر أحيانا. وهكذا، فإن نادر شاه أمبراطور بلاد فارس المعروف بأطماعه، استفاد من النزاعات الداخلية في عُمان؛ ليحقق مشروعه لاحتلال المنطقة. وعرف كيف يستفيد من الخلافات التي كانت تمزق عُمان في تلك المرحلة؛ ليقوم بضم عُمان بصورة مؤقتة.

وعلى الرغم من أن عُمان استطاعت أن تستعيد استقلالها بعد موت نادر شاه إلا أن وجود الأسطول الفارسي عند الشواطئ الشرقية للخليج يشكل تهديدا مباشرا على السيادة العمانية. وقد عرف كريم خان (١٧٥٠

ـ ١٧٧٣) خليفة نادر شاه كيف يستغل رغبة العرب من سكان الشواطئ الشرقية في الخليج في التحرر من وصاية عُمان؛ ليؤلبهم باستمرار ضد هذا البلد. واستعمل الطريقة نفسها أيضا مع قباطنة السفن الخاضعة للرقابة العمانية.

وعند منتصف القرن الثامن عشر قفزت مسقط، بعد طرد الفرس، إلى الواجهة السياسية للخليج؛ فقد تركزت فيها كل أهمية عُمان، وأراد العمانيون بذلك إعطاء مسقط القوة نفسها، الاقتصادية والتجارية، التي كانت تتمتع بها هرمز في تلك الآونة، وفي نهاية القرن الثامن عشر باتت عُمان عرضة لخطر جديد؛ فلم يعد الفرس هم الذين يهددون سيادة أمبراطورية عُمان بل جاء التهديد من عدة جماعات عربية منتشرة على طول الخليج من الكويت إلى الحدود العمانية، وهي تقوم بدور واضح في التجارة البحرية وكان يمكن للتطورات التي حصلت داخل شبه الجزيرة العربية، والتي تجسدت في قيام إمارات الخليج العربي أن تصبح عاملا إيجابيا لتطور عُمان، لو لم تجعل الحركة الدينية الوهابية الأمور أكثر تعقيدا. فحوالي سنة ١٨٠٠ تبنى غالبية سكان القسم الشرقي من شبه الجزيرة العربية العقيدة الدينية الوهابية، مما زاد من حدة الخلافات بين عُمان وبقية الجماعات في الخليج. وفوق ذلك قام الوهابيون بتشجيع خصوم عُمان على التمرد ضد حكومتها، ونجم عن ذلك حرب هددت استقلال عُمان بصورة جدية. ولكن في تلك الفترة كان التدخل الأوروبي والنزاعات بين فرنسا وبريطانيا يترك أثره حول الخليج بكامله، فركزت بريطانيا أقدامها في عُمان؛ لحماية الخليج من مخاطر السياسة الفرنسية.

ومن سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨١٠ تنازعت فرنسا وبريطانيا على بعض البلدان الواقعة في غربي آسيا، فاحتاجت كل واحدة منهما إلى دعم عُمان بسبب أهميتها الاستراتيجية في المحيط الهندي. ونجحت بريطانيا في عقد معاهدة تجارية مع حاكم عمان سنة ١٧٩٨ مما أتاح

لها، بين عوامل أخرى، الفرصة لدفع الفرنسيين سنة ١٨٠٠ ومنذ ذلك الحين، أصبحت عمان تشكل بالنسبة لبريطانيا موقعا دفاعيا على طريق الهند، ولتضمن السيطرة عليه كانت السفن الإنكليزية التي تراقب الطرق التجارية ـــ البحرية عبر المحيط الهندي، تتدخل لصالح عمان في النزاعات التي كانت تنشب بين هذا البلد وبين جيرانه. وبين ١٨٢٠ و ١٨٦٢ اتخذ الوجود البريطاني في الخليج طابعا آخر، فحتى سنة ١٨٢٠ كانت النشاطات الإنكليزية تكاد تنحصر في ملاحقة القراصنة، وتجار الرقيق، وكان الإنكليز يتدخلون أيضا لتهدئة المنازعات بين مختلف الجماعات وحسمها لصالح هذه الجماعة أو تلك، حسب المصالح البريطانية. لقد كان دورهم في منطقة الخليج دور الجنود المحايدين، أو السلبيين، بالدرجة الأولى.

وابتداء من سنة ١٨٢٠ بدأ وجود الإنكليز يغير الأوضاع السياسية في الخليج، دون أن يطال الأوضاع الاقتصادية. كانت هولندا التي حلت محل البرتغاليين في هذه المنطقة قد مهدت الطريق أمام الإنكليز؛ فالحروب بين البرتغال وهولندا كانت قد أضعفت مواقع هولندا بصورة خطيرة، مما أتاح الفرصة للإنكليز ليقيموا أمبراطوريتهم في آسيا، « الأمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس أبدا ». وبفضل دبلوماسيتها نجحت بريطانيا في ضمان وجودها في الخليج أكثر من أي دولة أخرى، فقد سمحت لها استراتيجيتها المتمثلة بالمحافظة على الاتصال مع أمراء الخليج أن تتفاهم أحيانا مع عدة أمراء متنافسين، أو حتى خصوم فيما بينهم. وطبقت بريطانيا في علاقاتها مع حكام المنطقة سياسة « فرق تسد »، فأوجدت لها أصدقاء من لا شيء، مع السعي للإثبات للعالم بأسره أن علاقاتها مع هؤلاء الأصدقاء الدول مستوحاة قبل كل شيء من اعتبارات إنسانية، فقامت بتقطيع أوصال المنطقة إلى سلسلة من الإمارات، والكيانات الصغيرة.

ومن خلال مكافحة القراصنة، وتجار الرقيق، ضمنت بريطانيا لنفسها مواقع قوية في الخليج العربي. وبموازاة ذلك أوجدت « دولا عازلة » وهذه السياسة خلقت أوضاعا تتيح لهذه الدولة أو تلك أن تسيطر على دولة أخرى، أو أن تحتل المركز الأول على المسرح السياسي للخليج. إننا لا نفكر بدراسة مشكلة القرصنة وتجارة العبيد ودورهما في هذه الصفحات القليلة، ولكن يجب أن نشير إلى أن القرصنة كانت في تلك الآونة، وفي جانب كبير منها، تعبيرا عن انتفاضات فردية ضمن الاحتلال الأجنبي، ولكن إذا كانت القرصنة تعبر عن وعي سياسي ما، فإن تجارة الرقيق كانت بالمقابل ظاهرة اجتماعية ـــ اقتصادية، لأنها كانت تلعب دورا عظيما في اقتصاد عمان. ودون أن نقر بهاتين الظاهرتين ينبغي وضعهما ضمن إطارهما التاريخي؛ ليمكن فهمهما بصورة أفضل رغم إدانتنا لهما. إن الأمر المهم هنا أن نعلم بأن بريطانيا العظمى بدبلوماسيتها المعروفة جيدا، عرفت كيف تجذب الأمراء إلى سياستها بفضل مختلف أنواع المعاهدات مع إبعاد القوى الأوروبية الأخرى عن المنطقة بوساطة المعاهدات الدولية، دون أن ننسى دور القوة العسكرية، فقد شكلت بريطانيا قوات هندية برية وبحرية جاهزة للتدخل للدفاع عن المواقع الإنكليزية في حال حصول إخفاق دبلوماسي، وبفضل معاهدة ١٩٠٧ أمكن وقف التوسع الروسي نحو بلاد فارس، التي تم تقسيمها بموجب المعاهدة المذكورة إلى ثلاثة مناطق نفوذ : الشمال تحت النفوذ الروسي، والوسط بقي محايدا بينما خضع الجنوب المحاذي للخليج للنفوذ الإنكليزي. وللحفاظ على وجودها في الخليج عرفت بريطانيا كيف تستخدم أكثر من طريقة، فوجدت لكل مشكلة حلا يناسبها، واستعملت في وجه كل قوة كبرى الأسلوب الأفضل. وهكذا فقد عارضت مشروع السكة الحديدية الألمانية إلى بغداد لقطع الطريق على ألمانيا، عندما حاولت الحصول على موطئ قدم لها في المنطقة. كانت بريطانيا ترى أن هذا الخط الحديدي يجب أن يتوقف عند بغداد،

بينما كانت ألمانيا تريد له أن يصل حتى الكويت من الطرف الشمالي ــ الغربي للخليج. وهذا المشروع الذي تبخر عند اندلاع الحرب العالمية الأولى يدل إلى أي حد وصل حرص بريطانيا على أن لا ينافسها منافس في مناطق نفوذها في الخليج. وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى احتل الجيش الإنكليزي البصرة متجها نحو بغداد.

وفي تنافسها مع فرنسا على عمان كانت بريطانيا تعاني من متاعب كبيرة جدا. كان الوجود العسكري والمدني الفرنسي يطالب منطقة المحيط الهندي وجنوب آسيا وبعض الجزر الصغيرة في شرق أفريقيا، ولابعاد فرنسا عن منطقة الخليج، لجأت بريطانيا إلى سياسة مزدوجة : قدمت نفسها لشيوخ المنطقة بوصفها القوة العسكرية الوحيدة المستعدة للدفاع عنهم باقتدار، وسعت من جهة أخرى إلى دفع الأمراء لموالاة سياستها من خلال مختلف المعاهدات، سواء كانت معاهدات صداقة، أو دفاع مشترك، أو معاهدات تجارية، وإلى معارضة أي وجود لأية قوة عسكرية منافسة. ومن جهة ثانية فقد تجنبت بريطانيا الصدام مع القوة العسكرية الفرنسية من خلال عقد المعاهدات الدولية فإعلان ١٠ مارس ١٨٦٢ كان نجاحا كبيرا للدبلوماسية الإنكليزية، وكذلك منع تجارة الرقيق بوساطة معاهدة بروكسل سنة ١٨٩٢، إضافة إلى حسم مشكلة الأعلام الفرنسية والمراكب التابعة لمسقط بوساطة حكم محكمة لاهاي الدائمة للتحكيم سنة ١٩٠٥.

وبينما كان إعلان مارس ١٨٦٢ يعترف بسيادة واستقلال سلطنتي مسقط وزنجبار، نجحت بريطانيا من خلال تحكيم كاننغ سنة ١٨٦٢ في أن تنتزع لنفسها الحق بالتدخل في الشؤون الداخلية لمسقط وزنجبار، كما لو كانت هذه الشؤون تخصها مباشرة. إنه نجاح للدبلوماسية الإنكليزية دون شك، ولكنه نجاح ناجم خاصة عن الوجود العسكري الإنكليزي في المنطقة. لم تقم السياسة الإنكليزية على أساس تأمين

حلفاء أقوياء لها، بل على أساس خنق كل قوة عسكرية ناشئة، سواء كانت أوروبية أم عربية أو سوى ذلك، بينما بحثت فرنسا عن حلفاء لها بين القوى الكبرى الأخرى، التي لها مصالح في المنطقة؛ لأن الفرنسيين لم يكونوا يملكون قوة ردع لها قيمتها في الخليج. ولما كانت حاجات بريطانيا من اليد العاملة تجد ما يسدها من خلال الوافدين من مستعمراتها في الهند، فقد وقفت لندن موقف الرافض الصريح لتجارة الرقيق، كان يمكنها أن تتخذ هذا الموقف دون أن تتضرر مصالحها الخاصة، واستفادت منه على الصعيد الدبلوماسي؛ لتبين للعالم أن سياستها تجاه مستعمراتها، وفي الخليج العربي، هي سياسة إنسانية سامية. نحن لا نريد أن نقول هنا إن العامل الانساني كان غائبا عن السياسة الإنكليزية، ولكنه لم يكن على الأرجح العامل الأساسي المأخوذ بالاعتبار، وقد جرى استغلاله لأغراض سياسية.

وكان موقف الفرنسيين في هذا المجال مختلفا عن موقف الإنكليز؛ لأن فرنسا كانت بحاجة إلى اليد العاملة المجندة في مستعمراتها في المحيط الهندي. إذ من المؤكد أن فرنسا لم تشجع تجارة الرقيق الأسود، ولكن من شبه المؤكد أنها لم تفعل شيئا لمنع هذه التجارة، وهذا ما يفسر تأخر فرنسا في التوقيع على « بروتوكول بروكسل »، الذي استهدف منع تجارة العبيد (١٨٩٢). وقد عدت بريطانيا السلوك الفرنسي يشكل تخريبا للجهود المبذولة من أجل القضاء على هذا النوع من التجارة.

لقد لجأت فرنسا إلى أكثر من وسيلة تدخل؛ لترسخ أقدامها في البحار الشرقية، بعثات علمية إلى الخليج، مساعدات مادية وعسكرية إلى كيانات المنطقة، توسيع نفوذها في مصر، مصادمات مع بريطانيا، (بندر عباس، أزمة مسقط، و « فاشودا »)، واحتلال عدد من الجزر في المحيط الهندي، وشرقي أفريقيا ... وكلها مؤشرات على مدى

الأهمية التي علقتها فرنسا على وجودها في هذه المنطقة، حيث بحثت عن الدعم لدى الكيانات الاقليمية والدول الأوروبية، فتحالفت مع روسيا، وقدمت العون لبلاد فارس، وعقدت معاهدات مع سلطان عمان.

لقد شهدت العلاقات الفرنسية ــ العمانية ثلاثة مراحل : الأولى تمتد من سنة ١٧٩٨ حتى احتلال جزيرة فرنسا على يد الإنكليز سنة ١٨٠١، والثانية تمتد من خسارة جزيرة فرنسا حتى تاريخ التوقيع على معاهدة ١٨٤٤، أما الثالثة، فتمتد من معاهدة ١٨٤٤ حتى الاعلان الودي سنة ١٩٠٤. وفي ما يلي نعرض باختصار للأحداث الأساسية التي وقعت في هذه المراحل.

المرحلة الأولى :

حركت الثورة الفرنسية الطموحات القومية والتجارية للبرجوازية الفرنسية، التي حاولت تحقيق مكانة مرموقة لها في الأسواق العالمية. وهذه البرجوازية جعلت من فرنسا بلدا استعماريا، مما استوجب نزاعا مع بريطانيا العظمى؛ لأن هذه الدولة كانت تسيطر على جنوب آسيا والبحار الشرقية.

وفي سنة ١٧٩٨ فكر الفرنسيون بتحدي بريطانيا، انطلاقا من الهند، وقادت عبقرية بونابرت العسكرية إلى تحدي الإنكليز في البحر المتوسط؛ ليجعل من هذا البحر قاعدة لعملياته في الشرق، وجاءت حملة مصر (١٧٩٨ ــ ١٨٠٤) لتبرز هذا الجانب من التنافس الفرنسي ــ البريطاني. فما أن وصل بونابرت إلى مصر حتى بعث برسالة إلى سلطان عمان، يلفت فيها نظره إلى وصوله إلى مصر، طالبا صداقته، والتحالف معه، وبعث برسالة من النوع نفسه إلى « تيبو صاحب »، الذي كان قد تمرد على الإنكليز. وبانكفاء حملة نابليون عن مصر وخسارة « جزيرة فرنسا » انتهت مرحلة بكاملها من الاستراتيجية الفرنسية في الشرق.

المرحلة الثانية :

بعد أن استعادت فرنسا جزيرة « لارينيون » بموجب المعاهدة المعقودة في باريس، بتاريخ ٣٠ مايو ١٨١٤، شهد التوسع الفرنسي المنبعث هذه المرة من الجزيرة المذكورة أعلاه انطلاقة جديدة في شرق أفريقيا. واحتل الفرنسيون عددا من الجزر في الجزء الأفريقي من امبراطورية عُمان، (وبينها جزيرة « نسوبي » سنة ١٨٤١)، وشيئا فشيئا راحت فرنسا توطد وجودها في البحار الشرقية، مما سهل إبرام معاهدة ١٨٤٤ مع سلطان عُمان،فكانت هذه المعاهدة ذروة نجاح الدبلوماسية الفرنسية في المنطقة. وجاء إعلان ١٠ مارس ١٨٦٢ لاحقا ليعزز حقوق فرنسا، بأن وضعها على قدم المساواة مع بريطانيا ضمن إطار أمبراطورية عمان. هنا دخلت المنافسة الفرنسية ـــ الإنكليزية في مرحلة جديدة تميزت بتمتع الدولتين الأوروبيتين بالحقوق الدولية نفسها تجاه عمان.

المرحلة الثالثة :

تأسيسا على المساواة في الحقوق بين فرنسا وبريطانيا ـــ التي أقرها إعلان ١٨٦٢ ـــ وعلى المبادئ السابقة لمعاهدة ١٨٤٤ بدأ الفرنسيون بفرض وجودهم في مسقط وزنجبار، وتم فتح قنصلية لفرنسا في زنجبار سنة ١٨٤٩، ثم في مسقط سنة ١٨٩٤.

وكان « أوتافي » ألمع رجال السياسة الفرنسيين في هذه المرحلة؛ إذ من خلال منصبه كنائب لقنصل فرنسا في مسقط نجح في إبعاد الإنكليز عن السلطان فيصل. وعند نهاية القرن التاسع عشر وبفضل نشاطات أوتافي عرف الوجود الفرنسي في الخليج حقبة زاهية (ولكنها قصيرة) من النجاح. فسرعان ما أفضت هذه الحقبة إلى الاخفاق وظهر أن الوجود الفرنسي جاء متأخرا جدا؛ لأن بريطانيا كانت قد وطدت مواقعها في الخليج، وخاصة في عمان. وفي بداية القرن العشرين كان الإنكليز قد بسطوا سيطرتهم على الخليج بأكمله.

ومن خلال سلسلة من المعاهدات والبروتوكولات المعقودة مع الكيانات الخليجية، وبفضل حل المسألة الفرنسية، أصبحت يدا بريطانيا طليقتين؛ لتخرج رابحة من تنافسها مع فرنسا، التي لجأت إلى العديد من الوسائل؛ لفرض وجودها في الخليج. وكان بمقدور أوتافي أن ينجح، على الأرجح لو أنه لم يكن قد جاء متأخرا، مما جعل كل جهوده تذهب عبثا. لقد انتهت المواجهة بتفوق بريطانيا، وتم إغلاق القنصلية الفرنسية في مسقط سنة ١٩٢٠.

لقد بينت أزمة مسقط في بداية القرن العشرين أن بريطانيا مستعدة لعمل أي شيء للحفاظ على هيمنتها في الخليج. ولم يكن من المستبعد أن تقدم على تدخل عسكري، كما يظهر من خلال أقوال اللورد كورزون لسلطان مسقط : « إن مستودع الفحم الممنوح اليوم لفرنسا سيتحول غدا إلى قاعدة عسكرية ».

لقد وصل الأمر باللورد كورزون إلى حد خرق الاستقلال النظري (الشكلي) لعمان، بل إنه خرق معاهدة ١٨٦٢، وكل الاتفاقات الدولية المتعلقة بالمنطقة، عندما أجبر السلطان على التخلي عن الوعد الذي سبق له أن قطعه على نفسه تجاه الفرنسيين، بأن يسمح لهم بإقامة مستودع للفحم. وأعطى كورزون كذلك الأمر برفع العلم الإنكليزي ما أن تظهر السفن الفرنسية.

إن إعلان ١٨٦٢ المشترك يفرض واجبات متساوية على فرنسا وبريطانيا في علاقاتهما مع مسقط وزنجبار في الوقت نفسه الذي يؤكد فيه على استقلال هاتين السلطنتين، كما أن معاهدة ١٨٤٤، وخاصة في مادتها رقم ١٧، تخول هي الأخرى فرنسا حرية إنشاء المستودعات أو مساواتها ببريطانيا في هذا المجال على الأقل. وبموجب المعاهدات نفسها لم يكن لبريطانيا أي حق في إبرام اتفاقية ٢٠ مارس ١٨٩١، التي تنص على أن: « سلطان مسقط ليس مخولا ببيع جزء من أراضيه

أو التنازل عنه لأي دولة عدا بريطانيا ». إن هذه المعاهدات تحرم أيضا بريطانيا من حق التنصل بالقوة عن الالتزامات التي قطعتها على نفسها تجاه بقية القوى الكبرى.

واستخدمت بريطانيا القانون الدولي على هواها للوصول إلى أهدافها الخاصة، عندما كانت القوانين في صالحها، ولكنها كانت تخرق هذه القوانين عندما كانت مصلحتها تقتضي ذلك. ولقد بينت أزمة مسقط بصورة ملموسة جدا، كيف كانت بريطانيا تفسر الأحداث حسب مصالحها الخاصة. وأخيرا، فإن « مسألة الأعلام » التي توجت آخر نجاحات الدبلوماسية البريطانية أدت إلى وضع حد للوجود الفرنسي في الخليج بإقرار الهيمنة البريطاني في هذه المنطقة بصورة حاسمة، واحتفظت بريطانيا العظمى بهذه الهيمنة حتى سنة ١٩٦٩ ميلادية.

المصادر والمراجع

وثائق فرنسية

وثائق وزارة الخارجية **(A.M.A.E.):**

Mémoires et documents, Vol. 19 – (1787-1791).
Correspondance condulaire [Mascate – Vol. 1 – (1787-1810)].
Correspondance consulaire et commerciale (Mascate) 1790-1894.
Correspondance politique Zanzibar – Vol. 1 – (1844-1894).
Correspondance politique – Mascate n° 5 (1896-1904).
Correspondance commerciale – Mascate (1984) Tome 2.
Mascate – *Golfe persique et les puissances (dossier général)* – Tome (II-III-IV-V) – 1895-1890.

وثائق المستعمرات (A.C.) **(A.C.):**

Ile de France – tomes cités.
Océan Indien (O.I.).
Annuaire diplomatique et consulaire de France – 1899 Paris annuel.
Documents diplomatiques français 1re série XI-XII (1874-1914) – Paris 1929-1954.
Affaire Boutres Mascatais – Français – Paris 1905.
Recueil des traités de la France – Tome 5 (1843-1849) – Paris 1880.

(Admin. Rpt Year)

Government of India, Foreign Department, Report on the Administration of the Persian Gulf Political Residency and the Maskat Political Agency (Calcutta, annual, 1873-1904).

[India (17]

India Office Library, European Manuscripts, «Hamilton Collection, Private Correspondance India, Lord George Hamilton to Lord Curzon, no. C 126».

[India(2)]

India Office Library, European Manuscripts, «Hamilton Collection, Private Correspondance India, Lord Curzon to Lord Hamilton, no. D 510».

[India (3)]

India Office Library, European Manuscripts, «Elgin Collardon, Papers of the Ninth Earl of Elgin and Kincardine, Letters from and to the Secretary of State for India».

[India Records (1)]

India Office Library, Records, «Political and Secret Department Records, Secret Letters Received, Various».

[India Records (2)]

India Office Library, Records, «Political and Secret Department Records, Letters from the Persian Gulf».

[India Records (3)]

India Office Library, Records, «Political and Secret Department Records, Secrets Letters from India».

(Précis Maskat)

Government of India, Political and Secret Department, J.A. Saldanha, ed;. Précis of Maskat Affairs, 1892-1902 (Simla, 1906).

FOREIGN OF INDIA OFFICE, MASCATE DHOWS ARBITRATION
LONDON 1905

(FRANÇAIS) الكتب والدوريات الفرنسية

LAPRADELLE A., POSITIS N., «Affaire du partage des États de Sayed-Saîd».
Recueil des arbitrages internationaux, tome V (1856-1872).
Arrangement entre les pays, installation de dépôts de charbon dans la baie de GISSEH, Chronique des faits internationaux, France et Grande-Bretagne, Incident de Mascate.
Revue générale de droit international public, vol. VI, 1899, Paris.
L'ASIE FRANÇAISE, *«Bulletin Mensuel du Comité de l'Asie française»,* année 1902.
* Le chemin de fer de Bagdad, pp. 69-70.
* La France du Levant devant la Chambre, p. 72.
* La question du Golfe persique au Parlement anglais, p. 92.
* Les Français en Perse, p. 141.
* Notre politique extérieure (La France), p. 147.
* Sur le littoral du Koweit et dans la région de Nedgd, p. 187.
* Le commerce de Mascate et les intérêts français dans l'Oman, la protection de Boutres arabes, p. 284.
* Affaire de Koweit, p. 284.
* 'abandon des boutres protégés français, p. 436.
L'ASIE FRANÇAISE, année, 1911.
* JOUNNIN André, «Des influences étrangères dans le Golfe persique», pp. 23-27.
* L'action anglaise autour d'Aden, pp. 111-112.
* PAYEN Édouard, «Nos établissements de L'Inde», pp. 148-151.
* La situation dans l'Oman, la division française dans l'Oman,
* Le mouvement wahabite, pp. 354-355.
* La navigation dans les ports ottomans d'Arabie, p. 404.
* Un incident anglais, p. 541.
* Le conflit du libéralisme classique et l'impérailisme britannique, pp. 570-578.
JOUNNIN André, «Sur les rives du Golfe persique», *Bulletin de la Société de Géographie commerciale,* tome XXVI, pp. 62-75, 1904.

* IMBART DE LA TOUR Jean, «Rivalités internationales en Perse et dans le Golfe persique», *Revue de Géographie*, Vingt-sixième année, tome L I, juillet-décembre 1902, pp. 492-501.

* MARRAS Étienne, «L'île de Zanzibar», *Bulletin de la Société de Géographie de Marseille»*, Nos 4, 5 et 6 avril, mai, juin 1881.

RABOUT Alfred, «La côte orientale d'Afrique équatoriale», *Bulletin de la Société de Géographie de Marseille, nos 1, 2 et 3 janvier, février et mars 1881, Marseille, pp. 194-200.*

* *AUZOUX A., «La France et Mascate aux dix-huitième et dix-neuvième siècles».*

Revue d'histoire diplomatique, vol. XXIII-XXIV, Paris, 1909, pp. 234-265.

Le Journal Officiel, débats de la chambre des députés, Paris Annuel 1892-1914, p. 433.

AUBIN J,. «Les Princes d'Ormuz du XIIIe au XVe siècle», *Journal asiatique,* vol, CDXII, Paris, 1953.

CHAPPUIS F., «Visite à l'Islam de Mascate à Zanzibar». (*Extrait de Mémoire de la Société de Géographie de Genève,* 1860).

SAUVAGET, J., «Sur d'Anciennes Instructions nautiques arabes». *Journal asiatique,* vol. CXXXVI, Paris, 1948.

VADALA R., «Mascate», *L'Asie Française, vol. XXIII, Paris, 1923.*

الدوريات الانجليزية

BECKINGHAM C.F., «The Reign of Ahmad ibn-Sa'id, Imam of Oman». Journal of the Royal Central Asian Society, vol. XXVIII, London 1941. Voir LANDEN, pp. 442-443.

BENT J.T., «Muscat», *The Contemporary Review, vol. LXVIII, London 1895.*

ECCLEC G.J., «The Sultanate of Muscat and Oman, with a Description of a Journey into the Interior Undertaken in 1925».

Journal of the (Royal) Central Asian Society, vol. XIV, London 1927, pp. 19-42.

LOCKHART Nadir, «Shah Campaign in Oman», 1737-1744, London 1935, p. 68.

HARRISON P.W. and W. STORM., «The Arabs of Oman», Moslem World, vol. XXIV, New York 1934, London p. 450.

MILES S.B., «Journal of an Excursion in Oman, in South-East Arabia». *The Geographical Journal,* vol, VII, London 1896.
MILES S.B., «On the Border of the Great Desert: a Journey in Oman». *The Geographical Journal,* Vol. XXXVI, London, August, October, 1910.
MILES S.B., «On the Route between Sohar and el-Bereymi in oman, with note on the Zatt, or Gypsies in Arabia». *Journal of the Asiatic Society,* vol, XLVI, London 1877.
ROSS E.C., «Memorandum on the Tribal Divisions in the Principality of Oman», *Transactions of the Bombay Geographical Society,* vol, XIX, Bombay, 1873, pp. 188-189.
ROSS E.C., «Outlines of the History of Oman from A.D. 1728 to 1883», Report on the Administration of the Persian Gulf Political Residency, 1882-1883, Calcutta 1883.
ROSS E.C., trans. Annals of Oman from early times to the year 1728, by Sirhan-bin ᶜSaid-bin Sirhan of the Benu ᶜAli Tribe of Oman». Calcutta and Bombay 1874.
PART I, No. 2 A Translation of an important anonymous chronicle, Kashf al-Ghummah, whose author is erroneously identified. Asiatic Society of Bengal, *Journal vol. 43 (2),* Bombay 1874, pp. 111-196.
PELLY L., «The Persian Gulf as an area of Trade». *Proceedings of the Royal Geographical Society,* vol. VIII, London 1863-1864.
PELLY L., «Remarks on the Tribes, Trade, and Ressources around the Shore Line of the Persian Gulf». *Transactions of the Bombay Geographical Society,* vol. XVII, Bombay, 1863.
PELLY L., «A Visit to the Wahabee Capital, Central Arabia». *Journal of the Royal Geographical Society,* vol. XXXV, London 1865.

المراجع العربية

أ ـ المخطوطات

ـ ابن رزيق، حُميد بن محمد: الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين.

ـ شيخ سرحان بن سعيد العبري: كشف الغمة.

ب ـ المراجع

ـ عبدواني صادق حسن: علاقات الدولة السعودية الأولى مع دول شرق الجزيرة العربية ـ القاهرة ١٩٧٢.

ـ أبو حاكمة، احمند مصطفى: تاريخ الكويت. جزئين. الكويت ١٩٧٠.

ـ العقاد، صلاح: معالم التغيير في دول الخليج العربي، القاهر، ١٩٧٥.

ـ العقاد، وقاسم: زنجبار ـ القاهرة ١٩٥٩.

ـ الحارثي، سالم: العقود الفضية في اصول الإباضية: لبنان ـ ١٩٧٤.

ـ قلعجي، قدري: الخليج العربي، بيروت ١٩٦٥.

ـ • قاسم، جمال زكريا: دولة البوسعيد في عمان وشرق افريقيا (١٧٤١ ـ ١٨٦١)، القاهرة، ١٩٦٧.

- • دراسة لتاريخ الامارات العربية (١٨٤٠ ــ ١٩١٤) القاهـرة، ١٩٦٦.
- ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت ١٩٦٨.
- • السالمي، نور الدين عبدالله بن حُميد: العِقد الثمين جزئين ــ القاهرة ١٣٩٣ هـ.
  • تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، القاهرة، ١٩٦١.
- السالمي أبي بشير محمد بن نور الدين عبدالله بن حُميد:
  • نهضة الأعيان بحرية عمان، القاهرة ١٩٦١.
  • عُمان تاريخ يتكلم، دمشق ١٩٦٣.
- السيابي شامس سالم: العنوان في تاريخ عمان، ١٣٨٥ هـ.
- عثمان بن بشير: عنوان المجد في تاريخ نجد، جزئين، مطبعة السلفية، بغداد، ١٩٣٠.

المراجع الفرنسية

AL-AKAD, SALAH, *La rivalité franco-britannique dans le Golfe persique et les dépendances de l'Oman, 1798-1862,* Thèse, Université de Paris «Lettres», Paris, 1962.

AZIZOLLAH MALIK, ESAMILI, *Le Golfe persique et le îles de Bahrain Paris, 1936.*

BERREBY J,J, Le Golfe persique, Paris, 1959.

BRUNET, MILLON, *Les.boutriers de la Mer des Indes,* Affaire et Zanzibar et Mascate, Paris 1910.

CAUSSIN DE PERCEVAL, *Essai sur l'histoire des Arabes,* tome I, p. 14, Paris, 1902.

DE CLERCQ, *Recueil et Traités de la France,* t. 5 (1843-1849), Paris, 1880.

DRIAULT, *La politique orientale de Napoléon 1er,* Paris.

GARDANNE, ALFRED, *La mission du général Gardanne en Perse sous le Premier Empire,* Paris, 1865.

GUILLIAN, CHARLES, *Documents sur l'histoire, la géographie et le commerce de l'Afrique orientale»,* 3 tomes, Paris, 1856.

HEYD W., *Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age,* Leipzig, 1885-1886.

HUART Cl. *Histoire des Arabes,* Paris, 1913.

JARGY Simon, *Émirats arabes du Golfe (l'Aventure du Pétrole) Lausanne-Paris, Éd. Mondo, Hachette, 1976.*

KAJARE, FIROUZ, «Le Sultanat d'Oman», «Étude d'Histoire diplomatique et de Droit international», la question de Mascate, Paris 1914.

NIEBUHR Cl. *Description de l'Arabie,* 2 vols., Paris 1774, *Voyage en Arabie et en d'autres pays de l'Orient,* 2 vols., Paris 1780.

OLIVIER G.A., *Voyagè dans l'Empire ottoman, l'Égypte et la Perse,* 6 vol., Paris, An 9.

ROUX CHARLES, *L'Angleterre et l'expédition française en Égypte,* Le Caire, 1925.

TAVERNIER J.B. *Voyage de M.J.B. Tavernier, écuyer, Baron d'Aubonne en Turquie, en Perse et aux Indes,* Nouvelle Édition, Paris, 1724.

المراجع الانجليزية

AITCHISON C.U.A., *Collection of treaties engagements and Sanads relating to India neighbouring countries,* 12 vol.
- Vol. X – Containing relating to Persia and the Persian Gulf.
- Vol. XI – Containing relating to Turkish, Arabia, Aden and Adjacent coast and Zanzibar.

Calcutta, 1892, 4e et 5e éditions, 1909 et 1933.

BADGER G.P. *History of the Imams and Sayyids of Oman from AD 661-1856, translated from the Arabic and edited and continuing the history down to 1870 by G.P. Badger, Hakluyt Society, 1871.*

COLUMB J.C.R., Slave Catching in the Indian Ocean, London 1873.

CHIROL V., *The Middle Easter question or some political problems of Indian defense,* New York, 1903.

COUPLAND R., *East Africa and its Invaders from Earliest Times to the Death of Seyyid Said in 1856, Oxford, 1938.*

COUPLAND R., Exploitation of East Africa (1850-1890), London, 1933.

CRAVES PHILIP, The live of Sir Percy Cox London, 1951.

CURZON, Persia and the Persian question, London 1892.

DANVERS F.C., *The Portuguese in India,* London 1894.

DAOUD M., *British relations with Persian Gulf (892-1902),* University of London, 1957.

FARIA Y SENSA M., *DE «Asia Portuguesa»,* 3 vol. London 1666-1675. Traduit en anglais par Cap. John Stevens, 1895, sous le titre: *The history of discovery and conquest of India by the Portuguese.*

GOOCH G. and TEMPERLY H., *British document on the origin of the war,* London, 1929.

GRAY BIRCH (Walter De), *The Commentaries of the Great Alfonso Dalbuquerque,* London 1875.
HAMILTON A., *A New Account of the East Indies,* Edinburgh, 1722.
HARRISON P.W., *Doctor in Arabia,* New York, 1940.
HAY, Sir Robert, *The Persian Gulf «Middle East Institute»,* London, 1959.
HAZARD H., ed., *Human relations Area File,* Eastern Arabia, New Haven, 1956.
KELLY J.B., *British Policy in the Persian Gulf, 1813-1843,* London, 1956.
KELLY J.B., *The Legal and Historical Basis of the British Position in the Persian Gulf.* St Antony's Pazpers. Number IV. Middle Eastern Affairs. London, 1958.
KELLY J.B., *Sultanate and Imamate in Oman,* Chatham House Memoranda, London, 1959.
KELLY J.B., *Eastern Arabian Frontiers,* London, 1964.
KELLY J.B., *Britain and the Persian Gulf, 1795-1880,* Oxford, 1968.
KUMON, *India and the Persian Gulf, 1858-1907,* London, 1968.
LANDEN, GERAN, ROBERT, *Oman sine 1856,* Princeton University Press, Princeton, New Jersey, 1967.
LANGER W., *The Diplomacy of Imperialism (1890-1902),* New York, London, 1951.
LORIMER, J.G., *Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia,* 5 vol., Calcutta, 1915.
MAURIZI V., *History of Seyd Said, Sultan of Muscat,* London, 1819.
MILES S.B., «Across the Green Mountains of Oman», *The Geographical Journal,* vol. XVIII. London, 1901.
MILES S.B., *The Countries and Tribes of the Persian Gulf,* 2 vol., London, 1919.
MILES S.B., «Sketch of the life of Seyyid Sultan bin Ahmad». *Persian Gulf Administration Report:* 1887-1888, Calcutta, 1888.
MILES S.B., «A Biography of the Late Seyyid Said», *Persian Gulf Administration Report:* 1883-1884. Calcutta, 1884.
MORRIS James, Sultan in Oman, London 1957.
OSGOOD J.B.F., *Notes of Travel or Recollections of Majunga, Zanzibar, Muscat, Aden, Mocha, and other Eastern Ports,* Salem, 1854. An informative account by a new England traveller, London.

PALGRAVE W.G., *Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia, 3rd edition, London, 1866.*
RUSCHENBERGER W., A Narrative of a Voyage round the World including an Embassy to Muscat and Siam, in 1835, 1836, and 1837, Philadelphie, 1838.
SAID-RUETE, R., Said bin Sultan (1791-1856), Ruler of Oman and Zanzibar: His Place in the History of Arabia and East Africa, london, 1929.
SAINT-EVENS John, The History of Discovery and Conquest of India by the Portuguese, London, 1694-1695.
SALEM E.A., *Political Theory and Institutions of the Khawarij.* (John Hopkins University Studies in Historical and Political Science), vol. LXXIV, No. 2. Baltimore, 1956.
SERGEANT R.B., *The Portuguese of the South Arabian Coast,* Library of Lebanon, Lebanon, 1974.
THOMAS B., *Alarms and Excursions in Arabian,* Indianapolis, 1931.
THOMAS B., *Arab Rule under the Al Bu Saʿid Dynasty of Oman, Proceedings of the British Academy, vol. XXIV. London, 1938.*
WELLISTED J.R., «Narrative of a Journey into the Interior of Oman». Journal of the Royal Geographical Society, vol. VII, London, 1837.
WELLSTED J.R., Travels in Arabia, London, 1838.
WELLSTED J.R., *Travels to the City of the Caliphs, along the Shores of the Persian Gulf and the Mediterranean.* London, 1840.
WILSON, Sir Arnold T., *The Persian Gulf,* London, 1928.

مختصرات بأسماء مراكز الوثائق

فرنسا

Archives du ministère des Affaires étrangères (A.M.A.E.) Documents diplomatiques 1874-1914.
Archives de Colonies (A.C.) Paris 1924-54.
Archives, océan Indien (O.I.).

انجلترا

Francis WARDEN, H.S.R.P., Historical sketch ofthe use and progress of the Government of Maskat, commencing with the year 1694-1695

and continued to the year 1819, by M. Francis WARDEN, Member of the Council at Bombay, Bombay selections, Bombay,

Admin. Rpt Year, Government of India, Foreign Department, Report on the Administration of the Persian Gulf Political Residency and the Maskat Political Agency (Annual Calcutta 1873-1904).

India (1), India Office library, European Manuscripts, Hamilton Collection, private correspondence India, Lord George Hamilton to Lord Curzon, No. C 126.

India (2), India Office Library, European Manuscripts, Hamilton Collection, private correspondence India, Lord Curzon to Lord Hamilton, No. D 510.

India (3), India Office Library, European Manuscripts, Elgin Collection, Papers of the Ninth Earl of Elgin and Kincardine, Letters from and to the Secretary of State for India.

India Records (1), India Office Library, Records, Polical and Secret Department Records, Secret Letters Received, Various.

India Records (2), India Office Library, Records, Political and Secret Department Records, Letters from the Persian Gulf.

India Records (3), India Office Library, Records, Political and Secret Department Records, Secrets from India.

Précis Maskat, Government of India, Political and Secret Department, J.A. Saldanha, ed., Précis of Maskat Affairs, 1892-1902 (Simla, 1906).

Précis Gulf, Government of India, Political and Secret Department, J.A. Saldanha, ef., Précis of Correspondence regarding the Affairs of the Persian Gulf, 1801-1853 (Simla 1906).

Saldanha, Selection from States Papers regarding the East Company for the Years between 1600-1800, calcutta 1908.

الفهرس

القسم الثاني

(الفصل الأول)

(الفصل الثاني)

الباب الثاني

(الفصل الأول)

الباب الثالث

(الفصل الأول)

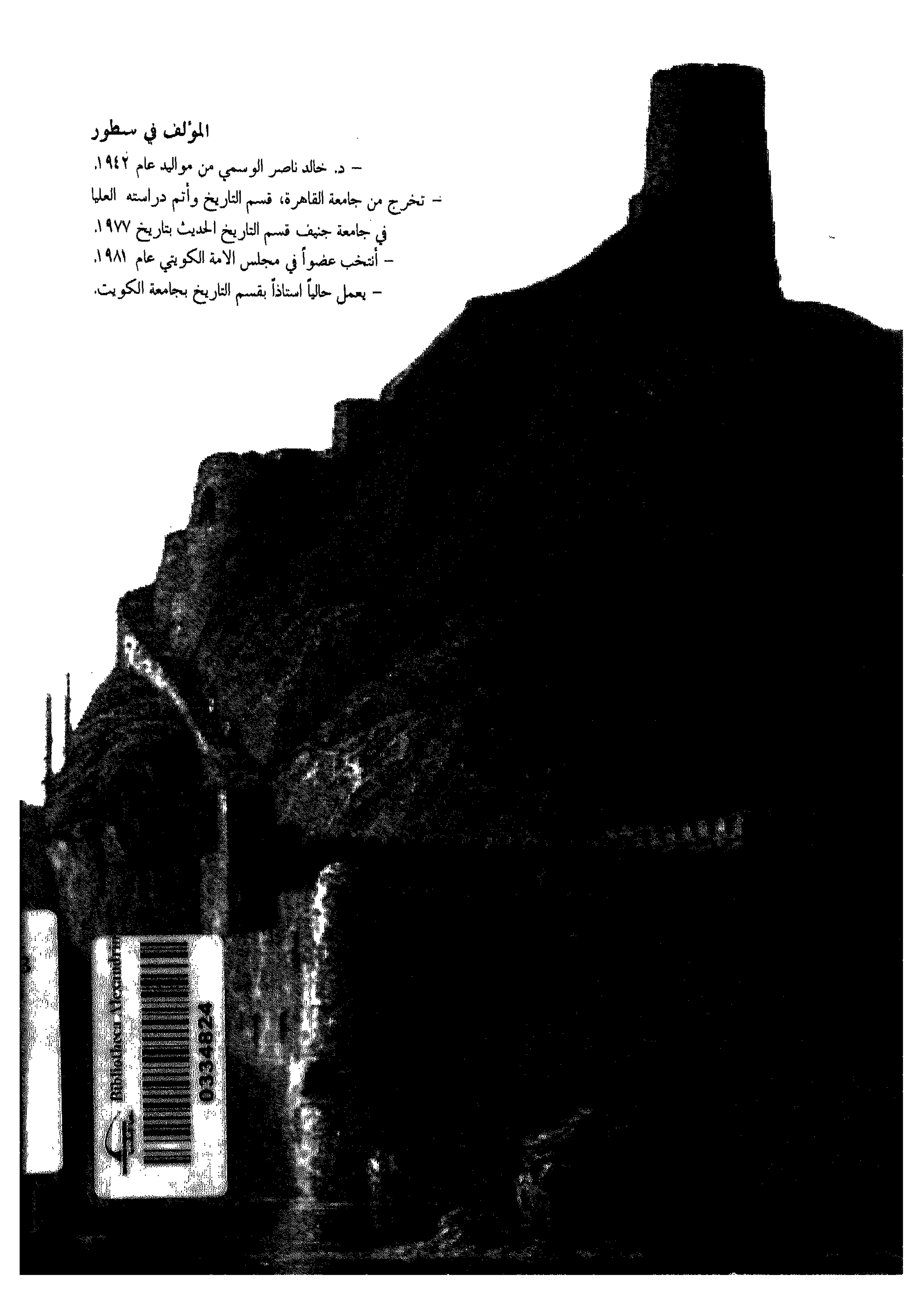
(الفصل الثاني)

(الفصل الثالث)

(الفصل الرابع)

(الفصل الخامس)

(الفصل السادس)



المؤلف في سطور

- د. خالد ناصر الوسمي من مواليد عام ١٩٤٢.
- تخرج من جامعة القاهرة، قسم التاريخ وأتم دراسته العليا في جامعة جنيف قسم التاريخ الحديث بتاريخ ١٩٧٧.
- أنتخب عضواً في مجلس الامة الكويتي عام ١٩٨١.
- يعمل حالياً استاذاً بقسم التاريخ بجامعة الكويت.